
المُحققة
أندرو فورستر

المُحققة

تأليف
أندرو فورستر

ترجمة
سارة طه علام

مراجعة
محمد حامد درويش



المُحققة

أندرو فورستر

The Female Detective

Andrew Forrester

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: يوسف غازي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٨٥ ١

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٦٤
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

مقدمة

من أنا؟

قد لا يهمُّ كثيرًا من أنا.

قد يكون سبب اتخاذي لهذه المهنة — وهي مفهومة بما فيه الكفاية من تسمية هذا العمل حتى دون قراءة كلمة واحدة منه — هو أنه لم يكن لديَّ أي وسيلة أخرى لكسب العيش، أو قد يكون السبب هو توقًا لم أتمكن من التغلب عليه للعمل في مجال التحري.

قد أكون أرملةً أعمل من أجل أطفالي، أو قد أكون امرأةً عزباء لا ترعى إلا نفسها.

ولكن سواء كنت أعمل بمحض إرادتي أو مُرغَمة، أو كنت أعمل لنفسي أو لأجل الآخرين، وسواء كنت متزوجة أو عزباء، عجوزًا أو شابَّة، فسأطلب من قُرائي قَبول إفصاحي بأنه مهما كانت نتائج ممارستي لمهنتي على الآخرين، فإنها، فيما يختص بي، لم تؤدِّ بي إلى قساوة القلب.

ما هو سبب تأليفي لهذا الكتاب؟

لديَّ سببٌ رئيس لذلك، وبما أنه لا يمكن أن تكون لديَّ رغبة في إخفائه عن القارئ؛ لأنه لو كنت أميل لهذا سرًّا إذن ما كنت سأجمع هذه المذكرات من الأساس، كما يجب أن أقول إنني أكتب لأُظهر، ولو قليلًا، أن المهنة التي أنتمي إليها مفيدة جدًّا بحيث لا ينبغي احتقارها.

أعلم جيدًا أن مهنتي محتقَرة. لقد كنت أعلم طوال الوقت هذه الحقيقة تمام العلم، حتى إنني أبقيت مهنتي سرًّا عمَّن حولي. وسواء كان هؤلاء من الأقارب أو الأصدقاء، أو مجرد معارف، فلا أجد حاجة هنا لذِكر هذا الأمر.

يظن أصدقائي أنني خيَّاطة، تغيب عن منزلها يومًا أو أسبوعًا، بينما أعدائي، من لديَّ منهم، مُقتنعون إلى حدٍّ بعيد بأن حياتي محل شك كبير.

في قرارة نفسي أشعر بالحيرة حول أي طرف أخدعه أكثر؛ أصدقائي الذين يظنون أنني في غاية البراءة، أم أعدائي الذين يعتقدون أنني لست بعيدةً كل البعد عن أن أكون آثمة؟

إن مهنتي ضرورية، ولكن العالم يتحاشى من هم على شاكلتي. ومع ذلك فأنا لا ألوم العالم على الكثير من أحكامه. أنا واعية تمامًا بأن ثَمة شيئًا بغيضًا بشكلٍ خاص فيما يتعلق بالجاسوس. ومع ذلك، من المعترف به أن للجاسوس أهميةً خاصة بقدر ما هو بغيض.

سرعان ما سيكتشف العالم خسارة نظام التحري، ولكن إذا حدثت مثل تلك الخسارة، وظهرت جليةً بعض النتائج السيئة التي من المؤكَّد أنها ستتبع إلغاءه، فسيظل العالم يتجنب مصادقة المحقِّق من اللحظة التي تلي استئنافه لمهام منصبه.

قلتُ إنني لا أشكو من هذه المعاملة؛ لأنني، كما أشرتُ، واعية تمامًا لأن المجتمع ينظر إلى مصادقة جاسوس باعتبارها أمرًا مَقيتًا، وعلى الرغم من ذلك فنحن، المحقِّقين، ضروريون، تمامًا كجامعي القُمامة؛ ومِن ثَم أكتب هذا الكتاب كي أساعد على أن أبيِّن — من خلال تجربتي — أن للمحقِّق بعض الحق في أن ينال امتنان المجتمع.

أدرك أنه قد يُنظَر إلى المحقِّقة نظرةً أكثر كراهية حتى من زملائها الذكور في المهنة، ولكن مع ذلك لا يمكن دحض أنه إذا كان ثَمة طلب على المحقِّقين من الرجال، فلا بد بالمثل أن يكون ثَمة طلب على المحقِّقات من النساء اللواتي يعملن جاسوسات لدى الشرطة. يوجد مُجرِمون وكذلك مُجرِمات، وفي الواقع أعرفُ من خبرتي أنه عندما تصبح امرأة مجرمةً، تكون أسوأ بكثير من المجرمين العاديين من الذكور؛ ومِن ثَم يستتبع ذلك أن يكون من الضروري ثَمة وجود لمحقِّقين من الجنسين.

دعونا نكتفي، وبشكلٍ نهائي، بقول إنني أعلم أن مهنتي محتقَرة، ولكنها ضرورية ولا أخجل منها. أعرف أنني قمت بعملٍ جيد خلال مسيرتي المهنية، ولكن ما زال يتعين عليَّ فهم أنني قد أحدثتُ الكثير من الأذى؛ ولذلك أظن أن رصيد العمل الذي أنجزته على مدى حياتي يُحسَب لصالحي.

أثناء تسجيلي لهذه الروايات على الورق سأُولي عنايةً كبيرة لتجنُّب ذِكر نفسي قدر الإمكان. أقرِّر هذه القاعدة، ليس بدافع من أي تواضع شخصي — على الرغم من أنني سأذكر على نحوٍ عابر أن محقِّقك يمكن أن يكون متواضعًا، رجلًا كان أو امرأة — ولكن ببساطة لتجنُّب استخدام ضمير المتكلم «أنا»، الذي أرى أنه يشوِّه الكثير من الكتب. لتحقيق

هذه الغاية، ولتجنُّب استخدام هذا الضمير، سأسرد، بقدر الإمكان، الحكاياتِ مُستخدِمةً ما أعتقد أنه يُعرَف باسم «ضمير الغائب»، وفيما سأسمِّيه أنا بالأسلوب الأبسط.

يمكنني أن أشير أيضًا، أثناء انخراطي في كتابة هذه السطور الافتتاحية، إلى أن المحقِّقات في الكثير جدًّا من الحالات، هن فقط من يمكن استخدامهن للكشف عن أمور بعينها. لا أحتاج هنا إلا للتلميح إلى طبيعة هذه الاكتشافات؛ فالكثير منها بالغ الأهمية بحيث لا يمكن الاعتراف بالإشارة إليها تفصيلًا في عمل بهذا الطابع، وفي كتاب يُنشَر في العصر الحالي. ولكن دون الخوض في تفاصيل، سيفهم القارئ أن لدى المحقِّقة فرصًا أكبر بكثير مما لدى الرجل فيما يتعلق بالمراقبة الوثيقة، ومراقبتها لأمور لا يستطيع الرجل أن يُدانيها في التنصت عليها ببساطة.

أدرك أنه لا بد أن تمثِّل فكرة الجواسيس العائليين موضوعًا بغيضًا للتأمل؛ إذ إن التفكير في احتمال وجود محقِّقة بين أفراد العائلة هو عمليةٌ مُزعجة. ولكن من ناحيةٍ أخرى، يمكن الدفع فقط بأن الرجل الذي لديه أسرار يُخفيها هو مَن عليه أن يخشى مِن أن يُراقَب؛ ومِن ثَم فمن المُبرَّر مراقبة من يخشَون ذلك.

ومع كل ذلك، فمن المؤكد أن المحقِّقين من النساء والرجال من ضرورات الحياة الإنجليزية اليومية؛ وأنني محقِّقة، وأعتقد أنه من المناسب أن أُعرِّف العالم بعض خبراتي.

ماذا ستكون قيمة هذه الخبرات؟

لا يمكنني التخمين، ولن أقول إنه لا يهمُّني أن أعرف، ولكنني آملُ أن تُظهِر رواياتي هذه أنه مع أن المؤكد أن الكثير من الجرائم يمرُّ دون اكتشاف، فإن عمل المحقِّق يكشف، وبسهولة، عن كثير من أعمال الشر الأكثر غموضًا والأفضل تخطيطًا. علاوةً على ذلك، آملُ أن يتأكد الناس من وجود الكثير من الخير الذي يمكن العثور عليه، حتى بين المُجرمين، وأن مخالفة رجل للقانون لا يستتبعها بالضرورة أن يكون غليظ القلب.

والآن، لنستعرض عملي.

مُؤجِّر مدى الحياة

غالبًا ما نكون نحن المحققين — وعندما أقول نحن المحققين، بالطبع أعني المحققين والمحققات — أول من يتحرك فيما يخص القضايا ذات الأهمية القصوى للأفراد خصوصًا، وللجمهور عمومًا. (ربما يكون من الجيد هنا أيضًا أن أشير إلى أن مسوَّدة هذا العمل راجعها محرِّر أدبي عادي. وهي لا تظهر كما كتبها المؤلف فعلًا. قد يكون هذا الإشراف على العمل ضارًّا بمبدأ «التماثل مع الحياة خارجه»، ولكن بممارسته، تحقَّق بعض الوضوح في الأسلوب.)

على سبيل المثال، اكتشفتُ قضية من تلك القضايا منذ بضعة أسابيع فحسب.

تُوفيت فجأةً سيدة، كانت حياتها منعزلة ومتحفظة إلى حدٍّ ما، ولم يكن يُقيم معها أحد إلا مدبِّرة للمنزل. ومن الغريب أن ابن السيدة وصل إلى المنزل قبل ساعتين من أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. وبما أن المنزل الذي حدثت فيه الوفاة كان بعيدًا عن المدينة، وكان من الضروري أن يعود الابن على الفور تقريبًا إلى لندن، تُرك المنزل لبعض الوقت في رعاية مدبرة المنزل السالفة الذِّكر — أو كان من الأصح القول تحت سيطرتها — وهي امرأة كانت ذات سمعة سيئة في الحي الذي يقع فيه منزل ربة عملها الراحلة.

لاختصار هذا الجزء من هذه الواقعة، والخاص بمدى فعالية المحققين الشُّرطيين التي لا يفهمها الناس جيدًا، والتي لا تؤثر تأثيرًا مباشرًا على الطرح قيد البحث، يمكن في بضع كلمات القول إنه في الوقت الذي كان يفصل بين مغادرة الابن ووصوله، نُهب المنزل بكفاءةٍ شديدة.

بالطبع، أحاط الجيران الابن علمًا على الفور بالشكوك التي كانت تُساور العديد منهم فيما يتعلق بالجناية التي كانوا متأكدين من أنها قد ارتُكبت، وسرعان ما كان هذا الرجل في وضعٍ جعله يقتنع بأن سرقةً قد حدثت.

جرى التحدث إلى الخادمة، وأُخبرَت عن جريمتها، وهو ما نفته بوقاحة، وطُردت على الفور، هدَّدت بحماقة بأنها ستتخذ إجراءاتٍ قانونيةً فيما يتعلق بتشويه سمعتها.

رفض نجل السيدة الراحلة اتخاذ أي إجراء في مسألة السرقة، قائلًا إنه لا يمكنه أن يسمح بالزجِّ باسم والدته ووفاتها في إجراءات شُرطية وقضائية، وترك الأمر يمر، أو هكذا افترض، ومع ذلك يجدر هنا ملاحظة أنه عانى من مشقةٍ ضخمة بسبب غياب بعض الأوراق المرتبطة بوفاة والدته.

بعد مرور أربعة أشهر ظهرت الشرطة في المشهد، وبكفاءةٍ تُعتبر مثالًا على قيمة قوة المباحث. بالطبع كانت الشرطة قد سمعت، بالطريقة المعتادة، عن السرقة المُشار إليها، ولكنها لم تتمكن من اتخاذ أي خطوة ما دامت لم تحصل على موافقة أي مدَّعٍ عام للتحرك، ولكن لا يعني عدم تحرك الشرطة في القضية أنها قد نسيتها.

تحدث جريمة سرقة في الحي، ويُمنَح أمر تفتيش، وتبدأ عملية بحث وتقصٍّ. وفي سقيفةٍ خلف منزل صغير، يملكه زوجان ذكرت المدبرة بالفعل أنها تعرفهما، وكانا يأتيان إلى المنزل في الفترة التي كانت فيها المدبرة المسئولة الوحيدة عنه؛ عُثر على صندوق أموال مدهون بورنيش اليابان الأسود.

على الفور، ربطَ المحقِّق الذي قام بهذا الاكتشاف بين الصندوق والسرقة التي وقعت في منزل السيدة الراحلة، وبعد فحص دقيق، والعثور على الحرف الأول من لقبها محفورًا على غطاء الصندوق، أصبح مُقتنعًا بشدة بأن تخمينه كان صحيحًا، حتى إن ساكن المنزل وُضع رهن التحفظ، على مسئوليته الخاصة.

ثبتت التهمة على الرجل التعِس. تمكَّنت الشرطة، خلال سلسلة رائعة من التخمينات الموفَّقة والتحقيقات الجادَّة، من التوصل إلى الابن، وهذا المذكور آخِرًا تمكَّن من أن يُخرج مفتاحًا — واحد من مجموعة مفاتيح للمنزل كانت تخص والدته الراحلة — كان يفتح صندوق الأموال المعني، والذي استُخدم عنوةً بطريقةٍ معيَّنة لم ينتج عنها كسر الصندوق.

ومع ذلك رفض هذا الرجل اللجوء إلى القضاء، وأُفرجَ عن السجين وسط خوفه من الاعتقال والاستجواب.

أيٌّ من الرجلين — الرجل أو المحقِّق — قام بواجبه تجاه المجتمع؟ سأترك هذا السؤال ليُجيب عليه قُرائي. إن هدفي من اقتباس هذه الواقعة الخاصة بعمل جهاز المباحث هو إظهار مدى أهميته، حتى في المواضع التي يفترض فيها خطأً من يجب أن يرفعوا الدعوى أن الصبر واللين يشكِّلان مسارًا أفضل من العدالة والقصاص العادل.

كثيرًا ما تبدأ شرطة المباحث بمباشرة القضايا وتكتشف وجود بعض من يشغلون منصب المدَّعي العام ممن ليس لديهم أدنى فكرة بمقتضيات شَغْل مِثل هذا المنصب.

لقد وقع العديد من القضايا التي لها نفس هذا الطابع تحت إشرافي الخاص، والتي كان العديد منها شديد الأهمية. ولعل أهمها هي تلك التي أنا على وشك سردها، والتي اخترت لها عنوان «مُؤجِّر مدى الحياة».

كما يحدث في الكثير من الأحيان، أُوكلت إليَّ هذه القضية في وقت لم أكن أتوقع فيه تلقِّي أي عمل، وعندما كنت في الواقع «قد أنهيت عملي لهذا اليوم»، كما كان يقول محقِّق وصديق قديم لي، وهو زميل مات منذ فترة طويلة (قُتل على يد مصرفي نبيل كان قد غادر المدينة إلى الأبد، وبعد قَتْل جون هيمينجز رحل عن إنجلترا بلا عودة).

كان يوم من أيام الأحد عندما أُعلمتُ لأول مرة بواحدة من أغرب القضايا التي خضعت لمراقبتي. دائمًا ما أُنهي عملي في أيام الأحد، وحتى إذا كنتُ منخرطة بشدة في قضيةٍ ما فغالبًا ما أرتاح في هذا اليوم. لن أعمل أيام الأحد إذا كان باستطاعتي ذلك، فأنا أجتاز بحر العمل الأسبوعي، إذا جاز التعبير، كي أصل إلى شاطئ الراحة في يوم الأحد. وعندئذٍ يكون لديَّ أربع وعشرون ساعة أستريح فيها قبل أن أغوص في بحر التحقيقات مرةً أخرى.

إنني ما يُسمونها برفيقة الثرثرة، ولا بد لي من الاعتراف بأن من عادة النساء الحديث عن الفضائح، ويُطلعنني على هذه الفضائح في غضون ثلاث ساعات من التعرف إليهن.

كانت السيدة فليمبس من بين آخرين ممن كنت أعرفهم منذ بضع سنوات. أعتقد أنني تعرَّفت عليها لأول مرة لأن اسمها أدهشني كَوْنه غير شائع، ولقد كان الأمر غير عادي؛ لأنه بعد أربع وعشرين ساعة فقط من معرفتي بها كنت أعرف أنها كانت متزوجة من سائق عربة أجرة، وأنه كان هولنديًّا من ناحية الأب، وأنه يعمل في تجارة بيع ثعابين البحر في سوق بيلينجسجيت.

لقد كان هذا التعارف والملاحظة البحتة لاسم فليمبس هو ما أدَّى إلى سلسلة من الأحداث غير العادية التي سأضعها الآن أمام القارئ تمامًا كما ربطتها معًا، مع الوضع في الاعتبار فقط أنني سأتجنَّب ذِكر نفسي في السرد بقدر ما أستطيع.

كما ذكرتُ آنفًا، أنا أتخذ من يوم الأحد عطلةً. وبعد التعرف على آل فليمبس، وبعد التأكد من أن سائق عربة الأجرة — ربما مع بعض المعرفة بتلك الطريقة المرحة لقضاء يوم الأحد التي سمعت أن الأجانب يمتازون بها — كان مُعتادًا على استخدام عربة الأجرة الخاصة به كسيارة خاصة في أيام الأحد، ويأخذ زوجته في نزهة، وجدت أن يوم إجازتي أكثر بهجة مما كنت أعتقد حتى ذلك الوقت. ببساطة، خلال الصيف الذي تعرَّفت فيه على آل فليمبس، كنت باستمرار أغادر لندن معهم وندخل بضعة أميال في الريف.

بالطبع كان فليمبس هو من يقود العربة، وكنت أنا وزوجته نجلس بالداخل، والنوافذ كلها مفتوحة، حتى نتمكن من الحصول على أكبر قدر ممكن من هواء الريف.

أجد، بالرجوع إلى اليوميات التي احتفظت بها منذ أن التحقت بالخدمة، والتي أعكف على كتابتها بغرض المتعة، وكذلك لأخفِّف عن ذهني التفاصيل التي من شأنها أن تُثقِله؛ إذ إنني قد أضيف أنني أضع في هذه اليوميات — والتي لا يمكن طباعتها — كل كلمة في قضية أسمعها بأكبر قدر أتذكَّره، وكل تفصيلة بقدر ما أستطيع صياغتها. أقول إنني أجد، بالرجوع إلى يومياتي، أنه في يوم الأحد الرابع الذي خرجت فيه مع آل فليمبس في عربتهم، وفي الأسبوع السادس من معرفتي بهذين الشخصين، اللذين وجدت أنهما عمومًا في غاية الاحترام، أُعلمتُ لأول مرة بواحدة من أفضل القضايا التي شاركت فيها على الإطلاق، حتى وإن كانت واحدة من أكثرها تكديرًا.

يمكنني إعادة سرد المحادثة التي استرعت فضولي تمامًا كما حدثت؛ لأنه بحلول الوقت الذي انتهت فيه الرحلة كنت قد حصلت على خيطٍ رائع للقضية التي تشغلني، حتى إنني فكَّرت أنه من الضروري أن أدوِّن ما عرفته فعلًا.

كانت السيدة فليمبس امرأةً صالحة تحب أن تسمع نفسها وهي تتحدث، وهو، كما يُقال، عيب في جنس النساء. من الساعة التي سمحت لها فيها بالتعرف إليَّ توقَّفت عن التحدث كثيرًا إلى تلك المرأة الطيبة؛ إذ كنت أُنصت إليها فحسب، ونادرًا ما فتحت فمي إلا لطرح سؤال.

بالمناسبة، ينبغي أن أُضيف هنا أنني لم أتطفل أبدًا على آل فليمبس؛ فدائمًا ما كنت أُساهم بأكثر من ثلث الطعام والمشروبات التي كنا نأخذها معنا في العربة؛ ومِن ثَم أظن أنني قد دفعت حصتي من استخدام عربة الأجرة، التي كانت ستُقلُّهم سواء كنتُ في لندن أو جيريكو.

استرعى انتباهي أول كلمات قالها الرجل وزوجته فيما يخص القضية.

كنا قد ركبنا العربة، هي وأنا، أما هو فكان ينظر إلى النافذة وهو يفرد قبعته القديمة مرارًا وتكرارًا.

قال: «جيمي»، إذ كان اسمها جيمايما، «إلى أين نذهب اليوم؟»

ردَّت قائلةً: «حسنًا، يا جان»، كان قد عُمِّد تيمنًا باسم أبيه الهولندي، «إننا لم نتوجه إلى طريق «ليتل فوربيني رقم اثنين» في هذا الصيف الميمون.»

قال جان صائحًا بنبرةٍ مُنتصرة: «لقد حُسم الأمر، سنتوجه إلى «ليتل فوربيني رقم اثنين».»

صعِد جان إلى مقصورته، وقاد العربة إلى خارج الفِناء بسرعةٍ كبيرة، حتى إنه للحظةٍ، بينما كنا نمرُّ على أحجار الطريق، دار بخلَدي أن الطريق الوحيد الذي كنا على وشك أن نسلكه هو طريق الهلاك.

بطبيعة الحال دفعني الطريق السريع الاستثنائي، الذي كنا على وشك أن نسلكه، لتوجيه بعض الاستفسارات؛ إذ إنه يمكن للجمهور أن يفهم بسهولةٍ أنه إذا كان ثَمة أمرٌ واحد لا يقوى المحقِّق، ذكرًا كان أم أنثى، على تحمُّله أكثر من أي أمر آخر، فهو الغموض.

قلتُ، متحدثةً بالطريقة التي تتحدث بها طبقتها؛ إذ يمكنني القول إن نصف نجاح المحقِّق يعتمد على تعاطفه أو تعاطفها مع الأشخاص الذين يحاول استقاء المعلومات منهم: «يا له من طريقٍ غريب ذاك الذي نسلكه، يا سيدة فليمبس!»

قالت السيدة فليمبس: «أجل.» وإذ تنهَّدت أدركتُ أن ردَّها كان ينطوي على أكثر مما قد يبدو للمستمع العادي. لا أستخدم تعبير «المستمع العادي» عبثًا على الإطلاق، ولكن ببساطة بالمعنى المِهني.

«هل هو سر؟»

صاحت بينما كانت العربة تمرُّ فوق المطبَّات التي شكَّلتها أحجار شوارع لندن: «ماذا تقصدين؟ «ليتل فوربيني»؟»

فأضفت بابتسامة: «رقم اثنين.»

هزَّت رأسها وأجابت قائلةً:

«لم يكن ثَمة رقم اثنين، على الرغم من أنه كان لا بد أن يكون موجودًا.»

كانت هذه الإجابة محيِّرة. شعر كلٌّ من الزوج والزوجة بتعاطفٍ مشترك فيما يخص «ليتل فوربيني رقم اثنين»؛ ومع ذلك بدا أنه لم يكن ثَمة وجود على الإطلاق لـ «ليتل فوربيني رقم اثنين».

أردفتُ قائلةً: «أخبريني عن الأمر يا سيدة فليمبس، إذا لم يكن سرًّا.»

أجابت بهذه الكلمات: «هذا ما سأفعله، يا عزيزتي، عندما نصل إلى الحدائق، ولكنني لا أستطيع الآن ونحن نتخبط فوق أحجار الطريق.»

قطعنا ستة أميال خارج لندن، ووصلنا إلى الطريق الريفي المنبسِط. لا حاجة لقول أين ذهبنا؛ لأن الأماكن ليست لها قيمة في هذا السرد.

يكفي القول إننا كنَّا على بعد ستة أميال خارج لندن، وكنا نسير على طريقٍ ريفي منبسِط.

بينما كنَّا ننعطف في الطريق أصبحت السيدة فليمبس متحمِّسةً بعض الشيء، وبعد ذلك على الفور استدار سائق العربة وقال وهو ينظر إلى زوجته:

«إننا على وشك الوصول إلى الموضع المحدَّد.»

استمرَّت العربة في السير لمسافة مائتَي ياردة تقريبًا، ثم سحب جان فليمبس المِقوَد، ونزل من مقصورته.

قال وهو يُشير إلى إحدى العلامات على جانب الطريق: «ها هي العلامة بالضبط، وهي تُطابق تمامًا المكان الذي فقدتُ فيه ليتل فوربيني رقم اثنين.»

وعند هذه النقطة علَّقت السيدة فليمبس قائلةً:

«اللعنة على الثلاثين جنيهًا تلك!»

«لا يهم، أيتها المرأة العجوز، يعلم الرب أننا حينئذٍ كنا نريد هذا المبلغ بشدة، ولولا هو ما كنت أنا من سيقود عربة الأجرة هذه؛ لذا لا داعي للعبوس هكذا، أيتها العجوز.»

سيُوافق القارئ على أن محادثة كهذه كانت مُثيرة بما يكفي لجذب انتباه أي شخص، أما لمحقِّقة فقد كانت تُوحي بالكثير.

لم أقل شيئًا حتى بدأت العربة في التحرك مرةً أخرى، وكان بوسعي أن أخمِّن كم كان الرجل يقدِّر هذا المكان بشدة من الإيقاع البطيء الذي تركناه به، ومن المرات العديدة التي نظر فيها إلى الوراء إلى علامة الطريق تلك ورَنا إليها.

في الوقت نفسه كانت السيدة فليمبس — داخل العربة — تهزُّ رأسها بحزن، وكان بوسعي أن أرى، من شكل عينيها الحزينتين الشاردتين، أن فِكرها كان في موضعٍ آخر بعيد جدًّا عني وعن عربة الأجرة.

حينما انتبهت — وهو ما حدث بعد وقت قصير بصيحة وعبارة حادَّة وقاطعة؛ إذ لاحظت أن من عادة النوع الأغلظ من الناس أن ينهي سريعًا أي تعبير عن المشاعر — ذكَّرتُها بأنها قد وعدت أن تُخبرني بقصة ليتل فوربيني.

«انتظري، يا عزيزتي، حتى نصل إلى الحدائق، وسيُخبرك جان القصة بنفسه؛ فهو يرويها أفضل مني.»

ومِن ثَم لم أنبس ببنت شفة أخرى حتى انتهينا من تناول عشائنا البسيط في حدائق الشاي، التي كانت وِجهتنا. عندما انتهى تناول العشاء، وكان جان يدخِّن غليونه، ذكَّرتُ السيدة فليمبس مرةً أخرى بوعدها، وإذ أخبرَت زوجها بالأمر بدا لي أنه لم يكن عازفًا على الإطلاق عن إنعاش نفسه بسرد القصة.

من الضروري أن أقصَّ ما قاله؛ حتى يتسنى للقارئ تقدير كيف يتمكن المحقِّق من حل القضايا.

«كنتُ عائدًا إلى البيت في عربتي ذات ليلة، منذ وقت بعيد ...»

قاطعته السيدة فليمبس قائلةً: «حدث الأمر في عام ثمانية وأربعين، عندما كان الفرنسيون يُقاومون لوي فيليب.»

«كنتُ ذاهبًا إلى البيت، ولم أكن في مزاجٍ جيد. عندما مررت بهامبستيد هيث، لفتت انتباهي امرأةٌ كانت تمشي مترنحةً وهي تحمل ما اعتقدت أنها حُزمة.»

فقالت السيدة فليمبس: «لقد كانت طفلة.»

أردف جان قائلًا: «أجل، كانت كذلك، ولم يكن قد مرَّ على وجودها في هذا العالم الثمين سوى أسبوعين. أوقفت العربة وأنا أراها تترنَّح؛ واختصارًا لهذه الجزئية، أخبرتها أن بإمكانها أن تصعد وتجلس في المقصورة إلى جانبي؛ إذ إنه لم يكن من الممكن أن أسمح لمتشردةٍ أن تجلس داخل العربة وعلى وسائدها. كانت ضعيفة للغاية، وكانت الرضيعة أكثر طفلة مسكينة رأيتها في حياتي، ولكنها كانت جميلة عند النظر إليها كما رأيتها على ضوء المصباح الغازي.»

قاطعته جيمايما موضِّحةً: «كما رآها على ضوء المصباح الغازي!»

«حسنًا، بعد تبادل بعض الحديث مع تلك الشابة أوقفت العربة عند إحدى الحانات، واشتريت لها ولنفسي شرابًا. وسواء كان الرُّم هو ما جعلني أفكر في هذا، أو كانت الفكرة في رأسي من قبل ولم أكن أعلم، ما إن احتسيت الرُّم حتى أصبحت الفكرة واضحة أمامي. قلتُ وأنا أشير إلى الطفلة: «ماذا ستفعلين بها؟» فقالت وهي تنظر إلى الخارج نحو لندن: «لا أعلم.» سألتها عن الأب فقالت: «لا.» بعد ذلك نظرت إلى الخارج وأشرت إلى لندن، بعد ذلك هزَّت رأسها، ولكنها لم تبكِ؛ فقد كانت، على ما أعتقد، شديدة الضعف بحيث لا تقوى على ذلك. أردفتُ قائلًا: «إن كنتِ لا تستطيعين فعل أي شيء لها (إذ كانت قد أخبرتني

بجنس المولودة) فقد يتمكن شخصٌ آخر من ذلك؛ كما ترَين، أنا وزوجتي العجوز لم يكن لنا عائلة أبدًا».»

علَّقت السيدة فليمبس قائلةً: «لم يكن لنا عائلة أبدًا؛ هذا شيءٌ مؤسف.»

تابع السيد فليمبس قائلًا: «فسألتني الفتاة: «عجبًا! من الذي يرغب في إثقال كاهله بطفل امرأة أخرى؟ النساء لديهن ما يكفي من المشاكل مع تربية أطفالهن.» أجبتها: «أنا أرغب في ذلك؛ فزوجتي العجوز لم تُنجب أي أطفال، وليس من المرجَّح أن تنصلح الأمور.» سألتني الشابَّة: «هل ترغب في ذلك فعلًا؟» وارتسم على وجهها تعبيرٌ مروِّع لا أرغب في رؤيته أبدًا على أي وجه آخر. «أجل.» هكذا قلت، «وسيكون كل شيء عادلًا وعلنيًّا، وسأعطيكِ عنوان زوجتي العجوز والنقود التي معي لقاء الحصول عليها.» ومن هنا أتت تسمية الطفلة بـ «ليتل فوربيني»؛ كَوْن هذا هو المبلغ الذي كان في جيبي بعدما دفعت ثمن الرُّم، وبعد يوم كامل من العمل وأجرة تبلغ شلنًا واحدًا فقط. حسنًا، خلاصة الأمر أن تلك الشابة البائسة أعطتني الطفلة، وأعطيتها الأربعة البنسات، ونزلت من العربة وسارت في الطريق ثم انعطفت، ولم تنظر إلى الوراء مرةً واحدة، ولم تأتِ إلى منزلنا مرةً واحدة — مع ذلك، ربما تكون قد فقدت العنوان، وإذا كانت قد فقدته، إذن فهي ليست سيئة للغاية في نهاية المطاف، وربما تكون قد ماتت — على أي حال، هكذا وصلنا لاسم «ليتل فوربيني».»

كرَّرت السيدة فليمبس كنوع من التصديق على كلامه قائلةً: «هكذا وصلنا لاسم «ليتل فوربيني»، ليُبارك الرب قلبها الصغير.»

فقلت: «أجل، ولكن ماذا عن «ليتل فوربيني رقم اثنين»؟»

«أوه! لقد كان هذا قبل خمس سنوات فقط. لم تسعد عزيزتي جيمي — أقصد جيمايما — عندما أحضرت «ليتل فوربيني» المسكينة إلى البيت، وأعتقد أنها ظنَّت أنني كنت أعرف عن هذا الأمر أكثر مما كنت أعرف حقًّا، حتى صارت غير مُرتاحة للغاية على خلافي، ولكن فلتفكر زوجتي كما تشاء، فأنا متأكدٌ أنه لم يكن ثَمة أمٌّ أكثر حزنًا مما كانت عندما أُخذت «ليتل فوربيني» منَّا وتغيَّرت حياتها للأفضل.»

قالت السيدة فليمبس، وفي عينيها دمعتان أو ثلاثة، كما لاحظت: «تغيَّرت إلى الأفضل كثيرًا!»

«يا إلهي! أتخيَّلها الآن وهي آتيةٌ تحمل عشائي، وهي لم تتجاوز العاشرة من العمر، وكيف كان سائقو عربات الأجرة الآخرين يتحدثون معها، وكيف رغبوا جميعهم في تقديم التعازي عندما ماتت، وهو ما كان طبيعيًّا. أجل، لقد اشتقنا إليها عندما ماتت في التاسعة من العمر.»

عقَّبت السيدة فليمبس قائلةً: «في التاسعة من العمر، قبل خمس سنوات.»

«وكان أمرًا طبيعيًّا أن نفكر في أن حبيبتنا «ليتل فوربيني» كانت طيبة، وأننا كنا وحيدين وقد نجد طفلةً أخرى، وربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أشرع في البحث عن «ليتل فوربيني رقم اثنين»، وليُباركِكِ الربُّ يا عزيزتي، لا تمرُّ ليلة في الأسبوع لا يجد فيها سائقو عربات الأجرة، وحتى رجال الشرطة أنفسهم، امرأة تجول الشوارع وهي تحمل رضيعًا لا تعرف ماذا تفعل به.»

«قبل ثلاثة أشهر، كانت «ليتل فوربيني» ما زالت على قيد الحياة، وكانت تجلس على علامة الطريق التي أشرت إليها، وفي إحدى ليالي شهر يوليو من ذلك العام رأيتها هناك. دقَّ قلبي بشدة حتى شعرت أنه يكاد يصعد إلى حلقي؛ لأن الأمر بدا وكأن كل هذه السنوات لم تمر، وكأن أم «ليتل فوربيني» تقف على قارعة الطريق أمام رأس حصاني مرةً أخرى. لقد كانت شابةً أخرى من تلك الشابات، كانت امرأةً تحمل رضيعةً ولا تعرف ماذا تفعل بها. تحدَّثت معها؛ إذ كانت لديَّ تلك التجربة السابقة مع الشابة الصغيرة، سرعان ما جعلتها تفهمني، هذا على الرغم من أنني أؤكد لكِ أن قلبي كان يدقُّ بشدة وأنا أفكر في «ليتل فوربيني». لم تفهمني في البداية، ولكنها فهمتني أخيرًا، وكنت أظن أنها كانت خائفة قليلًا من الطريقة التي تحدَّثت بها، قائلةً إن العناية الإلهية قد تدخَّلت، بينما لم يكن الأمر سوى أنا. أخذت العنوان بجشع، ولكنني عندما عرضت عليها خمسة الشلنات وتحدَّثت إليها بود، تراجعت إلى الوراء وناجت السماء إن كان بإمكانها بيع طفلتها. وبعد ذلك وعدت أن تأتي لزيارتنا ولترى زوجتي العجوز، وظلَّت تُقبِّل الطفلة حتى عاد قلبي يدقُّ بشدة مجددًا، ثم ركضت وذراعاها مفرودتان وتتأرجحان من جانب إلى آخر كالرافعة، ولم تأتِ أبدًا لرؤية زوجتي العجوز!»

عقَّبت السيدة فليمبس قائلةً: «ولم تأتِ أبدًا! ولو كانت أتت ماذا كنت سأقول، ولو كانت فقأت عينيَّ ما كنت لأشتكي.»

تابع السيد فليمبس قائلًا: «لأنه كما ترين، لم ترَ زوجتي العجوز هذه الطفلة أبدًا.»

«لم أرَها أبدًا!» هكذا قالت السيدة فليمبس.

أردف الرجل قائلًا: «لأنه لا بد أن تعرفي أنني قد بِعتُ طفلة هذه المرأة قبل أن أغادر علامة الطريق هذه خلفي بميلٍ واحد.»

كرَّرت السيدة فليمبس وهي تهزُّ رأسها قائلةً: «بميلٍ واحد!»

«أسأل الرب ألا يُدخلنا في تجربة، ولكنني لم أستطع مقاومة إغراء الحصول على الثلاثين جنيهًا تلك؛ لأنني كنت في ذلك الوقت مُفلسًا تمامًا؛ إذ كان يتوجب عليَّ دفع تعويضات بعد دهسي لرجلٍ مُسنٍّ كان مذعورًا أكثر منه مُصابًا، ولكنه كان المُسن الأعند الذي قد يُقابله سائق في موقف كهذا. وكان عليَّ أن أدفع له مبلغ الثلاثين جنيهًا، وهو ما بدا لي شكلًا من أشكال العناية الإلهية عندما عرضت عليَّ المرأة ذلك المبلغ نفسه؛ إذ كنت أشعر بالأسف على الثمن الذي دفعته لدهسي لهذا السيد العجوز العنيد بينما كنت غارقًا في التفكير في «ليتل فوربيني» الضائعة.»

بحلول هذا الوقت كان الفضول قد بلغ مني مبلغه. كان من المستحيل تجنُّب استيعاب أن الطفلة التي تخلَّت عنها الأم البائسة وأعطتها إلى سائق عربة الأجرة قد بيعَت حرفيًّا في غضون عشرين دقيقة من حصول السائق عليها.

ولعله من الضروري أن أشير إلى أنني لم أكن مندهشة من فكرة أنه من غير المرجَّح على الإطلاق أن يكون هذا السائق قد قابل امرأةً ثانية في حياته على استعداد للتخلي عن طفلها. فأنا، بصفتي محقِّقة، يُخجلني ويؤلمني بنفس القدر أن أعترف بأنه لا تمرُّ ليلة في مدينة لندن الكبيرة لا نعثر فيها على أمهاتٍ بائساتٍ مستعدات للتخلي عن أطفالهن. ربما ينبغي أن أُضيف أن تجربتي تقودني إلى الاعتقاد بأن هؤلاء النساء الفقيرات يكن أمهات للمرة الأولى؛ أمهات لم يُمضين سوى فترةٍ قصيرة جدًّا في الأمومة؛ ومِن ثَم بما أنهن لم يُمضين مع صغارهن فترةً طويلة بما يكفي بحيث لا يكون بمقدورهن الانفصال عنهم، ما زِلن تحت تأثير ذلك الرعب الشديد من وضعهن، وما يترتب عليه من خوف أو رهبة من الطفل؛ نتيجةً لتذكُّرهن للوقت الذي كن فيه متحررات ومحترمات. غالبًا ما تكون هؤلاء الشابات من الخادمات والعاملات اللواتي تعرَّضن للإغواء. كم هن مسكينات! نحن، المحققين، وخاصةً المحققات، نعرف ما فيه الكفاية عن تلك الأمور.

سألت السيد فليمبس قائلةً:

«من هي المرأة التي أخذت الطفلة؟»

«عجبًا! كيف لي أن أعلم؟ لقد كنت أقود مُسرعًا بينما كانت الصغيرة على أرضية عربة الأجرة بين وسادتين كي لا تصطدم بشيء، عندما نادت عليَّ قائلةً: «عربة أجرة!» فقلت لها: «مشغول.» فقالت: «سأدفع لك ما تريده.» فقلت في نفسي: «حسنًا، إنها زبونة غريبة على أي حال.» كانت في العقد الثالث من العمر تقريبًا. لقد كانت امرأةً ذات مظهر جامح كما رأيت من ضوء المصباح الغازي الذي كانت تقف أسفله، ولكنها كانت سيدةً راقية

بحق، وكانت عيونها داكنة. قلت: «لا أستطيع أن أُقلَّكِ.» فقالت: «هل قطعت مسافةً طويلة على الطريق؟» فقلت: «حواليَ ثلاثة أميال.» فقالت: «ها، هل رأيت امرأةً تحمل طفلًا؟» فكاد هذا السؤال أن يوقعني من فوق مقعدي. «امرأة مسكينة تحمل طفلًا حديث الولادة جدًّا؟» هكذا قالت. وحينها من حسن الحظ — أو من سوء الحظ — وهو أحيانًا ما يكون جيدًا، وأحيانًا أخرى يكون سيئًا بلا شك؛ في هذه اللحظة بالضبط أطلقت الطفلة صرخةً عالية. سألت المرأة وهي تندفع نحو نافذة العربة: «ما هذا؟ أوه! ما هذا؟» ويمكنني أن أخبرك أنني كنت على وشك السقوط من فوق مقصورتي من المفاجأة. قالت وهي تنظر داخل العربة، وعلى ما أعتقد أنها كانت قد رأت الطفلة على الأرضية: «لقد أرسلتها السماء!» فقلت: «إنها هي نفس الشابة التي كنتِ تتحدثين عنها!» فصرخَت، ولو كان هناك شرطي في الجوار كنتُ سأواجه مأزقًا كبيرًا، مع احترامي لكِ يا عزيزتي، أرجو ألا تؤاخذيني لحديثي عن الشرطة ونحن في يوم الأحد. بعد ذلك نهضت وأخبرتها أنني وزوجتي قد فقدنا «ليتل فوربيني» الحبيبة، وكيف حصلت على هذه الطفلة؛ فصاحت مرةً أخرى قائلةً إن العناية الإلهية هي السبب في ذلك، وقالت: «ها هي الثلاثون جنيهًا، أيها الرجل الطيب»، وكانت كلها من الذهب، «خذها وأعطني الطفلة»، ثم قالت إنه لا يمكن أن أُكِن حبًّا للطفلة لأنني لم أرَها من قبل، وأنني إذا فعلت كما تطلب مني فإنني بذلك أصنع خيرًا عظيمًا. باختصار، أعطيتها الطفلة بعد بعض الوقت، وأخذت الثلاثين جنيهًا، وهكذا لم ترَ زوجتي العجوز الرضيعة أبدًا وكيف بدَت، كما كنت آمل ألا تأتي والدتها المسكينة إلى منزلنا. ولم تأتِ أبدًا؛ لذا ربما كل هؤلاء الأمهات المسكينات مُتشابهات، ولا يهمُّهن رؤية أطفالهن بعدما هجرنهم؛ ومن ثَم لا يسألن عنهم مرةً أخرى. وبهذا، لم ترَ زوجتي العجوز «ليتل فوربيني رقم اثنين» أبدًا.»

قالت السيدة فليمبس: «لم أرَ «ليتل فوربيني رقم اثنين» أبدًا!»

الآن يمكنني على الفور أن أقول إن هذه الحكاية التي سردها رجلٌ عادي بالإنجليزية الدارجة، وهو يدخن غليونه الفخاري العادي في حدائق الشاي العادية في ضواحي لندن، استدعت كل الفطنة والذكاء اللذين وهبتهما الطبيعة لي. لقد استيقظت المحققة بداخلي تمامًا بينما تكشَّفت لي ببطءٍ هذه القصة الاستثنائية، والتي حُكيت دون أي نية للتأثير في المستمع، وتخلَّلتها توقفاتٌ عديدة وتلويحاتٌ كثيرة بالغليون وتكرار لم أحبِّذ ذكره للقارئ. لقد كانت قصة تلك المرأة، التي حصلت على الطفلة، لافتة للنظر من البداية إلى النهاية.

لقد كانت سلسلة الحقائق كما سُردت — باعتبار أن كلام السائق صادق، وبما أنه لم يكن يبغي أي غرض من خداعي فقد كنت أميل إلى افتراض أنه كان يقول الحقيقة — رائعةً منذ بداية الأحداث وحتى النهاية.

استُهلت القائمة الاستثنائية للحقائق غير العادية بامرأة، من الواضح أنها تنتمي إلى طبقةٍ جيدة، موجودة في الشارع في وقتٍ متأخر من الليل، وتُنادي على عربة أجرة؛ ثم تبع ذلك سؤالها عن امرأةٍ تحمل طفلةً حديثة الولادة جدًّا. يلي ذلك اكتشاف وجود الطفلة في عربة الأجرة، وصراخها بأن الرب كان رحيمًا بها؛ وفي النهاية لا بد من النظر في حقيقة أنها كانت تحمل معها ثلاثين جنيهًا من الذهب، والتي قدَّمتها على الفور إلى سائق عربة الأجرة مُقابل الطفلة.

نظرًا لاعتيادي على تقييم الحقائق، وتتبُّع المعاني الواضحة — وهو ما يُشبِه النهج الذي يتبعه المُحامون، وهي عادةٌ شائعة لدى جميع المحققين — فقد كوَّنت حجةً مقبولة ضد هذه السيدة، قبل أن أبدأ باستجواب السيد فليمبس بأريحية وبطريقةٍ شِبه فضولية حول القصة التي أفصح عنها لي.

بما أنها كانت تعلم أن المرأة قد مرَّت من ذلك الطريق بدا واضحًا لي أنها قد رأتها، وأنها خمَّنت أنها مُتسولة، وهذا في وقتٍ سابق من المساء قبل أن تتحدث مع سائق عربة الأجرة. وبما أنه بعدما رفض السائق أن يُقلَّها أبدت فرحًا كبيرًا عند سماعها بكاء الطفلة الرضيعة، فاستنتاجي هو أن إحباطها من رفض السائق كان مرتبطًا بطريقة أو بأخرى بالطفلة نفسها.

وبالاستمرار في اتباع هذا المنطق — فقد كانت هذه العادة حاضرة بشدةٍ داخلي، حتى إنني كنت قد أنهيت عملية التحليل بالفعل قبل أن ينتهي السائق من كلامه — وبعد أن قيَّمت على النحو الواجب حقيقةَ أنها كانت تحمل معها ثلاثين جنيهًا ذهبيًّا، وأنها رشَت السائق بها، توصَّلت إلى استنتاج أنها كانت لسببٍ مجهول في حاجةٍ مُلحَّة للحصول على الطفلة. كنت متيقنةً من أنها قد رأت والدة الطفلة في وقتٍ سابق من المساء، وأنها كانت قد شرعت في اللحاق بها كي تشتري الطفلة منها، إن أمكن، وأنها عند رؤيتها لعربة الأجرة — التي لم يكن من الممكن أن يكون سائقها على معرفة بهذه المرأة — نادت على السائق على أمل اللحاق بالمرأة والطفلة بسرعةٍ أكبر.

الأسئلة التي كنت أتمنى، بصفتي محققة، أن أجد لها إجابة هي:

من كانت هذه المرأة؟

لماذا تصرَّفت على هذا النحو؟

أين كانت؟

أدركت على الفور أنني لن أجد صعوبةً كبيرة في التحقق من مكانها، شريطة أن تكون ما زالت تعيش في تلك المنطقة، وشريطة أن يعطيني السائق خيطًا ما يمكنني من خلاله التعرف على هويتها.

يمكنني أن أخبركم على الفور أنني شعرت بوجود جريمة في هذا الأمر كله؛ فالأطفال لا يُشترَون في الظلام في خوف ورِعدة، إن كان كل شيء يمضي بوضوح وصدق.

لذا، متظاهرةً بكَوني مهتمةً حقًّا بالقصة، وهو ما كان حقيقيًّا، بدأت بطرح الأسئلة.

«هل علمت أي شيء أكثر عن هذا الأمر؟»

رد السائق: «لا شيء.»

وبالطبع، ردَّت زوجته وكرَّرت ما قاله.

«ألم ترَ المرأة مرةً أخرى؟»

«لا، أبدًا.»

وهو ما كرَّرته السيدة فليمبس مرةً أخرى؛ لذا من الآن فصاعدًا لن أذكر تكرارها للردود مرةً ثانية.

«منذ متى حدث هذا؟ إنك تُثير اهتمامي كثيرًا!»

«في شهر يوليو المبارك من هذا العام سيكون قد مرَّ خمس سنوات.»

«إذن فقد كان في يوليو من عام ١٨٥٨.» وهو ما علمته من تاريخ وفاة «ليتل فوربيني».

«أجل.»

(لا بد أن أوضح هنا للقارئ أنه على الرغم من أنني اخترت هذه القضية الفريدة، «مؤجِّر مدى الحياة»، لتكون السرد الأول في كتابي، فإنها واحدة من قضاياايَّ اللاحقة الأروع.)

فقلت له: «هل أنت متأكد تمامًا من علامة الطريق؟»

«أجل، تمامًا.»

«أيَّ نوع من النساء كانت؟»

أردف السائق قائلًا: «لا يمكنني القول أو الجزم بأكثر من أنها كانت ذات مظهر جامح، وكانت ذات عيون سوداء كبيرة، وأنها كانت سيدةً راقية بكل ما تحمله الكلمة من معنًى.»

«لا تؤاخذني على فضولي الشديد، ولكن هل لاحظت أي شيء مميز في طريقة كلامها؟»

«شيء مميز؟ بحسب علمي، لا.»

«لم تُلاحظ أي علامة أو أي شيء غير عادي في طريقة كلامها؟»

«لا، لا شيء. ها! كأنني أسمعها الآن وهي تقول «سلاسين جنيهًا»، وهو ما استطعت فهمه بالكاد في البداية؛ «فلافين جنيهًا لقاء تلك الطفلة، فلافين جنيهًا». ولكن لماذا جفلتِ يا عزيزتي؟»

هنا أضافت زوجته قائلةً: «حسنًا من الطبيعي أن تجفل هذه المسكينة بعد ما حكيته عن طريقة بيع تلك الشابة لابنتها «ليتل فوربيني».»

حقيقة الأمر هنا أنني كنت قد جفَلتُ لأنني ظننت أنني وضعت يدي على خيطٍ جيد. نحن المحققين لدينا ما يُشبِه الدليل المرجعي لعلم مهنتنا، ونحن نحفظ كل سطر فيه عن ظهر قلب. أحد الفصول الرئيسة الأهم في ذلك الدليل غير المكتوب، هو الفصل المخصَّص للتعرف على الهوية. سيتفاجأ غير المختصين بمعرفة كم نمتلك من الطرق للتعرف على الهوية من خلال علامات وأساليب معينة وبعض الخصائص الشخصية المميزة، ولكن في المقام الأول من خلال طرق الكلام التي لا تُحصى، وشكل الكلام، ومواضيع الحديث، وفي المقام الأول الإعاقات الكلامية أو العلامات المميزة لطريقة الكلام. على سبيل المثال، إذا قيل لنا إن الشخص الذي نُلاحقه دائمًا ما ينطق حروفًا معينةً في غير موضعها، نميل إلى أن نتغاضى عن مُشتبَه به مُطابق للوصف من جميع النواحي الأخرى، إلا في هذه الحالة التي ينطق فيها حروفًا في غير موضعها. نعلم أنه مهما كانت براعة ومكر الرجل الذي نُلاحقه، فلن يتمكن من منع ظهور هذا العيب الكلامي، حتى وإن كان حريصًا، وهو ما لا يحدث أبدًا. قد ينجح في تغيير ملابسه أو صوته أو شكله أو مظهره، ولكنه لن ينجح أبدًا في تغيير طريقة كلامه ونطقه للحروف.

والآن، من بين قائمة العيوب الكلامية، ثَمة عيبٌ يتعذر فيه نطق حرف «الثاء» الصعب النطق، ويستبدل بنطق هذا الحرف الصعب حرف «فاء» أو «دال»، أو أحيانًا بأيٍّ منهما، بحسب بنية الكلمة.

ولقد أمَّلتُ أنني قد اكتشفت هذا العيب الذي يمكن تمييزه في هذه المرأة التي ابتاعت الطفلة.

«هل تقصد يا سيد فليمبس أن تقول إن المرأة قالت «فلافين» بدلًا من «ثلاثين»؟ يا له من أمرٍ غريب!»

فقال: «لقد قالت «فلافين»، وقد كان هذا هو سبب عدم فهمي لما تقول في البداية. لقد قالت فلافين، ولكنني لم أفهم ما تقصده إلا عندما سمعت صوت النقود الذهبية.»

«وهل رأيتها أو سمعت عنها أي شيء بعد ذلك؟»

«كان هذا من المستبعد أن يحدث ذلك، لو كنتِ رأيتِ كيف غادرت مسرعةً.»

«أيَّ طريق سلكَت؟»

«عجبًا، بالطبع عندما قابلتها يا عزيزتي كانت آتية من مكانٍ ما كي تتبع الشابة التي كانت تحمل الطفلة، وعادت في اتجاه لندن، وقد مررت بها حتى صارت خلفي، ولم تنظر نحوي أبدًا.»

لم أسأل أي أسئلة أخرى.

أعتقد أنني التزمت الصمت، وخاصةً عندما استقللنا عربة الأجرة وكنا في طريقنا إلى المنزل مرةً أخرى.

في الواقع، قالت السيدة فليمبس إنها لم يكن لديها أدنى شك في أن زوجها قد أزعجني بقصتهما عن «ليتل فوربيني».

ومع ذلك، عندما وصلنا إلى علامة الطريق كانت السيدة فليمبس تتحدث عن هذا الموضوع أكثر من أي وقت مضى، ولست بحاجة للقول بأنني، على الرغم من أنني ربما أكون قد تحدَّثت قليلًا، كنت غارقة في التفكير في محاولة للربط بين الأمور.

بعدما عبرنا علامة الطريق كان كل منزل على جانبَي الطريق يجذبني بطريقةٍ غريبة. كانت عيناي تتعلقان بكل منزل نمرُّ به، مُتخيلةً أن كل منزل من هؤلاء قد يكون هو الذي يأوي الرضيعة.

وقد عزمت أن أعمل على هذا الأمر.

حتى ذلك الحين، كان لديَّ الحقائق الآتية:

(١) لا بد أن المرأة كانت تعيش بالقرب من الطريق، وإلا ما كانت سترى المتسوِّلة وطفلتها، بافتراض أن المتسولة وطفلتها كانتا على الطريق السريع عندما رأتهما المرأة.

(٢) لا يمكن أن يكون الوقت الذي مر بين رؤية المرأة ولقاء سائق عربة الأجرة طويلًا جدًّا، وإلا ما كانت ستأمل أبدًا في العثور على الأم والطفلة.

(٣) جرى الأمر قبل خمس سنوات فقط؛ ومن ثَم من المحتمل ألا تكون المرأة قد انتقلت من الحي.

(٤) تُشير طريقة شراء الطفلة إلى أنها ستُستخدم بغرض الخداع؛ في أغلب الظن لتحلَّ محل أخرى.

(٥) ومن ثَم فقد تأذَّى أحدهم نتيجة لممارسة هذا الخداع؛ في أغلب الظن وريثٌ ما.

(٦) لم تكن المرأة من المحتاجين، وإلا ما استطاعت تقديم ثلاثين جنيهًا من الذهب إلى شخصٍ غريب، وكما هو واضح في وقتٍ قصير جدًّا؛ لأنه كان واضحًا أنه لا يمكن أن تكون قد جرت أي مطالبة بالطفلة عندما رأت أنها كانت مع الأم.

(٧) أيًّا كانت هُويَّتها فقد كان العيب الكلامي العادي الذي يتمثل في عدم القدرة على نطق حرف «الثاء» استثنائيًّا للغاية في حالتها.

(٨) أهم ما في الأمر أنه كان لديَّ تواريخ.

لم يكن فليمبس المسكين وزوجته يعلمان أنهما كانا يمدان محققةً في دهاء الثعبان بالمعلومات في عربتهما الأجرة. أظن أنهما كانا يعتقدان أنني امرأة تعيش على ما تدرُّه لها ممتلكاتها الصغيرة، وأنني أزيد من دخلي بصنع القبعات النسائية بين وقت وآخر.

بالمعلومات التي كنت قد حصلت عليها بالفعل قرَّرت أن أحاول الوصول إلى حقيقة هذا الأمر حتى جذوره، ويمكنني أن أذكر أيضًا أنه بما أنني لم أكن أعمل على أي قضية أخرى في ذلك الوقت، فقد شرعت في العمل صباح يوم الاثنين، وأخبرت السيدة فليمبس أن لديَّ شأنًا ما يجب أن أهتمَّ به، فتمنَّت لي تلك المرأة المخدوعة التوفيق من أعماق قلبها.

سكَنتُ في أول مكان تمكَّنت من العثور عليه بالقرب من علامة الطريق تلك. كانت غرفةً ريفيةً صغيرة ولطيفة، وكانت زهور العسل تحيط بكل نافذة فيها.

يمكنني القول إن الجزء الأول من عملي كان سهلًا للغاية.

في غضون يومين من وصولي إلى مسكني الصغير في كوخ زهور العسل، كنت قد اكتشفت ما يكفي ليسوِّغ مواصلتي البحث.

كما قلت، لم يكن لديَّ أي سبب للشك في سائق عربة الأجرة؛ لأنه لم يكن من الممكن أن يكون لديه أي غرض من خداعي، ولكن الدليل هو أساس عمل المحققين.

كان أول شيء فعلته هو العثور على أي آثار للأم، إن أمكن.

من المهم تذكُّر أن الأم أبدت حزنًا كبيرًا على فقدان الطفلة، وأنها مع ذلك لم تطرق باب السائق أبدًا. كان الاستنتاج الذي توصَّلت إليه هو أنه بما أنها أظهرت حبًّا للطفلة، وبما أنها لم تسعَ أبدًا لرؤيتها بعد تخلِّيها عنها، فلا بد أن ما حال دون ذلك هو إحدى مُصيبتين؛ إما أنها قد جُنَّت، أو أنها قد ماتت.

ولكن أين كان يمكنني أن أُجري التحريات؟

بالطبع من أول مسئول إغاثة يعيش بعد علامة الطريق، في المكان الذي كانت فيه الأم قد افترقت عن طفلتها، وفي الاتجاه المُعاكس للاتجاه الذي كانت قد سلكته عربة الأجرة؛ لأنني أعرف الكثير عن هؤلاء الأمهات الفقيرات؛ إذ دائمًا ما يهربن بعيدًا عن أطفالهن عندما يفترقن عنهم، سواء كان هذا الافتراق عن طريق القتل، أو الهجر، أو بمصادفة فاعل خير (مثل سائق عربة الأجرة)، يكون مستعدًّا — كَوْنه ليس لديه أطفال — لتحمُّل مسئولية طفل يشكِّل عبئًا على أمه التي أنجبته.

تجاوزت علامة الطريق، واستفسرت، ثم وجدت منزل مسئول الإغاثة في الوقت المناسب. أُجيبَ عن أسئلتي بسرعةٍ كبيرة. أعتقد أن الرجل افترض أنني قريبة لها، وأنني قد أجعله ينال بعض الفضل، من خلال نشاطه، بتعويض الأبرشية عن التكاليف البائسة التي دفعتها في دفن المرأة الفقيرة.

إذ كانت قد ماتت.

كانت الظروف تشير بما لا يدع مجالًا للشك إلى أنها هي المرأة التي انفصلت عن طفلتها، بحيث لم يكن لديَّ أي شك معقول في استنتاجي.

في ليلة الخامس عشر من شهر يوليو منذ خمسة أعوام، أُحضِرَت امرأة في عربة نقل إلى باب المسئول. قال الرجل الذي كان يقود تلك العربة إنه وجد المرأة مُلقاة على قارعة الطريق، وإنه لو لم يكن حِصانه قد لاحظ أنها كانت مُلقاة هناك قبل أن يلاحظ هو، فلا بد أنها كانت ستُدهَس.

نُقلت المرأة إلى المستوصف المخصص للفقراء، ولم تُغادره إلا إلى القبر.

لم تسترد وعيها أبدًا وهي في المَشفى المخصص للفقراء. وعندما استردت وعيها جزئيًّا وجدوا أنها تُعاني من حمًّى، وبما أنها كانت قد صارت أمًّا حديثًا جدًّا (لم يكن قد مضى عليها أكثر من أسبوعين)، فقد جعل فقدانها لطفلتها محاولة التغلب على هذه الحمى فاشلة تمامًا.

ماتت في اليوم العاشر من ظهور الحمى، وكانت قد توقَّفت عن الكلام قبل ثلاثة أيام من وفاتها.

(ربما يجدر بي الإشارة هنا إلى أنني أوجز في هذه الصفحة أقوال مسئول الإغاثة وامرأة معدمة كانت تعمل ممرِّضة في المستشفى الخيري.)

كنت أفهم جيدًا أن هذا الانعدام في القدرة على الكلام كان بسبب الأفيون، الذي كانت التجربة قد علَّمتني أنه يُعطى في جميع الحالات التي لا يكون لُمصاب الحمى فيها أي فرصة للنجاة، وبغرض تهدئة الهلوسات التي من شأنها أن تجعل الموت أكثر بشاعة.

ولكن ما قيل لي إنها قد قالته في الأسبوع الذي يسبق ذلك، كان كافيًا لإقناعي أنها والدة الطفلة؛ إذ ورد أنها كانت تُنادي على طفلتها وهي تضغط على صدرها الهزيل، وأنها كثيرًا ما كانت تصرخ قائلةً إنها تسمع صوت عربة الأجرة بعيدًا جدًّا.

عُدتُ إلى مسكني الصغير غيرَ مسرورة؛ فإذا كان ثَمة شيءٌ واحد يُصيبنا بالفشل نحن المحققين بكل تأكيد أكثر من أي شيء آخر، فهو الموت؛ ففي هذه الحالة لا يكون بيدنا ما نفعله. لا تعني المسافة لنا لا شيئًا، ولكن لا يمكننا الوصول إلى الجانب الآخر من القبر. لا نهتم كثيرًا بالوقت، حيث نرى أن الذاكرة تُجْدي نفعًا بصورة أو بأخرى أثناء الحياة. أما السرية فهي تُثير سخريتنا بكل أشكالها، فيما عدا سرية القبور.

إن الموت هو ما يُصيبنا بالفشل، وكثيرًا ما يُوقِف قضيةً ما عندما تكون على وشك أن تكتمل، حتى إنها تُقنِع عديمي الخبرة بافتراض اكتمالها.

لقد رأيت على الفور أنني قد فقدت شاهدتي الرئيسة في القضية؛ وهي الأم.

حينئذٍ تبادَر إلى ذهني السؤال؛ هل ما زالت الطفلة نفسها على قيد الحياة؟

إن كانت ميتةً فستكون هذه نهاية تحقيقاتي.

ومع ذلك، فالمحققون لا يتخلَّون عن القضايا أبدًا، بل القضايا هي التي تتخلى عنَّا.

أصبح من الضروري الآن التحقق من الأطفال الذين وُلدوا في شهر يوليو عام ١٨٥٨ في المنطقة التي تقع فيها علامة الطريق؛ لأنني قد بيَّنت بالفعل أن مُشترية الطفلة لا بد أن تكون قد جاءت من مكانٍ ما في الحي لشرائها. وكذا، قد ألمحت إلى أن الطفلة التي تُشترى في مثل هذه الظروف، والتي تتطابق مع ظروف بيع الطفلة موضع البحث، تقتضي استخدام الرضيعة سرًّا؛ ومن ثَم «بطريقةٍ شرعية ظاهريًّا»، كما يقول المُحامون، وهو أمرٌ غير قانوني على الأرجح، بصورةٍ تُوقِع ضررًا على شخصٍ يستفيد من وفاة الطفلة.

لقد كانت مهمة التحقق من الأطفال الذين وُلدوا في المنطقة خلال شهر يوليو، على نفس القدر من سهولة مهمة إقناع نفسي بأن المرأة التي اشترت الطفلة المعنية من سائق عربة الأجرة قد سجَّلتها باعتبارها مولودةً جديدة.

في أغلب الظن أن القارئ قد بنى قضيةً افتراضية كما فعلت أنا، وهي على النحو الآتي:

رأت المرأة المُشترية الأم والطفلة قبل ساعة أو أكثر من لقائها بالسائق، وتجاذبت معها أطراف الحديث.

تأكَّد هذا الافتراض من المعلومة التي حصلت عليها، وهي أن هذه المرأة، التي عُثر عليها على قارعة الطريق، كان معها نصفا كراون في جيب ثوبها. لا بد من تذكُّر أنها قد رفضت المال الذي عرضه عليها فليمبس.

يُفترَض أنه، في الوقت الذي يفصل بين رؤية المرأة والمساومة مع سائق عربة الأجرة، ظهرت حاجةٌ مُلحَّة إلى شراء طفلة حديثة الولادة، وعندئذٍ تذكَّرت المرأة رؤيتها للمتسولة والطفلة، وأمَّلت أن يشكِّل فقر هذه المخلوقة البائسة فرصةً لها؛ لذا شرعت في العثور عليها. وعندئذٍ أدَّت سلسلة من الأحداث — التي قد يسمِّيها القارئ العادي أحداثًا خيالية، ولكن، بصفتي محققة، يمكنني القول إنها أحداثٌ حقيقية وتحدُث يوميًّا في صور وأشكال عديدة — إلى حصولها على الرضيع.

بحثتُ في سِجلَّين، وأجريت من التحقيقات ما ارتأيته مُفيدًا. لحسن الحظ في كلتا الحالتين، لم يكن عليَّ التعامل مع أمين السجل، بل مع نائبه، الذي يكون، في العادة، ليِّن العريكة وأسهل في التعامل معه. نحن المحققين لدينا الكثير من العمل الذي يقتضي التعامل مع أمناء السجل بدرجاتهم الوظيفية الثلاث.

كنت أعلم أنه على الأرجح كان يتعيَّن عليَّ التعامل مع ما نسمِّيه في مهنتي بـ «أفراد العائلة». وفي هذا الحالة لم يكن يتعين عليَّ التعامل مع زوجة أو أخت عامل أو حِرفي، كان سائق العربة قد قال إنها كانت سيدةً «راقية» (نظرًا لخبراته اليومية يتمتع سائقنا محل الذِّكر بنظرةٍ جيدة تمكِّنه من تخمين الوضع الاجتماعي لراكبيه جيدًا)، ولقد عرفت في الحال من امتلاكها لثلاثين جنيهًا أنها كانت ميسورة الحال.

يعلم قُرائي أن مهنة أو حرفة الأب تُذكَر دائمًا في سجل الولادة، وقد كانت لديَّ فكرة عن ماهية الأب أو الأب المزعوم فيما يخصُّ هذه المسألة.

كان الاحتمال قائمًا أن يُذكَر في السجل أنه «رجلٌ نبيل».

بعد فحص كلا السجلين وجدت ثلاثة مواليد مسجَّلين في ذلك الشهر، وكان الوصف المذكور لآباء هؤلاء المواليد هو «رجلٌ نبيل».

سجَّلت العناوين الثلاثة، ولست بحاجة إلى أن أقول إنني قدَّمت عذرًا معقولًا جدًّا لفعل ذلك، وهو ما عضدته بالطبع بتقديم عدة عملات فضية تحمل نقوشًا لصورة جلالة الملكة.

وهنا أودُّ أن أحثَّ القارئ على أنه لا يحتاج للشعور ولو بقليل من الاحترام لعملي حتى الآن؛ فقد كانت هذه العملية حتى هذه اللحظة هي أبسط وأسهل ما يمكن أن يُكلَّف به أي محقق. لقد اختُرعت السجلات لنا نحن المحققين؛ فهي الدواء الذي نستخدمه في سعينا لعلاج الفوضى الاجتماعية.

في الواقع، يمكن القول إن قيمة المحقق لا تكمن في اكتشاف الحقائق، بقدر ما تكمن في ربط الخيوط معًا واكتشاف ما تعنيه.

قبل انقضاء اليوم، استبعدت مستخرجَين، اعتبرت أنهما بلا قيمة، من المستخرجات التي حصلت عليها من السجلات. أما المستخرج الثالث فقد احتفظت به ليقيني الشديد أنه مرتبط بالمسألة، وهذا يرجع لحقيقتين تعرَّفت عليهما قبل نهاية اليوم. تكمن الحقيقة الأولى في اكتشاف أن المنزل الذي زُعم حدوث الولادة موضع البحث فيه كان على بعد تسعمائة ياردة من علامة الطريق التي كانت قد بدأت فيها هذه المسألة برمَّتها، والثانية في أن والدة الطفلة كانت ماتت أثناء ولادتها.

شعرت بيقينٍ شديد بأنني كنت على الطريق الصحيح أخيرًا، ولكن قبل أن أستشير المُحامي الخاص بي (معظم المحققين بغضِّ النظر عن مكانتهم يكون لهم بالضرورة مُحامون، وهم بالطبع مُفيدون للغاية للرجال والنساء في مهنتي)، قرَّرت أن أتأكَّد تمامًا من أنني لم أكن أضيع وقتي، وكذا كي أتيقَّن تمامًا من أنني لم أكن على وشك إضاعة أموالي؛ لأنه غالبًا ما يتوجب على المحققين، مثل أي مهنة أخرى، أن يُنفقوا المال كي يتمكنوا من الحصول على المزيد.

عندما علمت أن الأسرة تتكون من الرضيعة — وهي وريثة كانت حينئذٍ تبلغ من العمر خمس سنوات — والأب، وأخته، ركَّزت شكوكي على الفور على الأخيرة، باعتبارها هي المرأة التي اشترت الطفلة.

إذا كانت هي هذه المرأة فقد كنت أعلم أن لديَّ القدرة على إدانتها، في عقلي، من خلال سماعها وهي تتحدث؛ فكما نتذكر، قلتُ إن العيوب الكلامية هي واحدة من أكثر وسائل الكشف المؤكِّدة المُتاح استخدامها للمحققين الرفيعي المستوى.

تمكَّنت بالطبع من دخول المنزل بسهولة، وهذه هي الميزة الخاصة التي تتفرد بها المحققات، والتي تمنحهن في العديد من الحالات قيمةً لا تُقدَّر بثمن تفُوق تلك التي يتمتع بها أقرانهن من الذكور، ألا وهي أن بإمكانهن دخول المنازل التي بالكاد يستطيع المحققون الرجال الوقوف أمامها دون إثارة الشكوك.

أتذكَّر تمامًا حجتي الأولى — ونحن المحققين لدينا الكثير منها — مثل التظاهر بأنني خادمة، أو السؤال عن صديقٍ مشتركٍ مفترض، أو البحث عن عمل في الخياطة والتطريز، أو بتوصية من أحد الفقراء في الحي، أو بطرح استفسار مقبول يخص الحي الذي يدَّعي المحقق أنه غريب عنه. قدَّمت نفسي بصفتي صانعة قبعات نسائية وخياطة جاءت لتوِّها إلى الحي، وبمساعدة بطاقة تعريف فعلية أحملها دائمًا معي، وهي على نفس القدر من فاعلية المفتاح السحري الذي يفتح كل الأبواب الكبيرة، سرعان ما كنت في حضرة السيدة.

تعرَّفت عليها قبل أن تتحدث من عينيها السوداوين الكبيرتين اللتين لاحظهما سائق عربة الأجرة، حتى في عتمة الليل.

لم تلفظ ست كلمات قبل أن يخونها لسانها؛ إذ نطقت حرف «الفاء» في موضع كان ينبغي فيه نطق حرف «الثاء».

يمكن تمييز هذا النطق السيئ بشدة عندما يكون مكتوبًا، ولكنه قد يستخدم لوقتٍ طويل في الحديث دون أن يُلاحظ. قد يشعر المستمع بوجود خَطْب ما في اللغة التي يسمعها، ولكن سيتعيَّن عليه التركيز بشدة ليكتشف موضع الخطأ، هذا إن لم يكن قد تلقَّى تحذيرًا مسبقًا.

وقد كنت قد تلقَّيت تحذيرًا مسبقًا.

ذهبتُ، وأذكر أنه بينما كنت أغادر الغرفة دُعيتُ للعودة وللقيام بزيارةٍ أخرى.

وقد فعلت.

إلى هذا الحد كان كل شيء واضحًا.

كنت قد وجدت المنزل، ومُشترية الطفلة، والطفلة نفسها، فقد كانت أنثى؛ أو كنت متأكدةً من أنني فعلت.

ما كان يتعين عليَّ اكتشافه حينئذٍ هو السبب وراء الاستيلاء على الطفلة، ومن الذي قد يكون قد عانى جرَّاء ذلك.

حان حينئذٍ وقت التشاور مع المُحامي الخاص بي. من هو وما اسمه، هي أمور ليست ذات أهمية للقارئ. أولئك الذين يعرفونه سوف يميِّزون رجل القانون هذا بوصفٍ واحد فقط؛ وهو أن لديه أصغر وأنعم وأنصع يد في مهنته.

وضعت، بطريقةٍ عملية تتَّسم بالسرية، القضية كاملةً بين يدَيه؛ بما فيها من أسماء وتواريخ وأماكن وشكوك واستنتاجات، وكلها مرتبةٌ ترتيبًا مقبولًا.

قال المُحامي: «أعتقد أن القضية واضحة لي، ولكنني لن أُبدي رأيًا اليوم. اتصلي بعد أسبوع.»

«أوه! يا إلهي، لا! لا يمكنني الانتظار أسبوعًا يا عزيزي «م...» سأتصل بك بعد ثلاثة أيام.»

اتصلت به في اليوم الثالث، في وقتٍ مبكر من الصباح.

أبدى المحامي تبرُّمه وقال إنه مشغول جدًّا، ولا يمكنه الانتظار لحظةً واحدة، ثم تحدَّث معي لمدة عشرين دقيقة. لا بد أن أقول بالأحرى إنه أسهب في الحديث؛ لأنني بالكاد استطعت إقحام نفسي في الحديث، ولكن ما يقوله يستحق عمومًا الإنصات إليه.

كان يرغب في المزيد من المعلومات؛ إذ أراد أن يعرف اسم المرأة قبل الزواج ومكان زواجها من السيد شيدلي، الذي سأفترض أنه اسم العائلة المعنية في هذه القضية.

كان عليَّ أن أخبره بهذه التفاصيل الإضافية، وأن أعود لزيارته مرةً أخرى بعد ثلاثة أيام أخرى.

للوهلة الأولى، كان الأمر صعبًا بعض الشيء، ولكن ما كان استثنائيًّا بما يكفي هو أنني وجدت أن الطريق للحصول على هذه المعلومات كان بسيطًا للغاية؛ إذ كخطوةٍ أولية، بعدما تأكَّدت من الرجل الذي يسكن على الطريق الرئيس في ذلك الحي من المكان الذي دُفنت فيه السيدة شيدلي، زُرتُ قبرها، على أمل أن اسم عائلتها ومكان إقامتهم قد يكون محفورًا على الحجر، وهو الحال عادةً بين زوجات طبقة النبلاء.

ولكن في حالة هذه السيدة لم يكن يوجد أي ذكر لاسم عائلتها ولا لمكان إقامتهم، ولكن على الرغم من ذلك لم أغادر المقبرة دون الحصول على المعلومات الكافية التي احتاجها المحامي الخاص بي.

كانت السيدة قد دُفنت في مقبرةٍ خاصة في بداية سراديب الموتى، وكان يمكن رؤية التابوت عبر الحواجز الشبكية لبوابةٍ كان مثبَّتًا عليها شعار نبالة من النحاس المنقوش.

بالطبع كَوْني محققةً لا بد لها أن تكون على علم بالعديد من النقاط؛ كنت أعرف أن الشعار لا بد أنه يشير إلى المتوفَّى؛ لذا فُوجئ حارس المقبرة كثيرًا عندما تحدَّثت معه مرةً أخرى في وقتٍ لاحق من اليوم، وأخبرته أنني أريد شفَّ مسحة من اللوح النحاسي المعني.

كان طلبي غير معتاد؛ لذا كان عليَّ التعامل مع الصعوبات المعتادة المتمثلة في الشك والتحامل، ولكن المُثير للدهشة هو مقدار الشك والتحامل الذي يمكن لخمسة شلنات شراؤه، ولاختصار هذا الجزء من حكايتي سأقول إنني نجحت في النهاية في أن آخذ معي نسخةً طِبق الأصل من شعار النبالة الخاص بالسيدة الراحلة. لا حاجة لقول كيف فعلت ذلك؛ إذ يعرف أي شخص كيفية أخذ صورة طبق الأصل من أي سطح محفور بوضع ورقة عليه وفَرْك قطعة من الفحم أو الطباشير الأسود على الورقة. يمكن محاولة هذه التجربة على أي غلاف منقوش، باستخدام ورقة عادية وقطعة من قلم رصاص.

أخذت هذه النسخة إلى المحامي وانتظرت ثلاثة أيام.

كان لديه ما يكفي من المعلومات ليخبرني إيَّاها بنهاية اليوم الثاني.

اكتشف، بأبسط الطُّرق وأكثرها طبيعيةً في العالم، سببًا للاستيلاء على الطفلة، ولم يقتصر الأمر على حصوله على تلك المعلومات، بل إن المعلومات المُتعلقة باسم الرجل المُتضرر من الفعل، ومصلحته في هذا الأمر برمَّته، كانت بحوزة المحامي.

لم يُثنِ أيٌّ منَّا على الآخر من أجل اكتشافاته؛ إذ كان كلٌّ منَّا يدرك أن الآخر لم يفعل شيئًا سوى تطبيق المبادئ والقواعد العادية لعمله.

كنت قد حصلت على المعلومات بالرجوع إلى السجلات، أما هو فقد حصل عليها، أولًا، من خلال مراجعة كتاب عن طبقة النبلاء مُلَّاك الأراضي وشعاراتهم، وثانيًا من خلال دفع بعض المال وفحص وصية محفوظة لدى السلطات في نقابة المحامين المدنيين.

كان المحامي قد وجد شعار النبالة كما نسخته من بوابة المقبرة في كتاب عن طبقة النبلاء مُلَّاك الأراضي، وعلِم أن إحدى الضِّياع قد انتقلت ملكيتها من حوزة السير جون شيرلي في عام ١٨٥٦ بوفاته إلى ملكية ابنته، الوريثة، وزوجة المحترم نيوتن شيدلي. كذلك بيَّن السجل أن السيدة شيرلي شيدلي قد تُوفيت في عام ١٨٥٧، وأنه طبقًا لاتفاق زواجها تئول الممتلكات إلى أطفالها. كانت شيرلي شيدلي، وهي ابنة لهذه السيدة، سُمِّيت على اسمها، هي من آلت إليها ملكية تلك الضِّياع الضخمة، بينما كان الأب نيوتن شيدلي، بصفته الوصيَّ الوحيد الباقي على قيد الحياة، هو من يسيطر عليها.

هكذا كان الوضع.

«يمكنني رؤية كل شيء بوضوح.» هكذا قال المحامي، الذي يتعين عليَّ أن أقول إنه قد تجاهَل المجهود الذي بذلته في هذه المسألة وكأنه لم يكن. «يمكنني رؤية كل شيء بوضوح. يتزوج المدَّعى عليه نيوتن شيدلي من وريثةٍ تظلُّ محتفظةً، بموجب اتفاق زواجها، على ملكية ضيعتها من خلال أوصياء. وكما هو الوضع في الحالات العادية تئول هذه الضِّياع بعد مماتها إلى أولادها، إن وُجدوا، ولكن هنا يأتي دور السؤال الدقيق؛ إذا كان لديها أطفال وتُوفُّوا جميعًا قبلها، بافتراض أنها تُوفيت قبل زوجها، يصبح الزوج، بموجب حق ولادة أطفالهما، مؤجِّرًا مدى الحياة لمتلكاتها، ولكن حسب اتفاق الزواج، في حالة وفاة الزوجة دن إنجاب أطفال يرثون ممتلكاتها، تنتقل الممتلكات إلى شقيق والدها.»

قلت مستفهمةً: «حسنًا؟»

«إن الدافع وراء الإتيان بوريثٍ زائفٍ واضحٌ. لقد ماتت السيدة وهي في مدة النفاس، كما تُثبت تواريخ وفاتها وولادة مولودتها المفترضة — لقد وُلدت طفلتها ميتةً على الأرجح؛ وعليه فقد ماتت الأم دون أن تُعطي للأب حقًّا عادلًا في التأجير مدى الحياة — وبموجب شروط اتفاق الزواج يتعين أن تنتقل الملكية على الفور عند وفاة الزوجة إلى عمها، شقيق والدها. لتجنُّب ذلك أُخذت ابنة المرأة المتسوِّلة لتحلَّ محلَّ الرضيعة المتوفَّاة. إنها من أوضح القضايا التي جمعت خيوطها معًا.»

توقَّفت هنا قائلةً: «ولكن ...»

قال مُتسائلًا: «ماذا؟»

«تشير حجتك إلى وجود مُتواطئين.»

«أجل.»

«أربعة: الأب وأخته والطبيب والممرضة.»

قال المحامي: «أربعة على الأقل.»

«هل تعرف من هو المالك الحقيقي للضِّياع؟ أو هل سمعت عنه من قبل؟»

سيلاحظ القارئ أنني والمحامي كنا قد أصدرنا حكمًا في القضية بالفعل.

«لا أعرفه. لقد استعلمت عنه مرتين أو ثلاثة. إنه السير ناثانيال شيرلي. بناءً على ما سمعته لا يتمتع بسمعةٍ جيدة، ومع ذلك من المستحيل تمامًا — كما سمعت — توجيه أي اتهام إليه.»

أجبتُ: «سيكلِّف هذا مالًا.»

فردَّد المحامي قائلًا: «سيكلِّف هذا مالًا.»

لقد لاحظت دائمًا أنه عندما يكون لدى المحامي أي شيء غير لطيف ليقوله، فإنه عادةً ما يردِّد ما تقوله أنت.

«هل هو غني؟»

«من؟» هكذا سأل المحامي بهذا الأسلوب المُولَع بالدقة الذي يُزعج أي امرأة، حتى وإن كانت محققة.

«السير ناثانيال شيرلي.»

«حسبما سمعت، ليس كذلك.»

«من إذن الذي سيدفع النفقات؟»

«من الذي سيدفع النفقات؟» هكذا كرَّر المحامي ما قلته، ثم أضاف بعد صمت كما لو أنه يريد أن يبيِّن وجود فرق بين كلامي وكلامه: «ستكون هناك نفقات بالتأكيد.»

«هل نتحدث مع السير ناثانيال على الفور؟»

«يمكنكِ «أنتِ» التحدث إلى السير ناثانيال على الفور. أما أنا فسأنتظر حتى يتحدث هو معي.»

قلت مندهشةً: «أوه!»

«أجل.» أجاب المحامي وهو يقلِّب بلطفٍ إصبعًا ثقيلة من الشمع الأحمر لم أرَ قط مثيلًا له في أي مكتب محاماة على مدى مسيرتي المهنية.

كان واضحًا أن القضية ستُترَك تحت تصرُّفي إلى أن تسلك الأمور مسارًا واضحًا، وعندئذٍ سيتولَّى المحامي زمام القيادة. لقد لاحظت أن المحامين الذين تعيَّن عليَّ التعامل معهم يميلون بشدة إلى هذا الأسلوب الحذر في أداء العمل.

ربما نميل، نحن المحققين، إلى النظر بشكل من الاحتقار إلى مثل هذا الحذر؛ إذ نعلم أن أمورًا كثيرة تعتمد على الجرأة والمخاطرة، ولأننا نعرف أنه إذا تصرَّفنا بمثل هذا الخوف فلن نكسب ما يكفي لسدِّ رمقنا.

«سأراك مرةً أخرى يا سيد «م...» في غضون أيام قليلة.»

قال وهو يبدو مُنزعجًا قليلًا: «حسنًا، أيًّا كان ما ستفعلينه لا تتخلَّي عن القضية؛ فكِّري في الأمر جيدًا، ودعيني أراكِ مرةً أخرى بعد ثلاثة أيام.»

قلت: «شكرًا لك! سآتي عندما أريدك.»

أظن أنني لاحظت مزيجًا من المفاجأة والرضا ارتسم على وجه المحامي؛ فقد فُوجِئ لأنني أظهرت بعض الاستقلالية، وشعر بالرضا بسبب كلامي الذي يوحي بأنني لم أكن أنوي التخلي عن القضية.

أتخلى عن القضية!

مع عدد القضايا الجيدة التي ربما أكون قد انخرطت فيها، كنت أعرف أن أيًّا منها لم تقرِّبني من تحقيق الشهرة، وإلى حدٍّ ما، الثروة التي أحلم بها، مثل هذه القضية؛ إذ يمكنني إخباركم أننا نحن المحققين نُشبِه الممثلين أو المطربين أو الكُتَّاب المسرحيين الذين يأملون دائمًا في نيل بعض التميز الذي من شأنه أن يرتقي بهم إلى قمة مجال عملهم.

كنت قد ادَّخرت بعض المال؛ فأنا لست مسرفة، وعلى الرغم من أن نفقاتي الضرورية كانت ضخمةً فقد جنَيت قدرًا جيدًا من المال طوال عدة سنوات، ولم أنفق سوى القليل؛ لذا عقدت العزم على أن أجد المال اللازم لبدء هذا التحقيق والمتابعة فيه.

حتى هذه اللحظة كنت قد جمعت الحقائق فقط. أما الآن فكان عليَّ إثباتها.

لفعل ذلك كان من الضروري أن أستطيع دخول المنزل.

كما يعلم القارئ، كنت قد قمت بأولى محاولاتي عندما زُرتُ المنزل وقدَّمت بطاقة تعريف صغيرة تُثبِت أنني الآنسة جلادن، صانعة قبعات نسائية وخياطة، تغيب عن منزلها يومًا أو أسبوعًا.

كنت دائمًا ما أنفِّذ هذه الحيلة التي نفَّذتها بنجاح مع السيدة فليمبس وأثمرت عن الاتفاق على صنع قبعتين وقلنسوة لها، وفي الواقع يمكنني القول إنني تلقَّيت دروسًا

كمبتدئة لتحسين مهاراتي في كلتا المهنتين؛ كي أنفذ عملي الفعلي على نحوٍ أفضل، وهو، وسأكرِّر هنا مرةً أخرى، عملٌ ضروري، مهما كان محتقَرًا.

إذا ما اختفى المحققون من العالم فسرعان ما سيكتشف العالم غيابهم، وسيتمنَّى عودتهم، أو بعضهم، إلى العمل مرةً أخرى.

لكنني لم أستطع الانتظار حتى تُرسِل الآنسة شيدلي في طلبي، حتى بافتراض أنها تذكَّرتني وتذكَّرت أن تطلبني؛ فحتى هذا الافتراض كان موضع شك.

ولذلك أصبح من الضروري أن أعرض بضاعتي على تلك السيدة مرةً أخرى، فأرسلت عينة من عملي إلى منزلها ومعها رسالة مُفادها أن ما معي من مال كان يوشك على النفاد، وأنني بدأت أشعر بالقلق.

كان الرد على ذلك أنه يمكنني القدوم إلى المنزل في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي.

وصلت هناك في الموعد.

كان المنزل شديد الروعة ومليئًا بالخدم، وكان عددهم المُدهش يدل على الغنى الفاحش.

كانت سيدة المنزل، الآنسة كاثرين شيدلي، واحدة من ألطف النساء وأكثرهن بهجة؛ فهي رصينة وودودة وهادئة، وتمتلك القدرة على جعل الناس يشعرون بالألفة وكأنهم في منزلهم، وهي صفةٌ شديدة الندرة، ونعلم جيدًا نحن المحققين كيف نقدِّرها.

أقمتُ في غرفة مدبِّرة المنزل، وسرعان ما أصبحتُ مُحاطة بالعمل.

لم يكن قد مضى على وجودي في المنزل الضخم سوى ساعتين حين رأيت الطفلة الصغيرة التي كانت أمورٌ كثيرة قد اعتمدت على ولادتها.

كانت طفلةً لطيفة جدًّا، ولم يكن ثَمة شيءٌ استثنائي للغاية فيها، وكان عمرها، الذي أخبرتني به مدبرة المنزل، يتوافق تمامًا مع قصة سائق عربة الأجرة.

منحني ظهور الطفلة، التي كانت مليحة عند النظر إليها وليست جميلة، تلك الفرصة التي كنت أنتظرها. لقد كنت متأكدة تمامًا من أنني سأرى الوريثة عما قريب؛ إذ كنت أعلم أنه إن لم يكن الأطفال توَّاقون إلى رؤية وجوه جديدة في المنزل، فالفتيات الأصغر سنًّا اللاتي يتعهدن برعايتهم دائمًا ما يتشوَّقن لذلك.

«لقد فقدت الآنسة الصغيرة والدتها، أليس كذلك؟» هكذا سألت مدبرة المنزل التي كانت صادقة وصريحة، وهي صفة نُكنُّ لها، بطريقة أو بأخرى، نحن المحققين الكتومين احترامًا كبيرًا.

ردَّت مدبرة المنزل قائلةً: «أجل، لم تعرف الآنسة شيدلي والدتها أبدًا.»

«حقًّا؟! كيف كان ذلك؟ هلَّا ناولتِني الشمع الأبيض؟ شكرًا لكِ!»

«لقد ماتت السيدة شيدلي وهي في مدة النفاس.»

قلتُ: «يا إلهي! يا لها من سيدةٍ مسكينة!» ثم توقَّفت قليلًا وسألتها: «هل كنتِ تعرفينها يا سيدتي؟»

رفعت مدبرة المنزل عينيها لوهلة، وهي تبدو مُستاءة قليلًا، ثم سرعان ما استعادت أسلوبها اللطيف العادي وأجابت:

«أجل، لقد كنتُ مدبرة المنزل لدى والدتها، ثم صِرت مدبرة منزل والدها حتى وقت زواجها، وقد جئنا معًا إلى هذا المنزل.»

«ها! إذن فقد كنتِ حاضرة عند وفاة هذه السيدة المسكينة؟»

أردفت السيدة العجوز قائلةً: «عفوًا يا عزيزتي، لا أظن أنه توجد أي حاجة للشفقة على سيدتي — كما كنت أدعوها دائمًا بالسيدة شيرلي على اسم والدتها بعد وفاتها — فقد كانت صالحة بما يكفي لألَّا تخشى الموت كثيرًا.»

«إذا سمحتِ لي بالسؤال، يا سيدة دومارتي، هل ماتت دون مُعاناة؟»

«لقد كنتُ متأكدة من ذلك.»

«أوه! ألم تكوني حاضرة يا سيدة دومارتي؟»

«نعم يا عزيزتي، لم أكن حاضرة، ولن أسامح نفسي أبدًا على عدم وجودي في ذلك الوقت، ولكننا في الواقع لم نتوقع أي زيادة في الأسرة لمدة شهرين كاملين من الوقت الذي كانت تُعاني فيه السيدة المسكينة، وكنت قد ذهبت — لن أسامح نفسي أبدًا — إلى منزلي في الريف لأرى أقاربنا — أقصد أقاربي وأقارب سيدتي؛ فكلانا من نفس المنطقة.»

«أوه!» هكذا قلتُ باقتضاب؛ إذ كان من الواضح أن السيدة دومارتي كانت عديمة النفع من ناحية كَوْنها شاهدة.

«لم يكن أبدًا ثَمة شيءٌ مؤسف أكثر من هذا. يا إلهي، يا عزيزتي، لقد أربكني الحديث عن هذا الأمر بشدة، حتى إنني أظن أنني قد أخطأت في الحياكة! بلى، لقد فعلت؛ فالطولان مختلفان!»

سألت قائلةً: «ولكن السيدة لم تكن وحدها، أليس كذلك؟»

أجابت قائلةً: «نعم، لم تكن وحدها.» ثم قالت بنبرة صوت مختلفة عن تلك التي كانت تتحدث بها، وبصوتٍ أعلى: «لكنك تبدين مهتمة بالعائلة اهتمامًا غريبًا، أليس كذلك؟»

أجبت قائلةً: «يا إلهي، لا، ولكنها طريقتي عندما أكون أعمل لدى عائلة. أستميحك عذرًا، ولن أزعجك مرةً أخرى.»

أومأت السيدة العجوز بجدية وهي تزمُّ شفتَيها، وبدأت تفكُّ الغرزة الخاطئة التي كانت قد حاكتها، ولكنها لم تصمت طويلًا. سرعان ما بدأت تتحدث مرةً أخرى، وكنوع من الاعتذار لكَوْنها كانت حادةً بعض الشيء، صارت أكثر تواصلًا مما كانت عليه.

قالت: «لم تكن سيدتي وحدها، لكن ربما يكون قد حدث ما هو أكثر من ذلك فيما يخصها. على سبيل المثال، كان السيد شيدلي غائبًا عن البيت، ولكن لا شك في أن أخته كانت موجودةً.»

«ماذا؟! لم يكن موجودًا في المنزل عندما ماتت زوجته؟»

«نعم، عزيزي المسكين. وقد قيل لي إن قلبه كاد أن ينفطر عندما علم بالكارثة عبر التلغراف الكهربائي، وربما كان ذلك سيحدث لولا وجود ابنته الصغيرة. لقد أحزنه الأمر حتى إنه لم يتمكن من السفر لمدة يومين. لقد عرفت بالخبر عبر التلغراف الكهربائي، ولن أسامح نفسي أبدًا على غيابي.»

ها قد حصلت على معلومة!

كان من الواضح — إن كنت سأصدق مدبرة المنزل، والتي لم يكن لديها أي مبتغًى من خداعي — أن الأب، كشأن السير ناثانيال شيرلي، كان يجهل الوضع الحقيقي للمسألة.

قلت: «هل تعتقدين»، وهو سؤال كان سيُفضي إلى مسارٍ آخر في القضية، «هل تعتقدين أن الطبيب الذي باشر السيدة كان طبيبًا ماهرًا؟»

ردَّت مدبرة المنزل قائلةً: «ليُباركك الرب يا عزيزتي!» وبدأت ألاحظ أنها بدأت تشعر بالرضا، وليس الغضب، عن الاهتمام الذي كنت أبديه بالعائلة، «لقد كان الدكتور إلكينز أمهر الأطباء.»

سألت بطريقةٍ استفهامية: «كان؟»

أجابت مدبرة المنزل بصوتٍ ينمُّ نوعًا ما عن الإيمان بالقدر: «لقد مات. ينبغي أن أقول إنه لم يكن رجلًا شديد القوة أبدًا، وإنه ما كان ينبغي أن يجرب هذه الرحلة أبدًا. لقد سافر إلى جزيرة ماديرا يا عزيزتي، ومات هناك.»

وها هو شاهدٌ آخر من بين الشهود الأربعة الذين كنت أعتمد عليهم قد صار من المستحيل استجوابه.

قلت وأنا أنتقل إلى فرعٍ آخر من قضيتي: «ربما أهملت الممرضةُ السيدةَ المسكينة.»

أجابت مدبرة المنزل العجوز قائلةً: «أوه يا إلهي! لا يمكن؛ فقد كانت المسألة برمَّتها مفاجئةً وغير متوقعة، وقد أعقبت الوفاةُ الولادةَ مباشرةً، حتى إن الممرضة لم تُستدعَ إلا بعد ساعات من موت سيدتي المسكينة. كان الإنسان الوحيد الذي كان معها ليُساعدها في كربها هو أختها العزيزة، السيدة شيدلي، التي اعتنت بها طوال معاناتها. لقد نجت الآنسة شيدلي نفسها بحياتها بصعوبة، ومنذ ذلك الحين صارت كالأم لطفلتنا الحبيبة.»

إذن فمن بين الشهود الأربعة المفترضين لم يبقَ سوى واحدة فقط هي التي يمكن أن تُفيدني في كشف السر، وهذه الشاهدة هي المتَّهَمة بالكامل بالاحتيال؛ إنها أخت زوج السيدة الراحلة، وأخت الأب المفترض، الذي اعتبرته حينئذٍ مخدوعًا على الأرجح مثل السير ناثانيال شيرلي الذي من المؤكد أنه تعرَّض للخداع هو الآخر. إن الأب المفترض لم يصل إلى البيت إلا بعد يومين من وفاة السيدة؛ أي بعد يومين على الأقل من الولادة المفترضة للطفلة التي أصبحت حينئذٍ وريثة الممتلكات الضخمة.

لم يكن الأب في المنزل وقت الولادة ولا الوفاة.

ولم تُستدعَ الممرضة.

وقد مات الطبيب.

لم يبقَ سوى شقيقة الزوج. كيف يمكنني التقرب منها؟ لقد كان من مصلحتها في المقام الأول التزام الصمت. ستكون حذرة، ولا يمكنني أن آمل الحصول على أي معلومات منها.

بدأت أرى أن فرص نجاحي تتضاءل أكثر فأكثر.

ولكنني لم أيأس.

في تلك الأمسية نفسها، وبعد أن كنت قد غادرت المنزل ليلًا، توجَّهت إلى المنزل الذي كان يعيش فيه الدكتور إلكينز، بعد أن عرفت العنوان من مدبرة المنزل، ووجدت أنه كان لا يزال ملكًا لأحد الأطباء الذي، وباختصار، كان من اشترى أعمال الدكتور إلكينز منه عندما قرَّر مغادرة إنجلترا.

لقد كان الاستفسار عما إذا كان للدكتور إلكينز مساعد أم لا، وإذا كان لديه فأين يمكنني العثور عليه؛ أمرًا في غاية السهولة.

لا، لم يكن للدكتور إلكينز أي مساعد.

كنت قد شكرت مدبرة منزل الطبيب على معلوماتها، وكنت أستدير لأرحل عندما خجلت من نفسي لشيء أغفلته عندما قالت:

«كان لدى الطبيب مُتدرب.»

فسألتها: «وأين هو؟»

«يا إلهي! كيف لي أن أعرف يا سيدتي! أظن أنه في أحد المستشفيات في لندن. على الأقل أعرف أنه قال إنه كان ذاهبًا لأحد المستشفيات، وإنه كان سيصبح «جاي».»

شحذت هذه العبارة شجاعتي؛ إذ كان لديَّ بعض الخبرة مع طلاب الطب؛ فقد كانت لديَّ قضية أصبح فيها أحد هؤلاء الطلاب سجيني في النهاية. عرفت أنه عندما قال هذا الشاب إنه سيصبح «جاي»، أنه كان يقصد أنه كان على وشك أن يصبح طالبًا في «مستشفى جاي» فوق جسر لندن.

سألت الخادمة قائلةً: «ماذا كان اسمه؟»

«يا إلهي يا سيدتي! أتمنى حقًّا ألا يكون قد وقع في أي مشكلة. لقد كان عيبه الوحيد، عندما كان معنا، هو الرقص؛ فقد كان مُولَعًا به.»

«لا توجد أي مشكلة. أريد أن أوجِّه إليه سؤالًا فحسب.»

قالت السيدة العجوز: «ليُباركك الرب! اسمه جورج جيفينز؛ إنه شابٌّ ذو شعر أحمر مُشرِق، كان يحاول تغيير لونه دائمًا، ولكنه دائمًا ما كان يصبح أكثر إشراقًا بعد كل محاولة.»

تركت مدبرة المنزل العجوز بعد أن قلت لها إنني سأزورها مرةً أخرى (وهو ما لم أفعله أبدًا).

في تلك الليلة نفسها أرسلت رسالة إلى مدبرة منزل آل شيرلي، كما كان يُطلَق على قصر السيد شيدلي، مُفادها أنني لن أتمكن من الوجود معها في اليوم التالي، وعندما أشرقت شمس اليوم التالي كنت في لندن.

سرعان ما وصلت إلى مستشفى جاي، وفي غضون ربع ساعة من التجول في المبنى عرفت أن السيد جورج جيفينز كان طالبًا في ذلك المكان، وأعطاني الحارس، بابتسامة، عنوانه الخاص.

حينئذٍ كانت الساعة التاسعة والنصف، وعند وصولي إلى المنزل ودخولي إلى الممر، خمَّنت أن السيد جيفينز كان يتناول الإفطار من صوت نقر ملعقة على فنجان أو طبق سمعته بوضوح.

عندما قالت له صاحبة المنزل إن ثَمة سيدةً ترغب في رؤيته، توقَّف صوت نقر الملعقة.

كنت معتادة على الإنصات بحدةٍ أكبر من المعتاد — فأنا أومن أنه يمكن تدريب الحواس لتصبح أكثر حدة لأي مدًى — وسمعت السيد جيفينز وهو يقول:

«لماذا، بحق الجحيم، لم تقولي إنني غير موجود؟»

ثم صاح قائلًا: «أهذا أنتِ يا ماتيلدا؟»

أجبت قائلةً: «لا، أنا لست ماتيلدا.»

قال (بارتياحٍ أدهشني) وهو يقترب من الباب: «أوه! أوه! إذن من أنتِ، يا سيدتي، بحق الجحيم؟»

أذهلني أكثر، وأنا مستعدة للاعتراف بذلك، أنه عندما رآني لم يُبدِ أي رغبة استثنائية في التعرف بي أكثر.

وقد وضح نفوره أكثر عندما قلت له إنني أتيت لأمرٍ يخص العمل.

كان شابًّا يبدو مُنهَكًا وهزيلًا، وبدا لي كأنه عاش نحو ثلاث سنوات في سنةٍ واحدة.

ومع ذلك طلب مني الدخول إلى غرفة الاستقبال. وكانت شقته هي أكثر شقة بائسة وذات أثاث مدمَّر دخلتها على الإطلاق، ثم بعد أن غادرت صاحبة المنزل الغرفة منزعجةً سألني بأسلوبٍ فظٍّ عما أريده مستخدمًا لفظًا غير لائق، ولكنني سأمتنع عن اقتباسه.

«لقد كنت تلميذًا لدى الدكتور إلكينز، أليس كذلك؟»

قال بارتياح: «أوه، بلى.»

«لقد كنت تلميذه في عام ١٨٥٨، أليس كذلك؟»

«بلى، في عام ١٨٥٨.»

عندئذٍ، بعدما تجاوز خوفه الجلي مني، لاحظت أنه بدأ يشكُّ في أمري.

«أريد فقط أن أعرف، هل تتذكر ولادة طفلة في منزل آل شيرلي في يوليو من نفس ذلك العام؟»

«ماذا؟ طفلة السيدة شيدلي؟ أوه! أجل، أتذكَّر هذا بشكلٍ خاص. ولماذا تسألينني عن ذلك بحق السماء؟»

«ببساطة لأنني أريد معرفة تاريخ مسألة ذات صلة بي شخصيًّا، وسيمكنني تحديده على الفور إذا عرفت تاريخ ميلاد ابنة السيد شيدلي.»

قال السيد جيفينز: «حسنًا، يمكنني إخبارك، إنها أغرب صدفة ستسمعينها في حياتك. اجلسي يا سيدتي، واسمحي لي باستكمال إفطاري؛ إذ لا بد أن أذهب لمحاضرة بحلول الساعة العاشرة.»

وهكذا جلست. أول درس للمحقِّق هو مُجاراة الضحية، والدرس الثاني هو قبول حسن ضيافة الضحية إن قدَّمها. لا شيء يدفع الرجال أو النساء إلى الكلام بسهولةٍ أكثر من السماح لهم بملء فمك بالطعام أو الشراب!

سألني قائلًا: «أترغبين في احتساء فنجان من الشاي؟»

فعلت ذلك على الفور.

قال: «يا إلهي! أذكر هذا اليوم جيدًا، فقد كان الخامس عشر من يوليو؛ لأنني أتذكَّر جيدًا أنني رأيته على ورقة الاستدعاء — «إنه في الخامس عشر من يوليو، عام ١٨٥٨، ارتكبتَ عمدًا ومع سبق الإصرار والترصد، وإلخ إلخ …» — في الواقع، كما ترين، لقد كان عيد ميلاد مدبرة منزل سيدي العجوز، وكنت قد وعدتها بمفاجأة، وقد كانت هذه المفاجأة هي حزمة كاملة من المفرقعات النارية، كانت كلها مشتعلة وجاهزة تحت نافذتها تمامًا. كان الشرطي يمرُّ في ذلك الوقت؛ ولهذا تلقَّيت طلب الاستدعاء، وكان عليَّ دفع غرامة خمسة شلنات وثلاثة عشر شلنًا مقابل الخسائر. حسنًا، أتذكر التاريخ. لديَّ ورقة الاستدعاء حتى الآن. أتذكر أن الحاكم كان ذاهبًا إلى منزل آل شيرلي؛ وهو ما أعطاني الفرصة لإطلاق المفرقعات النارية، ولكن، بحق الرب»، وأكمل وهو يتناول قضمةً كبيرة من خبزه المحمَّص الجاف قائلًا: «لا بد أن أسرع، وإلَّا فلن أصل أبدًا في الوقت المناسب لحضور المحاضرة.»

تابعت قائلةً: «معذرةً يا سيدي، ولكنني أرغب في سماع كل التفاصيل عن التوقيتات. في أي ساعة عاد الدكتور إلكينز إلى المنزل قادمًا من منزل آل شيرلي؟»

«أعتقد أنها كانت حوالَي الساعة العاشرة، وفي الحادية عشرة اتصلوا به، واضطر إلى العودة إلى المنزل مرةً أخرى!»

قلت: «ها، بالضبط! والآن نأتي إلى النقطة التي تهمُّني بشكلٍ خاص. أعرف أنه عاد إلى المنزل، وإلا ما كنت سأرغب في معرفة أي شيء عن هذه المسألة. هل لي أن أسأل لماذا عاد إلى المنزل، أو ما هو العذر الذي قدَّمه لك عندما غادر منزله؟ هل قال إنه سيعود إلى منزل آل شيرلي؟»

«أوه أجل! وأنا متأكد تمامًا من أنه ذهب إلى هناك؛ لأن السائس هو من أتى ليطلب منه القدوم.»

قلت بنبرة شغوفة: «هل هذا ممكن؟ أتمنى أن تخبرني كل شيء عن هذا الأمر! لأنني كما ترى مهتمة للغاية بمعرفة التفاصيل.»

قال: «حسنًا، انظري»، ويجب أن أعترف أن سلوك الشاب تحسَّن بعد التعارف، تمامًا كما يتحسن في الغالب سلوك كلب بشع بعد بعض الوقت؛ «سأخبرك بكل شيء. لم يكن من

المتوقَّع أن يبقى إلكينز في المنزل الكبير في تلك الوظيفة لمدة شهرين كاملين؛ لذا قد تخمِّنين أنه فوجئ إلى حدٍّ ما عندما استُدعي في الساعة العاشرة مساءً، في الخامس عشر من يوليو. عاد قبل الساعة الحادية عشرة، وأتذكر أنني سألته عما إذا كان كل شيء على ما يُرام، وأتذكر أنه قال لا، ولم يكن من المحتمل على الإطلاق أن يكون أي شيء على ما يُرام.»

«ما الذي كان يعنيه بذلك؟»

«حسنًا، أنتِ لا تُدهَشين بسهولة، أليس كذلك؟»

قلت وأنا أنظر ببساطة إلى الشاب في عينيه: «لا.»

لا يمكنني إعادة العبارة التي قالها، ولكنها كانت تعني بوضوحٍ أن السيدة شيدلي لم تُنجب طفلةً حية، وأنه كان من غير المحتمل إلى حدٍّ كبيرٍ أن يكون ذلك قد حدث.

كانت هذه هي المعلومات التي أردتها بالضبط، ولكن لم يكن من الممكن أن أُظهر ذلك؛ لذا قلت بأقصى ما استطعت التظاهر به من نفاد الصبر:

«ولكني أريد أن أعرف الآن الوقت الذي ذهب فيه الطبيب إلى المنزل مرةً أخرى. هذا إن كان قد ذهب أصلًا، وهو ما أشك فيه.»

لا بد أنني جعلت الشاب يتخلى تمامًا عن حذره بطريقتي التي بدت حقيقية؛ إذ وضع كأسه على الطاولة، وتحدَّث بأكثر نبرة مهذَّبة تحدَّث بها منذ أن قابلته قائلًا:

«أوه، ولكني أؤكد لك أنه ذهب بالفعل إلى المنزل وعاد في غضون ثلاث ساعات تقريبًا. أؤكد لك أنه بدا مُستاءً على نحوٍ مُدهش، وعندما سألته عما إذا كان ثَمة خَطْب، أجاب بأن السيدة شيدلي قد ماتت. لم يزِد على ما قاله، ودخل غرفته دون أن يتمنَّى لي ليلةً سعيدة، وهو ما كان أمرًا مُستغربًا للغاية منه؛ لأنه رجلٌ مهذَّب جدًّا. حسنًا، يمكنك أن تتوقعي دهشتي في صباح اليوم التالي عندما قالت لي «الأم سماك» العجوز، معذرةً، أقصد عندما قالت لي مدبرة منزل الطبيب: «إذن توجد وريثة في المنزل الكبير. أفترض أنه سيكون لدينا أعمالٌ استثنائية، أليس كذلك؟» حسنًا، وقد كان كذلك. وعندما سألت الطبيب طلب مني أن أصمت، وأضاف أن ولادةً أخرى قد حدثت، ثم توسَّل لي ألا أقول شيئًا عن هذه المسألة، ولم أفعل حتى الحين. ولكن هذا لا يهم كثيرًا الآن؛ إذ يمكنني الحديث عن الأمر والإضرار كثيرًا بسمعة الطبيب العجوز المسكين، ولن يشعر بذلك؛ فقد غادر عالمنا وصعد إلى السماء؛ فلنأمل أن ينال الخلاص. لقد ارتكب خطأً، كما ترين، وكنت أخشى قول أي شيء عن الأمر؛ إذ ربما يكون قد ساعد في وضع السيدة المسكينة في لحدها، أحيانًا ما يقوم الأطباء بالفعل بهذا النوع من الأشياء، ولا يكون أمامهم خيارٌ آخر، ولكنني أتمنى حقًّا،

يا سيدتي، ألا يكون لديكِ المزيد من الأسئلة التي تريدين طرحها عليَّ، وآمل أن أكون قد أسديت إليكِ خدمة. إذا انتظرتُ أكثر من ذلك فسأتأخر كثيرًا على المحاضرة، ولن يكون ثَمة نهاية للتوبيخ.»

حسنًا، أجبته قائلةً إنه لم يكن ذا نفع كثير لي، ولكنني شكرته على أي حال، وسألته أن يسمح لي بزيارته مرةً أخرى.

فغَرَ فاه مُندهشًا. قال إنه لا يهتم كثيرًا بزيارة النساء له؛ لأن ذلك النوع من الأخبار ينتشر بسرعة، وقد حدث هذا لأحد زملائه وكانت عواقبه سيئة. ولكنه قال إنه يمكنني أن أزوره مرةً أخرى، وسألني إن كان يمكنني استخدام اسم «ووكر» في المرة القادمة؛ لأنه لم يكن يرغب في معرفة اسمي؛ إذ سيسهل عليه تذكُّر هذا الاسم، ثم قال إنه لا بد أن يغادر.

قال هذا ثم اندفع مسرعًا، تاركًا إياي وحدي في غرفة الاستقبال بصحبة ملاعق صاحبة المنزل الفضية.

كنت قد علمت أكثر بكثير مما كان يفترض، أكثر مما هو نفسه كطبيبٍ يمكن أن يظن، ولم أكن بحاجة إلى زيارته مرةً أخرى، ولكنني في ذلك الوقت كنت أظن أنني يجب أن أفاجئه بالظهور بشخصيتي الحقيقية، وبأن يكون فعَّالًا في استدعائه كشاهد.

ما الذي عرفته بالإضافة إلى ما كنت أعرفه بالفعل عن القضية؟

لقد عرفت أكثر بكثيرٍ مما يمكنني أن أصرِّح به لقُرائي، ومع ذلك لا بد أن أضع هذه المعلومات في جعبة اكتشافاتي بطريقةٍ روتينية إلى حدٍّ ما.

فلتعلموا إذن أن الطبيعة يمكن أن تحمل دليلًا على عجز بعض النساء عن أن يصِرْن أمهات لأطفالٍ أحياء، بحيث إنه بعد موتهن بفترةٍ طويلة، حتى ولو بعد مئات السنين من موتهن، إذا كان الهيكل العظمي كاملًا يمكن للأطباء أن يُقسِموا على وجود مثل هذا العجز.

بالمعلومات التي حصلت عليها، عرفت أن بحوزتي الدليل على جُرْم الآنسة شيدلي. سيحسم فحص بقايا جثة السيدة المسألة، وإذا تمكَّن سائق عربة الأجرة من التعرف عليها، ولم يكن لديَّ أدنى شك في أنه يستطيع ذلك، ستثبُت عليها التهمة في عقر دارها في حال أنكرتها.

ماذا عليَّ أن أفعل؟

كان واجبي الفعلي أن أُبلغ الوريث القانوني، السير ناثانيال شيرلي، على الفور باكتشافي، ولكن أين هو؟

كان بإمكاني اكتشاف ذلك بسهولة، على الأرجح، بالعودة إلى منزل آل شيرلي والقيام بالمزيد من التحقيقات.

عند وصولي إلى القصر في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر إليه بشيءٍ من الرهبة، ولقد كانت المعرفة الحديثة حاضرة بداخلي بقوة، حتى إنه قبل وقت قصير كان هذا المنزل مثل باقي المنازل الأخرى.

رحَّبت مدبرة المنزل بي ببهجةٍ مسَّت قلبي، ولكنني قلت لنفسي إن عليَّ أن أتذكر أنني لا بد أن أتصرَّف وفقًا للعدالة وليس الشفقة. إن غاية عمل المحقق هي العدالة، وإن كان يعلم مقامه، فعليه ألا ينظر إلى ما هو أبعد من تلك الغاية.

ما كان يتعين تمامًا أن أفهمه من مسألة «مؤجر مدى الحياة» هذه، هو أنه يوجد أُناسٌ يتمتعون، عن طريق الاحتيال، بممتلكات ليس لهم أي حق فيها. كان هذا وضع لي الحق، بصفتي محققة، في تصحيحه، وكان هذا هو العمل الذي كنت أنوي إتمامه.

لم أفكر كثيرًا في كم كنت أتمنى بشدة لو أنني لم أشرع في هذه المسألة أبدًا، ولم أستجوب زوجة سائق عربة الأجرة، ولم أواصل هذه التحقيقات.

بدا أن العمل الذي أنجزته نال إعجاب الآنسة شيدلي بشدة؛ إذ قالت مسرورةً لمدبرة المنزل إنني «كنز في مجال أشغال الإبرة.»

أفترض أن هذا النجاح هو الذي مهَّد الطريق لكسب ود مدبرة المنزل. ومهما يكن من الأمر فمن المؤكد أنها في هذا الصباح قد أجابت على معظم أسئلتي؛ أسئلة نتجت بكل تأكيد من ملاحظاتها الخاصة، بحيث لم يكن بوسع هذه السيدة العجوز المسكينة أن تشكَّ مطلقًا في أنني كنت أستجوبها.

عرفت الكثير خلال ذلك اليوم الطويل من العمل وأنا جالسة في غرفة مدبرة المنزل.

لنبدأ بسيد المنزل؛ قالت مدبرة المنزل إنه سيدٌ «مُحتفًى به» للغاية، ولكنه «غريب الأطوار، يا عزيزتي»؛ وبعد سؤال أو نحو ذلك، حصلت على توضيح لما كانت تعنيه بغرابة أطواره، التي لم تتمثل في شيء سوى محاولته لجَنْي ضعف كمية القمح التي كان يُنتجها أكثر المزارعين تقدمًا من الهكتار من الأرض.

تابعت مدبرة المنزل قائلةً: «تقول الآنسة شيدلي إن شقيقها المُخلِص يأمل أنه إن نجح في القضاء على الجوع — وهو ما تؤكد الآنسة بشدةٍ أنه سيحدث إذا ضاعف كمية القمح الذي تُنتجه الأرض — فحينئذٍ سيكون المحصول وفيرًا لدرجة أن الناس لن يحتاجوا إلى الخبز، كما هو الحال الآن.»

أعترف أن هذا القول مسَّ قلبي؛ فمع أني محقِّقة فأنا أيضًا امرأة. لقد أذهلني ذلك كَوْنه أمرًا جميلًا ونبيلًا أن يعمل رجلٌ طوال حياته لنفع الناس؛ وهذا هو ما فعله سيد

منزل آل شيرلي بكل تأكيد، إذا كان ما قالته مدبرة المنزل صادقًا. لم أجد أي سبب للشك فيما تقول.

كما قالت أيضًا إنها علِمت أنه كان يعمل بجدٍّ كل يوم على مدى السنة، ويُجري التجارب سواء على الأرض أو في ورشة كيميائية بدا أنها كانت لديه في المنزل.

لم يكن مُنغمسًا في الملذَّات، وكان يرتدي ملابس بسيطة، ويأكل ما يسدُّ جوعه فحسب، ولا ينام سوى سُوَيعاتٍ قليلة.

سألتها عما إذا كان سعيدًا.

ردَّت مدبرة المنزل العجوز بحكمة تجربتها البسيطة قائلةً: «كيف يمكنه أن يكون سعيدًا وهو يقضي حياته كلها مُحاولًا المساعدة في إسعاد الآخرين؟»

غيَّرت الموضوع، وسألتها إن كان مُولَعًا بابنته.

بدا أنه كان مكرِّسًا نفسه لابنته بطريقةٍ بسيطة وواضحة، لكنه ترك أمر رعايتها بالكامل تقريبًا لأخته.

سألتها: «هل كان يحب زوجته كثيرًا؟»

لوهلة، بدا أن مدبرة المنزل العجوز كانت على وشك أن تجيب بطريقة وقورة مرةً أخرى، ولكن يبدو أنها عدلت عن ذلك؛ لأنها ابتسمت وقالت:

«أجل يا عزيزتي، ولكنها كانت مُولَعة به.»

قلت: «حقًّا!»

«أجل؛ وهذا على الرغم من أنه كان كبيرًا بما يكفي لأن يكون في عمر والدها. كانت تبلغ من العمر العشرين عامًا فقط عندما ماتت يا عزيزتي، وكانت جميلة جدًّا، أؤكد لكِ ذلك، وكانت مثل امرأة قد أدَّت واجبها. لقد أحبَّته يا عزيزتي لأنه كان يحاول فعل الخير للعالم، ومع أنها كانت أصغر بكثير من زوجها فإن ذلك لم يشكِّل أي فارق على الإطلاق يا عزيزتي، لم يشكِّل أي فارق على الإطلاق، أؤكد لك ذلك. وعندما ماتت سيدتي بدت وكأنها امرأة قد أدَّت واجبها.»

«هل وافقت عائلتها على هذا الزواج يا سيدتي؟ إن سمحتِ لي أن أتجرَّأ وأطرح هذا السؤال.»

«لم يكن لدى سيدتي سوى والدها لتستشيره يا عزيزتي؛ لأنه لم يكن ثَمة أقارب آخرين للعائلة سوى شقيق السيد توماس، وهو السير ناثانيال، الذي كان في مكانٍ بعيد جدًّا في ذلك الوقت، كما أنه لم يكن زائرًا مرحَّبًا به في روتلاندشاير، التي منها أتينا. يعيش السيد شيدلي بالقرب من لندن للذهاب إلى الجمعيات، وليكون بين رجالات العلم.»

سألتها وأنا أكمل الحياكة: «هل ترين السير ناثانيال هذه الأيام؟»

«أوه لا، إننا لا نراه أبدًا؛ فهو والسيد شيدلي لا يتفقان على نحوٍ جيد، مع أن انطباعي أن سيدنا يمنحه دخلًا أكبر مما كان يدفعه له السير توماس.»

«ولكن، مع أنك قد تظنين أنني وقحة لطرحي الأسئلة، أليس كذلك؟»

ردَّت مدبرة المنزل قائلةً: «لا على الإطلاق، أبدًا. لقد صنعتِ تلك القطعة الأخيرة بشكلٍ جميل.»

«حسنًا، كنت سأسأل: كيف لم يحصل السير ناثانيال على الضِّياع مع اللقب؟ كنت أظن أن الضِّياع مرتبطة باللقب بشكلٍ عام.»

قالت مدبرة المنزل: «هذا صحيح يا عزيزتي، ولكن في حالتنا كان الأمر مختلفًا. لم يرِث السير توماس الضِّياع من أبيه، ولكنه جنى المال الذي اشتراها به من خلال البنوك؛ لأنه كان مصرفيًّا، وكان قد حصل على الجزء الأكبر من المال الذي بدأ به من زوجته الأولى؛ لأنهم كانوا عائلةً فقيرة، بعدما بدَّد البارون السادس كل شيء أمكنه تبديده، وذلك هو السبب في أن السير توماس ترك جميع الضِّياع لابنته، وهو الأمر الذي أعرف أن السير ناثانيال لم يغفره له أبدًا، أبدًا.»

سألتها: «أين السير ناثانيال؟»

«إنه يعيش يا عزيزتي — وإن كان لا بد لي أن أقول إنك مهتمة كثيرًا به — في برايتون معظم الوقت؛ فقد كان رجلًا فظيعًا، وصحته ليست كما ينبغي أن تكون، ولكن على الرغم من كل ذلك فهو رجلٌ نبيل في مظهره وعند التحدث إليه أيضًا.»

سألتها: «ما الخطأ الذي ارتكبه؟»

وهنا فشلت مدبرة المنزل في الرد، ولم تتمكن من تقديم أي دليل سوى شائعات غامضة للغاية وضعيفة، وكلها تميل إلى جعلي أتحيز لصالح الرجل الذي كنت أعلم أن من واجبي أن أقدِّم له سجل اكتشافاتي.

قالت مدبرة المنزل: «من المؤكَّد أن ثَمة شيئًا سيئًا حِيال السير ناثانيال، وإلا كان سيغدو مرحَّبًا به هنا بكل تأكيد، ولكنه ليس موضع ترحيب هنا. وعلى الرغم من ذلك فأنا متأكدة تمامًا من أنه يحصل على ما يمكِّنه من عيش الحياة التي يعيشها؛ حياة رجل نبيل.»

بعد ذلك ساد صمتٌ قصير، قطعته بقولي:

«هل كان السيد شيدلي غنيًّا عندما تزوَّج سيدتك الصغيرة؟»

«مقارنةً بسيدتي يا عزيزتي، لا، ولكن إذا لم نُقارنه بها فقد كان ميسور الحال؛ ميسور الحال للغاية. قال الناس في مسقط رأسنا، بالطبع، إن سيدتي الشابة — الوريثة والجميلة — قد ألقت بنفسها إلى التعاسة، ولكن ذلك كان هراءً يا عزيزتي؛ فهي لم تكن أبدًا أكثر سعادة.»

وهكذا مر الصباح. في كل لحظة كنت أعرف بعض الحقائق الصغيرة الجديدة التي قد تكون مفيدة لي، ولكن المؤكَّد هو أنه بحلول الوقت الذي وصلت فيه وجبة عشاء مدبرة المنزل، كان رأيي بآل شيدلي — الأخ وأخته — قد لانَ كثيرًا، وبدأت أنظر ببعض الشك تجاه السير ناثانيال؛ إذ لا توجد مقولةٌ أكثر صحة من مقولة إن كل فضيحة صغرت كانت أم كبرت تُثقِل كاهل صاحبها.

يمكنني القول إنني ظللتُ أعمل في منزل آل شيرلي لأكثر من أسبوع، وبحلول اليوم السابع تبدَّل رأيي كثيرًا في آل شيدلي إلى الأفضل.

لا بد أن تأخذوا في اعتباركم أننا نحن ضباط الشرطة نرى الكثير من أسوأ جوانب البشر، حتى إننا، بدلًا من اتباع المبدأ المسيحي الذي يؤمن بأن كل الناس صادقون حتى يثبت أنهم لصوص، نؤمن بأن كل الناس لصوص حتى نتأكد من أنهم أناسٌ شرفاء؛ ومِن ثَم عندما وقعت على القضية التي أعتبرها قضيتي الكبرى، افترضت بطبيعة الحال طبعًا أنني أتعامل مع جريمة، وهو ما كان حقيقيًّا بلا أدنى شك، ولكن لا بد أن أضيف أنني وجدت أن الجريمة مشوبة بطابع يكاد يرقى إلى النُّبل، ومع ذلك فقد كانت جريمة.

ولكن مهما وجدت أن رأيي في آل شيدلي قد تحسَّن، فلم أتردَّد لحظةً في تصميمي على إبلاغ السير ناثانيال في النهاية بالوسيلة التي احتِيلَ بها عليه. لم يكن هذا سوى العدل، والعدل، كما سبق أن قلت، هو الغاية الحقيقية من عمل المحقق.

لقد عملت في ذلك المنزل أسبوعًا، وخلال تلك الفترة أُتيحت لي فرصٌ عِدة لإقناع نفسي بالمعدن الحقيقي للأشخاص الذين يعيشون فيه، وللحصول على جميع التفاصيل التي قد تكون مفيدة لي، وعلى أي معلومات استطاعت مدبرة المنزل تقديمها لي.

أعتقد أنه سيكون من الجيد عند هذه النقطة تلخيص ما توصَّلت إليه في عملي خلال ذلك الأسبوع.

أولًا: أظن أنني قلت إن السير ناثانيال ورث اللقب فقط؛ فالممتلكات التي تركها السير توماس شيرلي لابنته كان قد حصل عليها بنفسه بوصفه مصرفيًّا. تألَّفت تلك الممتلكات مما لا يقل عن أربع ضِياع كبيرة، وكان الدخل الآتي منها يتراكم فيما يمكن أن يُطلَق عليه الفائدة المركبة.

وخلال هذا الأسبوع، بناءً على اقتراح من المحامي الخاص بي، بدت لي القضية بشكلٍ آخر يختلف عما كانت عليه سابقًا. منع وجود الفتاة الصغيرة، والوريثة، الأب من التمتع بكامل الدخل الذي تدرِّه ممتلكات زوجته الراحلة، والتي كان سيحصل عليها لو كانت الطفلة قد ماتت؛ لذا كان من الواضح أن استبدال الطفلة الميتة بأخرى حية ورعايتها، كان الغرض من ورائه أكبر من الاحتيال. كان من الواضح أنه إذا كانت الرغبة في الحصول على الحق في حيازة الممتلكات مدى الحياة — وكانت هذه هي الرغبة الوحيدة — هي الدافع للاحتيال، فالشخص أو الأشخاص الذين يمكنهم ارتكاب مثل هذا الفعل لن تمنعهم الرحمة من التخلص من الطفلة البديلة، أو، على أي حال، من الاستفادة منها أقصى استفادة ممكنة، ومع ذلك فهم لم يستفيدوا من هذه المنفعة الأخيرة؛ إذ إن الأب المفترض لم يُطالب في الواقع بحقه في ملكية ابنته المفترضة، بل ترك الدخل السنوي بأكمله يتراكم (عرفنا هذه الحقيقة ببعض الصعوبة).

كان هذا الاكتشاف — والذي لا أحتاج إلى الخوض في تفاصيله؛ فهي ليست ضرورية لتوضيح قضيتي ولا لها مصداقيةٌ كبيرة عندي — لا يزال يُذهلني أكثر فيما يخصُّ قناعتي الأولى بأن الدافع وراء الاستبدال بالطفلة الميتة أخرى حية نبع من الرغبة في الحفاظ على حيازة الممتلكات.

أثناء ذلك الأسبوع رأيت الآنسة شيدلي مرتين، وفي كل مرة أكون أعمل في شيء يخص شغل الإبرة.

قالت (وهي تهم بالخروج): «صباح الخير، ألا يُصيبك العمل لساعاتٍ طويلة بألم في رأسك؟»

أجبت: «لا، شكرًا لسؤالكِ.»

فقالت: «إن الحديقة مفتوحة أمامك بالكامل وقتما ترغبين في المشي.»

وكانت هذه هي الطريقة التي رأيت بها السيد شيدلي؛ إذ بالاستفادة من هذا الإذن باستخدام الحديقة والأرض عامة (لا بد أن يستغلَّ المحققون كل المزايا المقدمة لهم وكل ما يمكنهم الحصول عليه عمومًا)، رأيته وهو يفحص عدة رُقَع من مختلف أنواع القمح، والذي بدا لي أن نصف الحديقة كانت شِبه ممتلئة بمحصوله.

لقد كان رجلًا لطيفًا وصادقًا على نحوٍ مُدهِش، ذا عيون داكنة وعميقة، ووجه يرتسم عليه تعبيرٌ محبَّب وشديد اللطف، يُشبِه نوعًا ما ذلك التعبير الذي يرتسم على وجه فتاة يهودية يافعة جدًّا وراقية.

بما أن المحققين دائمًا ما يسألون عن كل ما يرونه ولا يمكنهم فهمه، فقد يكون من السهل تخمين أنني سألته عن المغزى من زراعة القمح في حديقة.

جعلني الجواب الذي حصلت عليه أكثر رغبة في التخلص من قناعتي الأولى، وهي أن استبدال طفلة بأخرى كان جريمةً دافعها الجشع.

عرفت بعدئذٍ من مخبرتي العامة — مدبرة المنزل — أن السيد شيدلي كان يقضي كل وقته (الشتاء في مختبَره، والربيع والصيف والخريف في حديقته وفي حقول تجارب متنوعة في ضِياعٍ مختلفة) في عمل تجارِب على القمح وحبوبٍ أخرى، بغيةَ زيادة متوسط إنتاج القمح لكل هكتار. أرى هنا أنني قد وقعت في فخ التكرار.

ليس من المعتاد أن يحاول المجرمون أن يكونوا طيبين مع بني جنسهم من البشر — لو فعلوا ذلك، أو أمكنهم فعل ذلك، فسيكونون أسعد — ومِن ثَم فاحتمال كَوْن السيد شيدلي مُجرمًا صار احتمالًا أضعف بكثير بعدما علِمت بهذه السمة الجيدة في شخصيته. أرى من خبرتي الشخصية أن الشخص — رجلًا كان أو امرأة — الذي يحاول أن ينفع المجتمع نادرًا ما يكون سيئًا في أعماقه؛ لأنه لو كان سيئًا ما كان سيفكر في أي شخص آخر غير نفسه.

تحدَّث السيد شيدلي بلطفٍ شديدٍ كبير معي، وسألني عن رأيي في هذا وذاك، ونزع قفاز البستنة عن يده كي يقطف لي بعض حبات الفراولة.

أظن أنني عُدتُ إلى المنزل وأنا خجِلة قليلًا من نفسي، وربما لو تصادَف أنني كنت قد مررت فجأةً أمام مرآة، فربما كنت سأخجل من الآنسة جلادن ومما تفعله.

ولكنني لم أتردد أبدًا ولو للحظةٍ واحدة في تصميمي على تحقيق العدالة، وعلى مقابلة السير ناثانيال وإخباره بكل شيء. ما كنت سأصبح ملائمة لمهنتي لو كنت سمحت لنفسي في أي وقت من الأوقات بتجاهل واجبي بداعي الشفقة، أو بأي ذريعة أخرى قائمة على التفضيل الشخصي.

في المرة الثانية التي رأيت فيها الآنسة شيدلي، كنت ذاهبة إلى مسكني الصغير لقضاء ليلتي هناك، وقالت: «ثَمة سيدة تعيش بالقرب منكِ — أعتقد أنها تُدعى السيدة بلينهام — أعتقد أن ظروفها المعيشية سيئة للغاية، ولكنها تُخفي فقرها مُراعاةً للأيام التي كانت فيها في حالٍ أفضل. أتمنى أن تكتشفي الوضع الحقيقي لحالتها؛ لعلكِ تستطيعين تولِّي أمر ذلك على نحوٍ أفضل مني بكثير.»

لقد تولَّيت الأمر فعلًا، وكان من دواعي سروري وأملي أن أرى الآنسة شيدلي تقوم بأفضل ما يمكن لامرأة فعله، وهو القيام بعملٍ خيري واجب.

كنت قد عرفت سابقًا من مدبرة المنزل أن الآنسة شيدلي كانت تقضي كل وقتها تقريبًا في رعاية المحتاجين وأطفال الأبرشية.

بصراحة، بدا لي أن آل شيدلي هم أفضل من قابلت على الإطلاق.

وكنت أنا من سيدمِّر هذا المنزل!

بحلول نهاية الأسبوع سئمت من عملي، وربما أعترف — دون أن أكون عاطفية — أنني كنت قد اتخذت قرارًا بألا أجني أي مال منه سوى نفقاتي القانونية، وهو مقابل ما أنفقته، لا أكثر ولا أقل. كان هذا هو ما عزمت عليه فيما يخص المسائل المالية، وهو ما كنت أنوي أن أكون حازمة فيه عندما أتعامل مع السير ناثانيال. أؤكد لكم أننا نحن المحققين قادرون على أن يكون لنا ضمائر، وعلى التصرف طبقًا للمبادئ والشرف.

في نهاية ذلك الأسبوع كنت قد وضعت خُططي، وغادرت منزل آل شيرلي يعتريني شيء من الحزن، وأنا أعلم جيدًا أنه في المرة التالية التي سأدخل فيها هذا المكان، سأدخله بشخصيتي الحقيقية.

في غضون ست ساعات من إلقائي تحية المساء على الآنسة شيدلي، كنت قد وصلت إلى برايتون وبصحبة السير ناثانيال شيرلي.

كنت قد بعثت برسالةٍ مفادها أن سيدةً اسمها جلادن (وهو الاسم الذي أنتحله كثيرًا أثناء عملي) ترغب في رؤيته، ويتعين عليَّ القول بأن الرد الذي سمعته يقوله كي يُبلَّغ لي لم يكن مُرحِّبًا بالمرة.

لم أكن مُرتبِكة بالطبع.

بعثت له ببطاقةٍ كنت قد كتبت عليها: «أمرٌ متعلق بآل شيرلي.»

سمعته وهو يقول: «قل لها أن تصعد.»

وهو ما فعلته.

لم أحبه من اللحظة التي رأيته فيها. كان مظهره الخارجي يدل على أنه رجلٌ نبيل بلا أدنى شك، ولكنه كان ينتمي إلى نوع من الرجال يمكنني التعرف عليه في لمح البصر؛ النوع الذي لا يقول أي شيء فظٍّ أمامك أبدًا، وبداخله — سواء أمامك أو خلف ظهرك — لا يفكر في أي شيء لطيف أيضًا.

الأنانية! هذا ما يمكنك أن تراه في كل قسَماته؛ أنانية مهذَّبة بلا شك، ومع ذلك فهذا التهذيب لا ينفي كَوْنه جشعًا تمامًا. لا يحتاج بعض الناس إلا إلى بذل جهد قليل جدًّا للتصرف بتحضُّر بدلًا من التصرف بفظاظة، وعلى النقيض من ذلك، فالعديد من الرجال الذين يتكلمون بفظاظةٍ يكونون رقيقي القلب كامرأةٍ طيبة.

«ماذا تريدين؟» هكذا قال بنبرةٍ مُتحضرة وأنا أدخل الغرفة، ولكنه لم يكن ينظر نحوي.

قلت بأكثر نبرة متحضرة ممكنة وأنا أغلق الباب: «أريد رؤيتك.»

نظر إليَّ بسرعة. كان يُعاني من حالة اهتزاز العين التي تجعل صاحبها غير قادر على النظر إلى أي شيء أو أي شخص لمدة خمس ثوانٍ فحسب. كثيرًا ما كنت أتساءل إن كان بوسع أولئك الناس أن ينظروا بثبات حتى إلى انعكاساتهم في المرآة.

«عفوًا، من أنتِ؟»

قلت: «أنا محققة.»

رأيته ينكمش على نحوٍ ملحوظ في مقعده. على الرغم من كَوْني امرأة، فإنني أعتقد أنه ظن أنني رجلٌ مُتنكر في زي امرأة.

استعاد طبيعته سريعًا، ولكنني لاحظت أن الجلد حول شفتَيه تحوَّل إلى اللون الأسود، وأن لون شفتَيه تحوَّل إلى لونٍ أبيض عكِر.

«صحيح؟» هكذا قال، وعندما شرع في الحديث كان كلامه ينمُّ عن أنه قد استعاد هدوءه تمامًا.

هل قلت لكم إنه كان في حوالَي الخمسين من عمره؟ لقد كان قريبًا من هذا العمر. كان شعره خفيفًا، وفي طور الشيب، ولكنه صفَّفه على جبهته بأناقة وجعَّده على نحوٍ مثالي. كان يرتدي ثيابًا كثياب الشباب اليافعين، وكانت ملابسه على أحدث صيحات الموضة.

قلت: «جئت لأقدِّم لك بعض المعلومات.»

«تابعي الحديث.»

«عندما تُوفِّيت السيدة شيدلي تركت ابنة.»

«تابعي.»

كنت أعرف من نبرة كلامه، على الرغم من أنه قاله بأدبٍ جم، أنه كان قد أصابه الملل بالفعل.

أردفت قائلةً: «على الأقل، من المفترض أنها ماتت وتركت ابنة.»

كان على وشك أن يهمَّ بالكلام، ولكنه فكَّر جيدًا وعدل عن ذلك وظل صامتًا، ومع ذلك لاحظت أن اللون الداكن حول شفتَيه قد ازداد.

تابعت قائلةً: «ولكنها في الواقع لم تترك ابنة.»

عندئذٍ كان قد تغلَّب على انفعاله، وأنا على استعداد لأن أصرِّح بأن مشاعره لم تخُنه أبدًا على مدى باقي المقابلة، ولكنني لم أتمكن أبدًا من حسم ما إن كانت تلك القسوة ناتجة عن مرض أو عن إصرار.

سألني قائلًا: «ما الذي تركته؟»

«لم تترك أي أطفال.»

«أوه! إذن هل تقصدين القول إن ممتلكات آل شيرلي ملكي؟»

«أجل.»

استدار في كرسيه ونظر إليَّ بتمعُّن. رأيت أنه كان معتادًا على مثل هذه المعارك، وهي التي أعطته الخبرة في تحقيق الانتصارات.

«وهل تعرفين كل شيء عن هذه المسألة؟»

«أجل، أعرف كل شيء.»

«لماذا أتيت إليَّ؟»

«لأنك الشخص الذي لا بد أن آتي إليه.»

«لماذا لم تذهبي إليهم؟»

سألته: «من تقصد؟»

أجاب: «آل شيدلي.»

كانت إجابتي هي: «لقد غادرت منزل آل شيرلي لتوِّي.»

أضاف، وهو يعود ليجلس في كرسيه كما كان: «هذا ما ظننته.» وعلى الرغم من أن هذه الإجابة قد تبدو قاسية، يمكنني أن أؤكد للقارئ أنه قالها بألطف نبرة ممكنة.

تابعت قائلةً: «عجبًا، كيف كنت سأعرف تفاصيل هذه المسألة دون الذهاب إلى المنزل؟»

سأل بتهذيبٍ بالغ: «كم المبلغ؟»

«المبلغ؟»

تابع قائلًا: «أجل، كم المبلغ؟ أظن يا عزيزتي — إذ إنني أوافق على ما تقولينه، وأقبل تمامًا أنك محققة — أنك ستحقِّقين مكسبك مني ومن آل شيدلي. لقد ذهبتِ إليهم، والآن تأتين إليَّ. كم تريدين؟ أظن أنه يمكننا الاتفاق. أعتقد أنك تريدينه مكتوبًا، أليس كذلك؟»

«هل تقصد يا سير ناثانيال، ما هي المكافأة التي أنتظرها لقاء المعلومات؟»

«بالضبط يا عزيزتي، كم تريدين؟ وأخبريني على الفور. أظن أنه يتعين أن أدفع أكثر من آل شيدلي إذا كانت الأخبار التي تقولينها صحيحة.»

أجبت قائلةً: «أستميحك عذرًا، ولكن آل شيدلي لا يعرفون أي شيء على الإطلاق عن هذا الاكتشاف الذي قمت به، وقد أتيت إليك على الفور. لم أعرف حقيقة هذه المسألة إلا منذ أقل من أسبوعين.»

وقد كانت هذه هي الحقيقة تمامًا.

«أوه! فهمت؛ ستذهبين إليهم بعدما تتركينني. أنا لا ألومك، بل أنا مُعجَب بك في الواقع. إنك امرأةٌ ذكية وحاسمة، إذا كنت تستطيعين الاستمرار في هذا الأمر. هيَّا، أيًّا كان المبلغ الذي سيقدِّمونه لكِ لإخفاء هذا الاكتشاف، فسأدفع لك ضعفه لتُظهريه بأكبر وضوح ممكن ضدهم. ما قولك؟»

قلت: «معذرةً»، ولا بد أن أعترف أنني شعرت فعلًا وكأنني أود الخروج لاستنشاق هواء البحر المنعش مرةً أخرى، «ولكن لا يهمني كسب المال من هذا العمل.»

استدار ونظر لي دون أي انفعال، بل ارتسم على وجهه تعبيرٌ يعني بكل وضوح: «هل هي حمقاء، أم أنها تخدعني؟»

قلت: «كل ما سأطلبه هو استعادة الأموال التي أنفقتها، ومقابل وقتي بالراتب العادي الذي أتلقَّاه من الحكومة.»

أجاب قائلًا: «ها! تمامًا» — تغيَّر تعبير وجهه في اللحظة التي بدأت فيها الحديث عن استعادة المبالغ التي دفعتها — «لا بد أن تستعيدي الأموال التي أنفقتِها، مع الفائدة. لكن أولًا، يا عزيزتي، أثبتي لي أنك تتحدثين حديثًا معقولًا حقًّا.»

قلت: «لا بد أن أخوض في تفاصيل طويلة.»

نظر نحوي بهدوء، ثم قال:

«ربما لن تُمانعي كثيرًا إن دخَّنت، أليس كذلك؟»

أجبت: «لا.» وأنا ما زِلت أتمنى من كل قلبي أن أجد نفسي في الهواء الطَّلق؛ لأنني أتذكر أن فكرةً صادمة قد وانتني في ذلك الوقت، وهي أنني كنت أتحدث إلى كائن ليس حيًّا ولا ميتًا، إلى نوع من الرجال لا يصلح للقبر ولا العالم. لا أظن أنني صادفت من قبلُ إنسانًا بهذا القدر من انعدام الإحساس.

ومع ذلك، فقد كان عملي أن أخبره عن ثروته الكبيرة، هذا إذا لم تكن كل أنواع الثروة لا يختلف بعضها عن بعض له.

بدأت أحكي القضية تمامًا كما حدثت لي، بدايةً من فليمبس سائق عربة الأجرة، حتى وصلت إلى نقطة الذروة وهي الدليل الذي قدَّمه طالب الطب جورج جيفينز.

لم يُقاطعني إلا ليسأل عن عنوان كل من سائق عربة الأجرة والطالب. بعدما دوَّن العنوانين قال: «أجل!» ثم صمت وعاد ساكنًا تمامًا.

قلت أخيرًا: «والآن أنت تعرف قدر ما أعرف.»

وأنا مستعدة للاعتراف بأنني كنت قد سئمت من هذا الرجل. أخشى أنني شعرت بهذا النوع من خيبة الأمل والغضب الممزوج بالعار الذي سيشعر به أي رجل عندما يُقابَل عرضه بالزواج من امرأة بتحديق خالٍ من التعبير.

«أعتقد أنني لن أستطيع فعل أي شيء حتى يوم الاثنين، أليس كذلك؟»

«ماذا؟» هكذا سألته.

لنتذكر أننا كنا في وقتٍ متأخر من ليلة السبت.

«لا شيء حتى يوم الاثنين؟»

أجبت قائلةً: «هل لي أن أسأل يا سير ناثانيال عما تنوي فعله يوم الاثنين؟»

«أوه، أعتقد أنني سأضعهم في السجن.»

سألته: «السجن؟»

«بالتأكيد، هل ثَمة شيءٌ آخر يتعين فِعله؟ لقد كانوا يسرقونني طيلة خمس سنوات، ويستحق هؤلاء الناس العقاب. ما الذي يمكنني فعله غير وضعهم في السجن؟»

غنيٌّ عن القول أنه للحظةٍ كان من الصعب عليَّ العثور على أي رد، ثم قلت أخيرًا:

«لا، إن آل شيدلي لم يسرقوك يا سير ناثانيال؛ لأنك تتذكر أنني أخبرتك بأن السيد شيدلي لم يمسَّ قرشًا من الدخل الذي تجلبه أملاك آل شيرلي.»

«ولكنني لا أعرف ذلك. من الأفضل كثيرًا وضعهم في السجن أيتها المحققة، ونرى ما الذي سيؤدي إليه ذلك.»

أعترف أنني لم أكن أتوقع أبدًا سلوكًا قريبًا من مثل هذا السلوك الهادئ المنعدم الرحمة الذي يُشبِه سلوك القيام بالأعمال التجارية. كنت قد خططت عشرات الطُّرق للعمل على حل هذه المسألة خلال الأسبوع، وكل يوم كنت أجد فيه طريقةً أكثر مُراعاة من سابقاتها حتى انقضى الأسبوع، ولكن لم تقترب أيٌّ من هذه الطُّرق لفكرة وضع السيد والسيدة شيدلي في السجن.

أجبت قائلةً: «لا أظن أنني سأفعل ذلك يا سير ناثانيال؛ من الأفضل أن تفكر في الأمر مليًّا.»

قال البارون: «لا يمكنني رؤية ما يدعو للتفكير مليًّا فيه. لقد سرقوني؛ ولذلك فالشيء الوحيد الذي يجب فعله هو وضعهم في السجن.»

أجبت قائلةً: «من الأفضل أن تؤجل قرارك للغد يا سيدي. سأراك صباح يوم الاثنين، إذا سمحت لي.»

سأل قائلًا: «ولماذا ليس غدًا؟ لمَ لا نذهب غدًا ونضعهما قيد الاعتقال؟ هذا ما سأفعله بكل تأكيد.»

قلت: «شكرًا لك يا سير ناثانيال»، وأظن أنني تحدَّثت بقليل من الاستياء، «لا يهمني فعل أي شيء سوى الراحة غدًا، وأنا متأكدة تمامًا أنها ليست مسألةً مُلحَّة للغاية.»

«سرقتهم لي ليست مسألةً مُلحَّة؟ ما هذا الهراء الذي تقولينه يا عزيزتي. حسنًا، يوم الاثنين إذا كان هذا ما تريديه»، هكذا قال بعدما ذهب إلى النافذة ونظر إلى الليل، ثم أردف قائلًا، «سيكون الأمر على ما يُرام غدًا، وربما يمكنني قضاء الغد هنا في المنزل أيضًا. ليلة سعيدة أيتها المحققة.»

«ليلة سعيدة.»

«ولكن انتظري يا سيدتي؛ فأنتِ لم تعطيني عنوانكِ بعد.»

أعطيته بطاقة، ولكنني لم أنبس ببنت شفة. أعتقد أنني كنت قد بدأت بتخيُّل شجار معه في عقلي.

«هذه هي بطاقتك الصحيحة، كما أظن يا سيدتي، أليس كذلك؟»

«بالطبع، إنها كذلك!»

«إنك لا تخدعينني يا عزيزتي، أليس كذلك؟!»

«لا؛ ما الذي سأجنيه من خداعك؟»

بدا أن هذه الإجابة كانت مُرضية له.

«أين تمكثين في برايتون أيتها المحققة؟»

أعطيته اسم نُزُل عام صغير في البلدة كنت قد مكثت فيه للراحة في عدة مناسبات.

قلت وأنا أتجه نحو الباب: «ليلة سعيدة.»

أظن أن شيئًا ما في نبرتي أيقظ حواسه المتبلِّدة.

فقال: «إذا كنت تريدين أي مال أو شيئًا من هذا القبيل، فيمكنني إعطاؤك بعضًا منه.» تمكَّنت عندئذٍ من أن ألاحظ أكثر التعبيرات إيجابيةً الذي كنت قد رأيته حتى ذلك الحين مرتسمًا على وجهه، «أنا لست رجلًا ثريًّا، يمكنك أن تتدبري أمرك حتى الغد بـ...»

وهنا، ببعض المجهود الذي ينمُّ عن إرادةٍ بطيئة أخرج من كيس نقوده نصف سوفرن ذهبي.

كنت قد أحضرت له أخبارًا من شأنها أن تملأ جيوبه ببضعة آلاف من الجنيهات سنويًّا.

قلت على عجل: «لا، شكرًا لك.» وعندئذٍ غادرت الغرفة.

لم أذهب مباشرة إلى النُّزل الصغير الذي ذكرته.

عبرت صف المتاجر، وبدأت في السير دورانًا حول مسار الجرف.

لمن ساروا في ليلةٍ صيفية تحت ضوء القمر صعودًا على جرف برايتون، بينما تهمس الرياح الخفيفة أثناء مرورها، وتُقبِّل أمواج البحر الناعمة الألواح الخشبية التي تهتزُّ بصخب بالأسفل، لست بحاجة إلى أن أقول كم زادت كل هذه الأصوات الطبيعية الناعمة من الألم النفسي الذي كنت أعانيه، وفي الوقت نفسه من حزني.

لم يكن قد تفوَّه بكلمة شكر؛ لم يكن قد أظهر أي امتنان للثروة الكبيرة التي سيحظى بها. لاحِظوا أن غروري لم يُجرَح لعدم تعبيره لي عن أي امتنان، ولكن ما آلمني أنه لم يُظهِر أي امتنان على الإطلاق. لقد جاءته ثروةٌ كبيرة، واعتبرها حقًّا له. أعلم أنني لا يمكنني تجنُّب الربط بينه وبين قرد بعينه كنت قد رأيته في حديقة الحيوان. وقف هذا الحيوان — وراقبته لمدة ساعة خلال إجازتي تلك — ساكنًا ويده ممدودة، دون أن يبدو أنه يفكر فيما كان يفعله، وعندما كان أي شيء يوضع في راحة يده كان يغلق أصابعه عليه، ويدسُّه في فمه، دون النظر إلى من أعطاها له، أو محاولة معرفة أي شيء عن كُنْه هذه العطيَّة؛ ثم يُنزِل يديه ويمدُّها للخارج مرةً أخرى من بين قضبان قفصه. كان يأخذ أي شيء يقدَّم إليه، ولكن هل يمكننا مطالبته بما هو أكثر من ذلك؟

لقد قمت بواجبي كمحققةٍ نزيهة، وكنت أشعر بالأسف لإتمامي هذا العمل، ولا أمانع بالاعتراف بهذا بما أنني تركت العمل حاليًّا.

دعوني أضيف عند هذه النقطة، بما أنني قلت إنني قد توقَّفت عن ممارسة مهنة التحقيقات، إنني لم أعتمد في تقاعدي على المال الذي جنَيته من تلك المهنة. كان لديَّ دخلٌ صغير قد تُرِك لي، وهو ما أتمتع به الآن بالطبع؛ فالمحققون نادرًا ما يجمعون ثروات.

عندما وصلت إلى النُّزل الصغير الذي سبق أن أشرت إليه مرتين، أجريت استفسارات تتعلق بالسير ناثانيال شيرلي، ولست بحاجة لقول إنني لم أسمع أي شيء جيد عنه، ولكنني أؤكد أنني لم أكتشف أي سوءة واضحة تتعلق به، إلا أن الناس تحدَّثوا عنه بنوع من التحفظ، كما لو أنهم كانوا ضائعين بين حس العدالة لديهم من ناحية، وبُغضهم له من ناحيةٍ أخرى. ولكن ما تأكَّدت منه فعلًا كان ينطبق على هذا الرجل بلا أدنى شك؛ كان

لديه دخلٌ جيد، ولكنه نادرًا ما كان بلا ديون؛ وهو ما يمكنني تفهُّمه. لم يستطع منع نفسه أبدًا من العيش كالنبلاء. ومع أنه كان يُنفِق كل دخله لم يكن بوسع أحد أن يُنكر عليه ذلك. لقد كان دائمًا ما يحصل على حقه من أمواله، والانطباع الذي تركه على ما يبدو أنه نادرًا ما خسِر في لعبة الحياة. مما لا شك فيه، مما سمعته، أنه دائمًا ما كان يجبر على دفع الكثير؛ إذ كان عليه الدفع مسبقًا للحصول على مُتَعه، ولكنه كان يحصل عليها. لم يستطع أحدٌ أن يقول كلامًا طيبًا عنه، ولكن في الوقت نفسه لم أجد شاهدًا واحدًا يمكنه الحكم عليه بحكمٍ سيئ صريح.

أنا معتادةٌ على الاستغراق في النوم بمجرد خلودي إلى الفراش؛ وهذا لأن صحتي جيدة، ولأنني، كما يقول الناس، صادقة وضميري حي، ولكن في تلك الليلة لم أتمكن من النوم على الفور.

لقد أبقتني فكرة ذهاب السير ناثانيال إلى المدينة واعتقال الأخ والأخت، بطريقة الآلات العديمة الشعور هذه، مستيقظةً بلا أمل في النوم. شعرت بأنه لم يكن ثَمة فائدة من مخاطبة جانبه الرحيم؛ فلو كان ذلك ممكنًا لكان من الممكن أن أقنع المِطرقة البخارية في حوض وولويتش لبناء السفن بذلك.

لقد كان كابوسًا بحد ذاته أن أتخيَّل السيد شيدلي وهو يُقتاد بعيدًا عن جهده النبيل في محاولة جعل الأرض الوفيرة أكثر خصبًا ووفرة، وأن أتصوَّر أن الآنسة شيدلي ستفترق عن الفقراء الذين ترعاهم، وستُسلب منها حياتها كسيدةٍ نبيلة لتقبع سجينةً في زنزانة.

ما الذي كان يتعين عليَّ فِعله؟

ولم يغمض لي جفن إلا عندما كنت قد قرَّرت تمامًا ما الذي يتعين عليَّ فعله. عقدت العزم على أن أستقل أول قطار في الصباح، وأن أذهب سريعًا إلى منزل آل شيرلي؛ كي أحذِّرهم وأنقذهم. لم يكن هذا العمل يشكِّل خرقًا لواجبي. كان عملي هو أن يحصل السير ناثانيال على ميراثه، وليس معاقبة السيد شيدلي وأخته.

استيقظت مبكرًا، مع أنني كنت قد نِلت قسطًا قليلًا من النوم، واستيقظت وأنا أفكر في السجن ثانيةً، وكنت أشعر بعبءٍ كبير يُثقِل كاهلي، ووصلت إلى المحطة، وقبل الساعة الحادية عشرة كنت في لندن.

استقللت عربة أجرة، ووصلت إلى الحي الذي كان فيه منزل آل شيرلي، وهناك جابهت لأول مرة الصعوبةَ الهائلة التي كان عليَّ مواجَهتها.

رأيتها وهي تغادر الكنيسة. كانت تحمل في يدها كتاب صلوات أسود وعاديًّا للغاية، وبينما كانت تخرج إلى الرواق الأمامي ارتسمت ابتسامةٌ عريضة على وجهها وهي تُخاطبني أولًا، ثم وهي تُخاطب واحدةً أخرى ممن رأتهم.

كانت واحدة من أبسط السيدات اللاتي عرفتهن، وأقلهن تكلفًا.

رأتني، وأشارت برأسها.

وبينما كانت تفعل ذلك أتت سيدة ومسَّت ذراعها.

ولكن كان من الضروري للغاية أن أحذِّرها، فذهبت إليها وقلت:

«هل يمكنني التحدث معك يا آنسة شيدلي؟»

أجابت بصدقٍ شديد: «بالتأكيد.»

«أعني في المنزل.»

«أوه، تعالَي وقتما تشائين.»

«هل يمكنني المجيء الآن؟»

نظرت إليَّ بشيء من الاهتمام الذي لاحظته، ثم قالت مبتسمةً: «ألا يمكننا فعل ذلك غدًا؟»

أجبت: «نعم.» ومن الواضح أنني كنت أتحدَّث بحزن؛ لأن وجهها صار شاحبًا قليلًا.

قالت: «تعالَي في الثالثة، لن أكون مشغولة كثيرًا.»

انحنيت، وكنت قد بدأت أسير متراجعةً خلفها، عندما استدارت بسرعة، وقالت بشيء من الحدة التي لاحظتها:

«هل ثَمة خَطبٌ ما؟»

قلت مبتسمةً: «ليس شيء لا يمكن إصلاحه.» إذ ارتأيت أنه لن يفيد أن أبعث فيها القلق.

ولكن بين ذلك الوقت والساعة الثالثة كنت قد اكتشفت سببًا جديدًا للقلق. وجدت أنه بالرجوع إلى كتاب «دليل برادشو للقطارات» الخاص بي (وهو كتاب لا تخلو مكتبة أي محقق منه) أن قطارًا سريعًا غادر برايتون مباشرةً بعد ميعاد الكنيسة. ماذا لو أرسل السير ناثانيال في طلبي على عنوان برايتون الذي كنت قد أعطيته له؟ وماذا لو أنه بعدما وجد أنني قد رحلت، استقلَّ هذا القطار السريع وهرع إلى منزل آل شيرلي بصحبة شرطي؟

كنت متأكدةً من أنه كان قادرًا تمامًا على فعل شيء كهذا، ولكنني كنت آمل من ناحيةٍ أخرى أن طبيعته الكسولة واعتقاده المعيب بأنني سأكسب منه أكثر مما سأخسر، سيدفعانه إلى الامتناع عن السؤال عني.

ولكنه لو استقل بالفعل قطار الساعة الواحدة مساءً، فمن الممكن تمامًا أن يصل إلى منزل آل شيرلي بحلول الثالثة عصرًا؛ أي بعد ساعة من موعد الغداء، وهو الميعاد الذي حدَّدته لي الآنسة شيدلي لمقابلتها. وأودُّ هنا الإشارة إلى أن أنه لا بد أن هذه السيدة كانت تتمتع بلطف ومراعاةٍ استثنائيين جعلاها تستجيب لطلبي وهي بالكاد تعرفني، وأن تُوافق على رؤيتي في ذلك اليوم الذي تكرِّس تلك السيدات معظمه للاهتمام بالفقراء بصورةٍ سرية ودون مقاطعة.

لم يمرَّ الوقت بين الساعة الواحدة والساعة الثالثة على نحوٍ لطيف جدًّا.

في تمام الثالثة كنت واقفة على عتبة باب منزل آل شيرلي.

أعترف أنني كنت أشعر بالخجل من العمل الذي كنت أضطلع به.

عندما اقتربت من الغرفة التي كنت أعلم أنه لا بد أنني سأجدها فيها، أُقرُّ بأنني كنت خائفة من أن أتبع الخادم، وعندما دخلت الغرفة وغادر الخادم، وقالت «أخبريني يا عزيزتي، ما هو الشيء المهم الذي لا يمكن تأجيله للغد؟» لم يكن لديَّ القدرة على الإجابة لبضع لحظات.

قلت: «أخشى أنك لن تسعدي كثيرًا لما سأقوله.»

قالت بابتسامةٍ لطيفة ورقيقة: «أخبريني.»

«لقد عرفت سرًّا عن حياتك بالصدفة منذ أسبوعين.»

«سرًّا عن حياتي؟!» هكذا قالت بعد برهة قصيرة من الصمت كانت مترددةً خلالها، ومن الواضح أنها كانت تحاول أن تبعث الطمأنينة في نفسها، ومع ذلك شحب وجهها عندئذٍ.

فكَّرت في نفسي: «يا لها من مسكينة! من الواضح أن لديها سرًّا واحدًا عظيمًا، وهو في الواقع لم يعُد كذلك.»

أجبت قائلةً: «أجل، ويجب أن أتحدَّث إليكِ بشأنه.»

في تلك اللحظة اعتراها شعور بالقليل من الكبرياء الذي زاد من ثقتها، ومع ذلك قالت بهدوء ولطف شديدين:

«يجب؟»

كرَّرت قائلةً: «أجل، يجب.»

تابعت حديثها بصوتٍ مرتفع قليلًا: «عفوًا، من أنتِ كي تخاطبيني وتقولي لي كلمة «يجب» هذه؟»

«أنا محققة.» هكذا أجبت مستخدمةً العبارة التي كنت أنطق بها عادةً عندما لا تعود السرية ضرورية.

قالت: «محققة؟» وكان من الواضح أنها لا تعرف كُنْه هذه المهنة الشرطية، ولكن يبدو أن تخمينها كان صحيحًا تمامًا.

«أجل، أحد أفراد الشرطة السرية.»

جفلت، وتمتمت بشيء لنفسها. لم تصرخ أو تصيح خوفًا. وفي الواقع تؤكد لي خبرتي الطويلة أنه في معظم الحالات التي يُفاجأ فيها الناس بشيءٍ مُباغت ورهيب، تكون الصدمة كبيرة لدرجةٍ تجعلهم لا يعبِّرون عن مشاعر صدمة واضحة عندما يتلقَّون الخبر. يبدو أن الصدمة تصعق الناس وتُصيبهم بالذهول، بدلًا من ألَّا تُثيرهم.

بعد لحظات قليلة أصبحت هادئةً نسبيًّا.

قالت: «ماذا تريدين؟»

أجبت: «في الواقع، أن أُنقذكِ.»

«من ماذا؟»

«من عواقب واجبي المهني.»

نظرت إليَّ باهتمام، ثم ابتسمت أخيرًا.

قالت: «هذا صحيح، عليكِ واجب لتؤديه مثل الآخرين. ما معنى هذه المحادثة؟»

«معناها يا آنسة شيدلي أنني أعلم أن الفتاة الصغيرة الموجودة في هذا المنزل ليست ابنة السيد شيدلي.»

كانت تظن أنها كانت قد هيَّأت نفسها للأسوأ، ولكنها لم تكن قد فعلت.

ارتعدت وأطلقت صرخةً قصيرةً حادَّة أثَّرت فيَّ بشدة.

قلت: «لا يمكن أن يكون ثَمة شك في ذلك.» رغبةً مني في منعها من محاولة الجدال معي حول معلوماتي، أردفتُ قائلةً: «لقد أشار سائق عربة الأجرة الذي حصُلتِ منه على الفتاة الصغيرة إلى المكان الذي قابلكِ فيه ووضع الطفلة بين ذراعيك. أرجوكِ لا تظني أن القضية لا يمكن إثباتها. لقد مات الطبيب، دكتور إلكينز، ولكنه قال ما يكفي للمتدرِّب الذي كان لديه، والذي قابلته بنفسي، وهو ما يُظهِر أن السيدة الراحلة لا يمكن أن تكون والدة الفتاة الصغيرة التي تحمل اسمها. تجنَّبي أي إجراءات قد تكون مروعة. لا أعرف ما سيحدث، إن أنكرتِ كل شيء، ولكن سيكون من الممكن تقديم رفات السيدة شيدلي دليلًا ضدك.»

صدمها هذا الكلام صدمةً لا تُوصَف، وهو ما كنت أقصده جزئيًّا.

«من المؤكَّد أنهم لن يعبثوا بقبر أختي المسكينة ويُهينوها، أليس كذلك؟»

«في الواقع أنتِ مخطئة؛ فالقانون لا يعرف الشفقة عندما تكون الحقيقة محل شك.»

«ولكن، ولكن ماذا تريدين مني أن أفعل؟»

«اعترفي بكل شيء للسير ناثانيال.»

«السير ناثانيال، هل تعرفينه؟»

حينئذٍ كانت قلِقةً حقًّا، لكنها لم تُبدِ أي انفعال جامح، مثل الذي أعتقد أنه قد يفترض معظم الناس أنها كانت ستُبديه.

«كان آخر لقاء جمع بيننا البارحة فحسب!»

ساد على وجهها تعبيرٌ خاوٍ ومُميت، أو بالأحرى لا تعبير.

قالت: «إذن فقد ضاع كل شيء بالفعل.»

أجبت: «لا، ليس بعد.»

«هل هو من أرسلك، يا امرأة؟» قالتها بنبرةٍ مُنتحبة مُتحدية، إن كان من الممكن فهم ذلك الوصف.

أجبت: «لا، بالتأكيد؛ فقد جئت بمحض إرادتي لأحذِّركِ من السير ناثانيال.»

«ولكنك أتيتِ من عنده مؤخرًا.» ثم التقطت أنفاسها، مثل الغريق الذي يعتريه الأمل عندما يرى ظل وجهه على صفحة الماء، وتابعت قائلةً: «ربما لا يعرف كل شيء عن الأمر، أليس كذلك؟»

أجبت بأسف قائلةً: «بل يعلم كل شيء، حتى عناوين الناس اللازمين لإثبات قضيته.»

«وهل أنتِ من زوَّدتِه بهذه القدرة؟»

«أجل. يؤسفني القول إنني كنت مُجبَرة على فعل ذلك.»

«يا إلهي، يا امرأة، يا امرأة! ليتكِ تعلمين ما فعلتِه.»

«لقد فعلت ما كان من العدل فعله.»

قالت: «لقد فعلتِ شيئًا رهيبًا. إن السير ناثانيال لن يرحمني، ولا بد أن أتحمَّل عواقب ذلك، لا بد لي وحدي أن أتحمَّلها.»

قلت: «أليس من الأفضل أن يعلم السيد شيدلي؟»

«يعلم؟ يعلم ماذا؟»

«أن عملية الاحتيال قد كُشفت.»

«إنه يظن أن الطفلة من صُلبه، يا امرأة.»

«ماذا؟! ألم يكن يعلم أي شيء عن الحقيقة؟»

«لا شيء؛ لقد مُورِس عليه الخداع شفقةً عليه، والآن تأتين أنتِ، بعد أربع سنوات من السلام؛ إن هذا قد يقتله.»

قلت بأسًى: «ولكن، تذكَّري أنكِ حرمت السير ناثانيال شيرلي من ممتلكاته.»

ردَّدت: «السير ناثانيال، السير ناثانيال. لقد كان من الأفضل له ألَّا يكون غنيًّا أبدًا، وكان من الأفضل له لو أن ما تم كان قد تم جيدًا.»

هززت رأسي؛ فقد كنت أعرف أن الحق أحق أن يُتَّبع، وأن الممتلكات بموجب القانون من حق السير.

صرخت وهي تضرب الأرض بقدمها اليمنى: «السير ناثانيال»؛ عندئذٍ كان كل خوفها على نفسها قد زال، «لو أن السير ناثانيال كان قد حصل على الممتلكات كان سيصبح حينئذٍ مُتسولًا، في حين أنه كان دائمًا سيحصل على كل ما يحتاجه لو لم تعرفي سري. الآن سيأخذ الضِّياع، ولكن إذا كان ممكنًا أخذ رأي المالكة الراحلة، زوجة أخي، أعرف أنها كانت ستحتفظ بكل هكتار بائس ورثته من عمها. أوه، يا امرأة! ليت كان بوسعكِ فقط فهم ما سبَّبتِه من أذًى!»

قلت: «سيكون ضميري مُرتاحًا يا آنسة شيدلي، مهما حدث، ولكنه سيرتاح أكثر إن سمحتِ لي، أنا من جلبت لكِ الخراب، إن سمحتِ لي بإنقاذكِ. إنني أخشى من السير ناثانيال؛ فهو يبدو عديم الرحمة.»

أجابت قائلةً: «اسمعيني أولًا. قبل أن تتحدثي مرةً أخرى ستسمعين عذري على ما فعلته، اسمعيني ولا تتكلمي قبل أن أُنهي حديثي. لا أعلم الصدفة الرهيبة التي حدثت وجعلتكِ تعرفين سرًّا كنت أظن أنه قد دُفن في قبر أختي وفي قلبي. لا يمكنني تخيُّل كيف جمعتِ المعلومات وربطت بينها، ولكن بما أنك تعرفين الكثير فسأخبرك بالباقي، وعندما تعرفينه ستتأكدين من أنني أستحق الشفقة بقدر ما أستحق اللوم.»

انحنيت وأنا أشعر كما لو كنت سجينة هذه السيدة المسكينة بدلًا من أن تكون هي سجينتي إلى حدٍّ ما.

«أنتِ تعرفين أن زوجة أخي أنجبت طفلةً ميتة، وتعرفين أنه بما أن هذه الطفلة قد وُلدت ميتة، ففي حال وفاة زوجة أخي لن يتمكن زوجها من التمتع بممتلكاتها مدى الحياة؛ ببساطة لأن الطفلة وُلدت ميتة. لقد كانت هي من زرعت الفكرة في رأسي أولًا. لقد باغتتنا النكبة التي حلَّت بأختي قبل أسابيع مما كنا نتوقَّع، ولم نكن قد اتخذنا أي

استعدادات. عندما علِمت أنه لن يكون بوسعها أن تكون أمًّا، وهو ما استنتجته ولم تعرفه مباشرةً، أعتقد أنه من المؤكَّد أن الخزي الذي شعرت به كان عظيمًا لدرجة أنه أدَّى لوفاتها، كما كان من المؤكَّد أنها كانت تُصلي إلى الرب قبل وفاتها أن يرسل لها طفلًا يخفِّف من معاناة زوجها بعد رحيلها؛ فمنذ اللحظة التي غادرها فيها الطبيب لم تظن أبدًا أنها ستنهض من سريرها مرةً أخرى. وعندما صرخت قائلةً إن العديد من النساء الفقيرات ستسعدن بالعثور على منزل يأوي أطفالهن الضعفاء، عندئذٍ واتتني الفكرة بعدما كنت قد رأيت المرأة والرضيع وهما يمرَّان بالمنزل في حوالَي التاسعة مساءً بينما كنت قريبة من البوابة الجنوبية، وكنت قد تحدَّثت معها. لقد أعطيت تلك المرأة المسكينة بعض النقود، وأشفقت عليها كثيرًا عندما أخبرتني أن طفلتها كانت بالكاد تبلغ من العمر أسبوعين.

ربما لم يكن من حقي أن أتحدَّث مع أختي عن هذه الأم وطفلتها؛ لأنها لم تكن في حالتها الطبيعية على الإطلاق منذ الوقت الذي غادرها فيه الطبيب وحتى لحظة وفاتها؛ ربما لم يكن ينبغي أن أستثير عقلها المُضطرب أصلًا، ولكن ما إن استوعبت ما قلته حتى صرخت باكية بأن الرب قد استجاب لصلواتها، وأمرتني بالذهاب بحثًا عن المرأة. رفضتُ في البداية، ولكنها بدت مصممةً بقوة وكأن شيئًا ما يُلهمها، فوافقت على الذهاب، وذهبت سريعًا من المنزل إلى الطريق في الاتجاه الذي سارت فيه المرأة المسكينة.

وعندما سمعت الطفلة تبكي من داخل عربة الأجرة العمومية البائسة تلك، اعتقدت أنا أيضًا أن السماء قد أشفقت علينا. أعلم الآن كم كنت مُذنِبة؛ كم كنت مذنبة بشدة.

لم أغِب عن المنزل سوى عشرين دقيقة، وسرعان ما عُدتُ وأنا أحمل الطفلة. وعندما دخلت غرفتها وأنا أحمل الرضيعة، وجدت أنها كانت لا تزال بمفردها، مع أنني لم أتخذ أي احتياطات لضمان ذلك. صرخت قائلةً إن السماء كانت طيبة معها، وإن ملاكًا طيبًا هو الذي جلب الطفلة لي.

لم يكن يوجد أي أحد في المنزل ليرى ما فعلته. لقد كان يوم الاحتفالية المدرسية المجانية لجمع التبرعات، وكان كل الخدم، باستثناء واحدة، في «فيلفت ديل» على بعد ثلاثة أميال من المنزل؛ الخادمة الوحيدة التي كانت قد بقيت في البيت كانت موجودة في العملية الجراحية مع الطبيب.

قبل الساعة العاشرة والربع، وهو التوقيت الذي عاد فيه الخدم إلى المنزل — كان قد سُمح لهم بالغياب حتى العاشرة، ولم يكن يوجد أحد يمكن إرساله في طلبهم خلال تلك الساعة والنصف المروِّعة — كانت تُحتضَر في حضور الدكتور إلكينز، الذي بدا شديد الارتباك والحيرة.

حتى في ذلك الوقت كنت أشعر بفداحة الجريمة التي كنتُ قد تورَّطتُ فيها. هذا ما شعرت به بالفعل. حتى في ذلك الوقت كنت أشعر أنني لو عارضت فكرة أختي الجامحة بدلًا من تبنِّيها، لما كانت أمرتني بذلك كما فعلتْ.

قبل وصول الطبيب للمرة الثانية — وفي اللحظة التي عادت فيها خادمتها ومعها الدواء، أرسلتها إلى الطبيب مرةً أخرى، قبل أن يعود الدكتور إلكينز مرةً أخرى، كانت قد أمرتني بأن أُقسِم على أنني لن أقول الحقيقة أبدًا بشأن الطفلة، قائلةً: «لقد أرسلتها السماء، أرسلتها السماء! رغم أنها لم تكن سوى ابنة امرأة فقيرة.»

لقد قالت لي، هكذا تابعت السيدة المسكينة، وهي تنظر إليَّ بتَوقٍ — كانت الساعة الآن الثالثة والنصف، كما رأيت في الساعة الفرنسية الضخمة الموجودة على رف الموقد، بحيث لو كان السير ناثانيال قد استقلَّ قطار الواحدة، فقريبًا ما سيصل إلى منزل آل شيرلي — وتابعت: «لقد قالت لي إن نيوتن سينكسر — نيوتن هو السيد شيدلي — إن فقدها هي وطفلتها معًا، وإنه كان يُسْدي الخير للعالم، وإنه يجب ألَّا يوقف عملَه هذا أيُّ شيء، كما تعلمين.» ثم توقَّفت، وقالت: «لقد تزوَّجت أخي لأنها كانت مُعجَبة بذكائه أكثر من إعجابها به هو نفسه.»

قالت أيضًا إنني يجب أن أُنقذ طفلةً بائسة من العَوَز، وأخيرًا قالت إنها أرادت ألا يحصل عمها على ممتلكاتها؛ وإنه كان شريرًا وفاسدًا، وإن زوجها هو من يتوجَّب أن يحصل عليها ليستخدمها لفعل الخير.

بعد ذلك، عندما سمعت جرس الباب يدقُّ في الردهة، وعرفت أن الطبيب قد عاد، رفعت يدها اليمنى ونظرت إليَّ بحدةٍ، وقالت، «إنني آمُركِ، باسم الرب.»

لم تتحدث بصوتٍ مرتفع مرةً أخرى قط. كانت تهمس فقط لزوجها برسائل، وأمسكت برأس الطبيب بين يديها، وهمست له بشيءٍ جعل الرجل المسكين يرتعد.

ثم ماتت في نفس الوقت الذي عاد فيه الخدم إلى المنزل من الحفل المدرسي الخيري.

كنت أعرف كم كنت مُخطئةً قبل حلول اليوم التالي بوقتٍ طويل، ولكن عندما نظرت إلى وجهها الساكن، يا عزيزتي، لم أتمكَّن من عصيانها، وشعرت أكثر بأنني غير قادرة على معارضة رغباتها الأخيرة عندما همست لي مدبرة المنزل، السيدة دومارتي، أنها كانت تبدو في نومها الأخير كما لو كانت قد أدَّت واجبها.

أعرف كم كان كل شيء شريرًا، ولكن بمرور السنين كنت أتمنى أن كل ما فعلته كان للأفضل. عندما عاد أخي إلى البيت في نهاية هذين اليومين، وجد تعزيةً كبيرة في وجود الطفلة الصغيرة، ولم أستطع أن أخبره أنه كان يذرف دموعًا على طفلةٍ غريبة.

مرضتُ مرضًا شديدًا، يا عزيزتي، بعد الجنازة، وظنوا أن الحزن هو الذي كان قد تغلَّب عليَّ، ولكنني أخشى أنه كان ألم ضميري أكثر من حزني على أختي، رغم أنني متأكدة من أنني أحببتها كثيرًا.

بمُضيِّ السنين اعتقدت أن كل ما فعلته كان للأفضل. كان السير ناثانيال يتلقَّى دخلًا سنويًّا كبيرًا مني؛ فقد ورثت ثروةً كبيرة بعد وفاة السيدة شيدلي بوقتٍ قصير. وقد كتبت وصيتي في صالحه، بحيث لا يصبح فقيرًا أبدًا بسبب ما فعلته، في حين أنه لو كان قد ورث الممتلكات، سرعان ما كان سيهدرها لأنه مُسرِف تمامًا.

الآن أنتِ تعلمين كل شيء. أخبريني أنتِ، يا سيدتي المسكينة، إنك ترغبين في إنقاذي، ولكن كيف تستطيعين ذلك؟»

قبل أن تسألني هذه السيدة الطيبة هذا السؤال المحزن بوقتٍ طويل، كنت قد طأطأت رأسي حزنًا وندمًا.

لا تظنوا أننا، نحن المحققين، لا نتمتع برقة القلوب؛ لأننا مضطرُّون لأن نُقسيها كالحجر في مواجهة الشرور اليومية التي يجب أن نُواجهها. لم يمضِ وقتٌ طويل منذ أن صُدم توم وايت، وهو أحد المحققين في «القسم آر»، لرؤية لص شاب، كان يُلاحقه، يسقط ميتًا عند قدميه. لم يكن توم وايت من هذا النوع من الرجال أبدًا؛ لذا لا بد أن هذا الرجل المسكين كان يتمتع بشيء من رقة القلب.

أعترف بأنني أسِفت على أنني كشفت للسير ناثانيال الأوراق التي كانت بحوزته الآن.

هل كان بإمكاني إنقاذها؟

لقد كنت عازمة على بذل قصارى جهدي.

قالت بشيء من التعب: «حسنًا؟» وسارت نحوي، ووضعت يدها برفق على كتفي.

أعترف بأنني لم أشعر أبدًا بيدٍ تستقر على كتفي بمثل هذا الثقل، مع أن لمستها كانت شديدة الرقة مثل لمسة سيدة مهذَّبة كما لا بد أنها كانت دائمًا.

أجبت قائلةً: «أنا في غاية الأسف.»

أجابت: «لا حاجة للأسف.»

«وفي غاية الخجل.»

«لماذا يا عزيزتي؟ لقد قمتِ بواجبكِ، أيًّا كان ما أغفلتُه.»

قلت: «أفضل أن أكون مكانكِ.»

أعترف أن ردودي هذه كانت عاطفيةً كمحققة. ومع ذلك فأنا أكرِّرها كما قلتها في ذلك الوقت.

ويا للأسف! بينما كنت أتحدَّث أتى صوت رنين مُفاجئ وشرس ومُلِح من جرس البوابة الضخمة.

عندما ألقيتُ نظرةً خاطفة على الساعة الضخمة، ووجدت أنها «الرابعة إلا الربع»، كنت متأكدةً من أن الزائر هو السير ناثانيال شيرلي.

إنه حتى لم يُرسِل بطاقة؛ فقط اسمه، وأنه يرغب في مقابلة السيد أو السيدة شيدلي.

وأضاف الخادم أنه قد رد عليه بأن السيد شيدلي كان بالخارج يتفقَّد الأرض، بينما كانت السيدة شيدلي في المنزل.

قطعًا، شعر السير ناثانيال بأنه كان يتمتع بالفعل بقدرٍ كبير من النفوذ، حتى إنه لم ينتظر الإذن بالصعود إلى الطابق العُلوي.

قال السير وهو يدخل: «يوم سعيد، يا كاثرين. لقد سمعت أنكِ بالمنزل؛ لذا لم أنتظر أن يهبط إليَّ الخادم مرةً أخرى.»

هذا الجبان! كان يخشى أن تحظى بميزةٍ أكبر إذا ما طال الوقت قبل أن يراها.

وبينما كان يتحدث نظر إليَّ كما لو كنت ألدَّ أعدائه. كان بالفعل قد مد يده إليَّ وأخذ ما عرضته دون قول أي شيء (مثل القرد الحلقي الذيل الذي رأيته في حديقة الحيوان)، والآن كان مستعدًّا للزمجرة؛ لأنه كان يفترض أنه لم يكن لديَّ أي شيء آخر لأقدِّمه.

عندما غادر الخادم الغرفة، التفت إليَّ وقال الكلمات الآتية بلهجةٍ لطيفة كما لو كان يسألني عن صحتي.

«ظننتُ أنني لا بد أن أجدكِ هنا أيتها العاهرة!»

«سيدي!» هكذا قلت بتعجبٍ أظن أنه كان مسوَّغًا.

«الآن لن تحصلي مني على أي شيء.» قال بصوتٍ لا يزال ناعمًا، ولكن بأبشع تعبير وجه أتذكَّر أنني لاحظته على الإطلاق.

من المؤكد أنه كان طاغيةً بائسًا، وأنه كان يشكِّل خطورة على أصدقائه (إن كان لديه أي أصدقاء) أكثر من أعدائه.

سأل مُلتفتًا إلى الآنسة شيدلي: «وماذا لديكِ لتقوليه؟»

سألته وكان صوتها ثابتًا على نحوٍ مُدهش تمامًا كمَسلكها: «ماذا لديك أنت؟»

«أنتِ تعرفين ما أتيتُ لأجله.»

قالت بلطفٍ شديد: «أجل.»

قال: «إذن فقد كشفتكِ أخيرًا؟»

كان من الواضح أنه قد تجاوز دوري في المسألة كما لو كنت لا أعرف شيئًا عنها.

هنا نظرتُ إليه — ربما بشيء من الحدة — ثم لاحظت أن السواد حول شفتيه الذي كنت قد لاحظته في الليلة السابقة كان لا يزال أكثر وضوحًا وهو يقف في مواجهة أخت زوج ابنة أخيه، وعلى وجهه أقبح نظرة انتصار يمكن أن ترتسم على وجه بشر.

قاطعتُه في هذا اللحظة قائلةً: «لحظة واحدة!»

«حسنًا؟» قالها بلطف، ولكنه كان ينظر إليَّ وكأنني كلبة من أسوأ أنواع الكلاب.

«لا حاجة لوجودي هنا. سأترك الغرفة.»

«لا لن تفعلي!» قال بجرأةٍ أعتقد أن سببها أنه لم يكن عليه التعامل إلا مع امرأتين.

«حقًّا! احذر، أنت تعلم أنني ضابطة شرطة؛ وإذا أَعَقتني عن تنفيذ واجبي فسيكون ذلك على مسئوليتك الشخصية. أقول إنكما لستما بحاجة لي هنا، وأعتقد أنه من المناسب أن أغادر الغرفة.»

وبينما كنت أتقدَّم نحوه ظهر تغيرٌ آخر على وجهه. لم أكن متأكدة إن كان قد صار أكثر شحوبًا بشكلٍ عام؛ لذا بدت المنطقة حول فمه داكنةً أكثر، أم أن السواد حول شفتَيه قد زاد بالفعل، ولكن الأكيد هو أن تغييرًا ما قد حدث.

وقف في طريقي حتى اقتربت منه، ثم تراجع إلى الوراء كما لو كنت قد لمسته.

غادرت الغرفة، ولكن قبل أن أفعل قلت للآنسة شيدلي: «سأكون بالخارج. إذا ناديتِ عليَّ سأسمعكِ. لا تخافي من هذا الرجل.»

ثم غادرت الغرفة.

لم أعلم ما قيل قط.

كانت الحاجة للدخول إلى الغرفة ناتجةً عن صرخةٍ صادرة عن السيدة شيدلي، وعندها ارتأيت أنه من المناسب أن أهرع إلى الغرفة، حيث وجدت …

ولكن قبل أن أصل إلى ذلك المشهد الأخير في هذه الرواية يجب أن أُطلِع القارئ على بعض الأشياء التي لاحظتها.

عند وصولي إلى الممر خارج الغرفة التي كانت الحرب مندلعةً فيها بين السيدة شيدلي والسير ناثانيال، وجدت نفسي بالقرب من نافذةٍ كنت أعلم بالنظر إليها فقط، كَوْني محققة، أنها لا بد أن تكون على نفس خط نوافذ الغرفة التي تركتها لتوِّي؛ وهذا ببساطة لأنها كانت تطلُّ على نفس المنظر الذي كنت قد لاحظته من قبلُ دون كثير نية في فعل ذلك (إذ تصبح ملاحظة كل شيء أمام المحقق عادةً لديه).

كانت كل هذه النوافذ تطل على المساحة الواسعة أمام المنزل، والتي كانت محاطة بجدار في المقدمة وبوابتَين من الخشب المتين الثقيل. وعلى الرغم من ذلك، كان يوجد بابٌ

صغير في كل بوابة، وكان واحد منهما مفتوحًا، ورأيت من خلاله وجهَي رجلين كانا يحدِّقان من عربة الأجرة، التي لم أتمكن إلا من رؤية قمتها خلف الجدار والبوابتَين.

بالكاد رأيت وجهيهما، وفي ظل هذه الظروف المُعيقة تعرَّفت على أحدهما، وكان شرطيًّا معروفًا لي.

بدون أدنى شك كان الشخص الآخر شرطيًّا أيضًا.

إذن، فهو لم يُظهِر أي رحمة، ولم يكن يسعى إلى الوصول إلى تسوية مع آل شيدلي من خلال مقابلتهم. كَوْنه شخصًا قاسيًا كان قد جلب معه شرطيَّين، وأدركت على الفور أن الوقت اللازم لإحضار الضابطين هو الذي جعله يصل إلى المنزل متأخرًا نصف ساعة. ولاعتقال الآنسة شيدلي في وقتٍ مبكر عن ذلك الذي كان يشرع فيه الآن لإتمام ذلك العمل، كان لا بد أنه يستيقظ في الصباح الباكر؛ وهي شدة لم يستطع، دون شك، أن يُجبر نفسه عليها، رغم أنها كانت ستؤدي إلى التبكير في إبداء قسوته.

كنت أراقب الوجهين من خلال النافذة المفتوحة — فقد كنَّا في نهاية شهر يوليو، وكان الطقس جيدًا — وباب البوابة الصغير، ودون أن يراني أحد لمدة دقيقتين تقريبًا، عندما سمعت الضابط الذي كنت أعرفه يقول:

«ها هو، إنه قادم.»

كان صوته أعلى من الهمس بقليل، ولكن النسيم كان آتيًا في اتجاهي، كما أنني أتمتع بحاسة سمع جيدة وحادَّة بصورةٍ استثنائية. وفي الواقع، أعتقد أنه من المسلَّم به أننا، نحن المحققات، لدينا القدرة على تدريب حواسنا الخمس بحيث تصبح أكثر حدة من منافسينا من الذكور.

من الواضح أنه كان بإمكان الشرطيَّين أن يريا عبر الحدائق، وحول المنزل، بينما لم أتمكن أنا من الرؤية إلا في اتجاهٍ مُعاكس.

ولكن بعد لحظة سمعت صوتًا رفيعًا واضحًا يغنِّي بصوتٍ خفيض ورقيق، وتعرَّفت عليه على الفور؛ لقد كان صوت السيد شيدلي؛ رب المنزل.

لم يتداخل مع صوته سوى صوت حفيف الرياح الخفيفة (وهي تحرِّك أوراق الأشجار وتُحدِث تموجات في سنابل القمح)، وفي الواقع بدت لي دندنته كأنها صوت جوقة عذب.

اقترب من المنزل، فارتفع صوته، ثم سار مُبتعدًا إلى الجانب الآخر، فتلاشى صوته حتى أصبح صوت الريح أعلى من دندنته.

تابعه رجلا الشرطة بأعينهما قدر ما استطاعا، وإذا كنت قد رأيت قطة تتفقد فأرًا فسيمكنك فهم شكل النظرة التي ارتسمت على وجهَي الضابطين بينما كانت فريستهما تنعطف عند زاوية منزله.

أظن أن هذه الأحداث استغرقت حوالَي دقيقتين.

ولكن هذا مجرد تخمين.

فجأةً سُمع صوت صرخة سريعة وحادَّة ومدوِّية.

ثم عم الصمت.

عندما سمعت الضابطين يقفزان من عربة الأجرة ويطآن الحصى بأقدامهما الثقيلة، ركضت إلى الأمام ولم أفتح الباب، بل دفعته.

كان السير ناثانيال يرقد أرضًا على وجهه.

وعلى مسافة ياردتين أو ثلاث منه، كانت الآنسة شيدلي جاثيةً على ركبتيها ويداها متشابكتان بأشد ما يمكن، وهي ملتصقة بالحائط.

يمكنني القول مباشرةً إنه كان قد مات.

بعد ذلك، عندما تمكَّنت السيدة شيدلي من التحدث بهدوء، أخبرتني أنها كانت متأكدة من أنه قد مات وهو يسقط أرضًا. عرفت أن المرض الذي كان يسري في العائلة قد أصابه؛ ذلك المرض القلبي العنيف الذي كان قد قتل شقيقه، وساهم إلى حدٍّ ما في موت ابنة أخيه الراحلة؛ السيدة شيدلي.

قالت إنها رأت على وجهه وهو يسقط نفس ذلك التعبير الذي كانت قد رأته على وجه زوجة أخيها وهي تموت، وعلى وجه والد زوجة أخيها، الذي كانت بجانبه وقت وفاته.

لست بحاجة للقول إن رجلَي الشرطة كانا قد دخلا المنزل مباشرةً قبل دخولي إلى الغرفة، التي دخلاها فور دخول الخدم.

ولكن قبل أن يصلا إلى موكِّلهما الميت، كنت قد توصَّلت إلى سلوكٍ معيَّن أتَّبعه معهما.

كان السير قد مات. حسنًا. إذن فقد عاد كل شيء لما كان عليه قبل أن أخبره بما حدث. وعلى الرغم من ذلك ربما يكون من حظه الجيد أنه مات هكذا؛ لأن مما سمعته لا أظن أنه كان سينتهي به الحال بالموت على فراشه، وإنما على فراشٍ حكومي، لو كان قد عاش لفترةٍ أطول تسمح له بالتصرف بحريةٍ أكبر في مواصلة عيش حياته الشديدة السوء.

كان هذا فقط هو السؤال الذي وقف عقبة في طريقي:

هل كان قد أخبر الشرطة بحقيقة الأمر بالضبط؟

خمنت أنه قد امتنع عن فعل ذلك. كنت متأكدة من أنه كان رجلًا لا يقول أكثر مما يلزم. لم يكن من الضروري إبلاغهم في قسم الشرطة بكل ما كنت قد أخبرته به.

ربما سيُفهَم المسار الذي اتخذته بسرعةٍ أكبر من خلال سرد الكلمات التي استخدمتها.

يمكنكم تخمين أن الضابط الذي كان يعرفني فوجئ إلى حدٍّ كبير عندما وجدني في الغرفة عندما دخلها.

«بلاكمان!» هكذا قلت بعدما جاء الطبيب وأقرَّ بوفاة السير ناثانيال (وهو ما لم يستغرق طويلًا)، وعندما أصبح ثَمة وقت لالتقاط الأنفاس في المنزل مرةً أخرى، «بلاكمان، لماذا جئت إلى هنا بحق السماء؟»

««هو» من أحضرنا.»

كان تأكيده على كلمة «هو» يُثبِت بوضوحٍ أن المتوفى هو المقصود.

«ما الذي قاله؟»

«حسنًا، كان يريد أن يُسجَن أخوه ونسيبته لأنهما سرقاه.»

«أجل، لقد كان مجنونًا.»

امتقع وجه بلاكمان وظهرت عليه أمارات دهشة بالغة.

قال وقد تحوَّل لون وجهه إلى الأحمر أخيرًا: «يا إلهي! كنت أعتقد أنه عميلٌ غريب، وأن المسألة كلها غريبة، ولكني لم أفكر في هذا! بالطبع يا «جي» (هكذا يدعونني في الشرطة)، هل أنتِ هنا لنفس المسألة؟»

قلت: «بالضبط.»

«بالطبع، الآن يتضح كل شيء.»

قلت: «بالطبع.»

من المُدهِش كيف قبِل كل من كانوا معنيين بالتحقيق تفسيري، بل حتى عامة الناس.

(لم أتردد كثيرًا في سرد هذه الحكاية؛ لأنه حتى الوقت الحالي واستنادًا إلى أحداثٍ معيَّنة، لم يُضار أحدٌ بسبب هذه الطفلة البديلة؛ فقد أدَّت دورها في مسرحية هذا العالم.)

لكن ما أرعبني هو دفتر جيب السير ناثانيال؛ لأنه كان يحتوي على عناوين سائق عربة الأجرة والسيد جيفينز طالب الطب. ومع ذلك فقد أصبح لا علاقة للآنسة شيدلي بالأمر عندما قدَّم سائق عربة الأجرة شهادته؛ لأنها كانت شاهدةً رئيسة (وأنا كذلك) في بداية التحقيق، بينما قدَّم سائق عربة الأجرة شهادته في الاستماع المؤجل. لم يكن دليل فليمبس كاملًا؛ فقد كان عليه أن يرى المتوفى كي يتعرف عليه، وقد جرت شهادته على هذا

النحو: «لم أرَه من قبل، ولكن إذا كنت قد رأيت هذا الرجل من قبل، فيمكنكم أخذ رخصتي وسجني ثلاثة أشهر.»

أصبح لا علاقة لي بالأمر عندما قُدِّم هذا الدليل، وتواريت عن الأنظار أيضًا عندما أقسم الشاهد التالي، السيد جيفينز، أنه لم يرَ المتوفى من قبل على الإطلاق.

استُدعي المستشار الطبي للسير ناثانيال، وليس لديَّ أي شك في أن هذا السيد كان ذا مكانة عظيمة — لأن السير ناثانيال لم يكن يقبل إلا بالأفضل من كل شيء، من مستشاره الطبي وحتى ورنيش حذائه — وليس لديَّ شك في أن هذا الرجل النبيل كان يميل إلى حدٍّ كبير إلى إنهاء التحقيقات بسرعة. شهد، بشيء من الحزن كما هو واضح، وهو ما أعطى شهادته ثقلًا أكبر، أن المتوفى كان يُعاني منذ بعض الوقت من مرض القلب؛ الأمر الذي كان مرضًا عائليًّا، وأن المرض كان قد ازداد تقدُّمه بسرعة بسبب نمط الحياة الفوضوي الذي كان يعيشه السير، وأنه كان قد حذَّره قبل أيام قليلة فحسب ناصحًا إياه بأن يتجنَّب أي انفعال؛ لأنه قد يكون خطيرًا. قال الشاهد: «لقد أضفت أنه إذا حافظ السير ناثانيال على هدوئه، فقد يعيش حتى سن الشيخوخة المبكرة، وهو ما كان أمرًا محتملًا، ولكن كان احتمالًا ضئيلًا.»

عند سماع شهادة الطبيب، والتي أضيف إليها نتيجة فحص ما بعد الوفاة، تمكَّنت من أن أفهم بسهولة لمَ كان وجهه، وخاصةً المنطقة حول فمه، يبدو هكذا في كل مرة رأيته فيها، وكذا تمكَّنت أيضًا من فهم كم كانت طبيعته تتوافق تمامًا مع توجيهات طبيبه بتجنب الانفعال.

لقد كان واضحًا أنه كان من النوع الذي عادةً ما كانت الأنانية تُثير فيه مشاعر القسوة وانعدام الإحساس، بينما كان فجوره الطبيعي يدفعه إلى الانفعال والتصرف عكس طبيعته المتبلِّدة.

لا أشك في أن الأدلة الطبية بشأن السير ناثانيال قد أضعفت التحقيق، وهي نتيجة لا تنطلق من أي خداع متعمد للعدالة، ولكن ببساطة من حقيقة أن الحكم البشري على الأمور لا بد أن يتشكل بناءً على انطباعاتٍ سابقة. عندما يسمع الناس أن رجلًا مُتوفًى كان سيئًا، بالتأكيد لن يرغبوا في التحدث عنه في مراسم دفنه كما كانوا سيفعلون لو علموا أنه عاش حياةً شريفة.

لقد أظهرت الدهشة التي أبداها الطبيب الشرعي إلى أي مدًى يمكن، حتى لمسئولٍ قانوني عجوز، أن يتأثر بكلام شاهد عن الرجل في المحاكمة. أنا أعرف هذا الطبيب الشرعي،

وهو ليس رجلًا ذا أخلاق رفيعة، ولكنه كان مُنافقًا يتظاهر بازدراء الخطيئة والاحترام الصريح للفضيلة.

بتوجيهٍ مني، كانت الآنسة شيدلي قد قدَّمت شهادتها التي كان مفادها أن السير ناثانيال جاء بخصوص أمور مالية، وأنه عندما سقط أرضًا كان على وشك البحث عن السيد شيدلي، وأنها ركضت نحوه وتوسَّلت إليه ألا ينفذ ما ينويه.

وعندما علم الطبيب الشرعي وهيئة المحلِّفين أن آل شيدلي هم من كانوا يعيلون السير ناثانيال ماديًّا منذ عدة سنوات، لم تُوجَّه للآنسة شيدلي أي أسئلة أخرى.

انتهت حكايتي، «مؤجر مدى الحياة»، التي سردتها لأبيِّن كيف يمكن لشيءٍ بسيط أن يؤدي إلى عواقب بالغة الأهمية. لو لم أستقلَّ عربة الأجرة مع فليمبس في عربة الأجرة في تلك الرحلة يوم الأحد، ما كنت عرفت أبدًا أن السير ناثانيال شيرلي هو الوريث الفعلي لضِياع آل شيرلي.

ومع ذلك فأنا سعيدة أن السير لم يستولِ أبدًا على أيٍّ منها.

عندما ماتت الفتاة الصغيرة (منذ حوالَي ثمانية أشهر)، تنازل السيد شيدلي عن الضِّياع للوريث التالي بعد السير ناثانيال. وبما أنه لم يُثبَت أبدًا أن الطفلة لم تكن ابنته، فقد كان بموجب القانون مؤجِّرًا مدى الحياة، لكنه تنازل عن حقه، ليس لأنه عرف سر أخته الكبير — فقد احتفظنا به لأنفسنا — ولكن لأنه شعر أن المالك الوحيد لممتلكات آل شيرلي يجب أن يكون شخصًا من العائلة نفسها.

وهكذا آلَ كل شيء إلى الطريق الصحيح في النهاية، ولم يُعاقَب أي شخص كي تتحقق العدالة.

جورجي

إنني على وشك أن أسرد قصةً ليس لديها الكثير لتقدِّمه على مستوى الحبكة الدرامية المركَّبة، ولكن على الرغم من أنها عبارة عن سردٍ سَلِس للغاية، فأنا عازمة على أن أُفرِد لها مساحةً هنا؛ لأنها تُظهِر مرةً أخرى بوضوحٍ كبيرٍ أنه كثيرًا ما يحدُث أن تكون المعتقدات الشائعة، والتي ربما تكون مبنية على أسسٍ مسوَّغة، متناقضةً على أرض الواقع.

إن المعتقد السائد هو أنه لا يمكن خداع المحققين. لا يوجد اعتقاد يتعلق بالشرطة أكثر خطأً من هذا الاعتقاد. فبمجرد أن تكسب ثقة فرد من أفراد جهاز الشرطة، يمكنك خداعه — رجلًا كان أو امرأة — بكل سهولة وباستمرار، وهذا ما أعرفه جيدًا. أؤكد لكم أننا لا نُعطي ثقتنا لشخص إلا نادرًا، ولكن عندما نفعل تكون عملية الخداع مثالية.

علاوةً على ذلك، فإن الافتراض السائد أن الصِّبية يكونون جريئين عند ارتكاب الجرائم أكثر من كَوْنهم ماكرين. وهذا أيضًا خطأٌ كبير. إن مكر الصبي المجرم عادةً ما يكون بارعًا.

أيضًا، كثيرًا ما يُقال إن الشباب الذين يتورَّطون في جرائم يشعرون بندمٍ أكبر بكثير من إخوانهم في الإجرام الأكبر عمرًا. هذا اعتقاد لا تثبت صحته دائمًا على أرض الواقع.

إنني أقدِّم هذه القصة لأنها تجمع في شكلٍ شديد البساطة الحقائقَ التي تتعلق بمحققٍ مخدوع، وصبيٍّ ماكر، ومجرمٍ شابٍّ يفتقر تمامًا إلى الشعور بالندم.

كان المحقق المخدوع أنا.

وكان الصبي الماكر هو جورجي.

وكان المجرم الشاب الذي شعر بالندم الشديد هو جورجي.

كما قلت من قبل، جورجي ليس بطل حبكة درامية جيدة، ولكن، على الرغم من ذلك، ربما تستحق حكايته أن تُسمَع؛ إذ تُظهِر ما يمكن أن يرتكبه شابٌّ في التاسعة عشرة من عمره وذو أعصاب باردة.

كان جورج ليجون شابًّا نبيلًا وسيمًا حقًّا، وجذَّابًا أيضًا؛ فقد كان من غير الممكن أن تقضي نصف ساعة بصحبة الصبي دون أن تُعجَب به.

كان ذا عينين مُشرِقتين، وشفتين مبتسمتين، وكان مُضحكًا وذكيًّا (بطريقته الخاصة) وصادقًا. وعلى مستوى كل الرجال النبلاء، كان فتًى من النوع الراقي.

علاوةً على ذلك، كان مُتواضعًا إلى حدٍّ ما، وخلال الأشهر القليلة التي عرفته فيها لم أجِده مدلَّلًا قط.

لم يكن فاجرًا بأي شكل من الأشكال؛ فقد كان بصحةٍ جيدة لا تنمُّ عن ذلك. كان العيب الوحيد الذي لاحظته فيه هو أنه كان يميل بين الحين والآخر إلى استقلال عربات الأجرة، والتي كنت أسمع صوت تدحرُج عجلاتها تجاه المنزل المُجاور بعد خلودي إلى الفراش.

لُمتُه ذات مرة بسبب عربات الأجرة هذه، ولكن كانت لديه إجابةٌ جيدة جدًّا لدرجةٍ جعلتني أزيح هذه العربات من ذهني في الحال.

قال: «أنا لا أدفع أجرةً كاملة أو أي شيء من هذا القبيل. إنني أنتظر حتى تمرَّ عربة أجرة في طريقي، ثم أعطي سائق العربة بقشيشًا إما ستة بنسات أو شلنًا؛ وبهذا أستقلُّ العربة لمسافةٍ قصيرة جدًّا وأعود إلى المنزل بثمنٍ زهيد.»

ما الذي يمكن أن يكون أبسط مما قاله هذا؟ لا شيء، ولكن المشكلة أنه لم يكن صحيحًا.

ثم مرةً أخرى، عندما أخبرني أنه على الرغم من أنه لم يكن يجني إلا ثلاثين شلنًا فقط في الأسبوع، كان يُنفقها كلها على مصروفاته؛ لأن والدته كانت تحصل على دخلٍ سنوي. كان هذا ردًّا على أناقة ثيابه وعلى إنفاقه القليل من المال. فمقابل ثلاثين شلنًا من المصروف الأسبوعي يمكنك الحصول على مِعطفٍ لائق ترتديه وحمل قفازات نظيفة. كان تبرير الثلاثين شلنًا من المصروف في الأسبوع تبريرًا عاديًّا بما يكفي.

ولكن المشكلة أنه لم يكن حقيقيًّا.

كنت في رحلة عمل في ذلك الوقت، وكنت أعيش في منزلٍ صغير في الطرف الشرقي من لندن، وأسكن بجوار والدة هذا الشاب. أُعجبت بالصبي لأنه كان يستيقظ في الصباح الباكر،

ويغنِّي مثل الكروان وهو ينظر إلى أزهاره ويُطعِم عصافيره التفاحي المغرِّدة. أتحدَّاكم — إذا كانت لديكم أي مشاعر — ألا تشعروا عندما ترون فتًى وسيمًا ومرِحًا وصريحًا ومهذَّبًا بالرغبة في مصافحته. أؤكد لكم أن جورج هذا كان يُصافح من يراه بألطف طريقة ممكنة.

وحيث إنني يمكنني التعرف على الناس بسرعةٍ كبيرة، فسرعان ما صادقت والدته؛ وإذ وجدتها امرأةً بسيطة جدًّا وطيبة القلب، كنت أزورها في منزلها باستمرار كلما أتاح لي عملي أن آخذ ساعة راحة لنفسي.

قالت لي ذات ليلة: «أخشى أن جورجي يُنفق الكثير من المال.»

وعندئذٍ، على الرغم من أنني، بصفتي محققة، كان يتوجب عليَّ الشعور بالانتباه والحذر في الحال، قلت:

«لا يا سيدة ليجون، إن الصبي لا يفعل. إنه شاب، وما دامت عيناه مشرقتَين ومعنوياته مرتفعة، فلا داعي للخوف.»

صحيحٌ أنه كان يعود إلى المنزل متأخرًا أحيانًا، ولكنني كنت أقول لنفسي إن حي «بو» يبعد كثيرًا عن المسارح، وإنه ربما يكون مُعتادًا على الذهاب إلى ساحة القمار بنصف الثمن.

ولكن في إحدى الأمسيات، عندما كنت في منزل والدته، التي لم يبدُ أنها ميسورة الحال كثيرًا، أعترف بأن الصبي أذهلني عندما ظهر وهو يضع في إصبعه الصغير ما بدا بكل وضوح أنه خاتم مفتوح من الألماس.

قالت أمه: «يا إلهي، جورجي! ما هذا الخاتم الرائع! إنك تُضيع أموالك مجددًا. ما فائدة عملك وقتًا إضافيًّا وجَنْي أموال إضافية، إذا كنت تُنفقه بهذا التبذير!»

وافقتها قائلةً: «صحيح! لا بد أنه أنفق مبلغًا كبيرًا من المال لقاء هذا الخاتم، إنه من الألماس.»

قالت أمه: «يا إلهي، جورجي! مهما كان السبب، ما حاجتك لشراء الألماس؟»

«إنه خاتمٌ واحد فقط يا أمي، وبالإضافة إلى ذلك أنا لم أسرقه، لقد أُعطيَ لي.»

«يا إلهي، يا جورجي! من الذي يمكن أن يُعطيك ألماسًا؟»

قال وهو يضحك بسعادةٍ طوال الوقت: «أوه يا أمي! ألا تذكُرين أنني قلت لكِ إن المُلازم «دَن»، شقيق السيد كلايف دَن، كان قد عاد إلى المنزل في إجازة؟! وألا تذكُرين أنني ذهبت إلى دَن مع صديقه ويل يوم الجمعة لقضاء ليلة في لعب الورق؟ حسنًا، لقد أعطاني المُلازم دَن هذا الخاتم.»

ملحوظة: جرت هذه المحادثة يوم الاثنين.

«ولكن يا عزيزي جورجي، إنك لم ترَ هذا الرجل إلا مرتين فحسب!»

«حسنًا يا أمي، هذا ليس بيدي، ولكن الملازم قال إنني رفيقٌ مرح للغاية وأعطاني الخاتم.»

كما قلت من قبل، كان هذا يوم الاثنين.

كان في التاسعة عشرة من عمره فحسب.

في يوم الجمعة التالي، كما علِمت بعد ذلك، قال لوالدته على الفطور:

«أمي العزيز، أعطني قُبلةً بعد الإفطار لأنكِ لن ترَيني حتى الغد.»

أنا متأكدة من أنها ردَّت قائلةً: «يا إلهي، جورجي! إلى أين أنت ذاهب؟»

«أوه، لقد دعاني آل دَن لتناول العشاء في بيت عمهم، وهو على بعد عشرة أميال من المدينة، وسيوفِّرون لي سريرًا للمَبيت.»

وهكذا قبَّل والدته. قالت بعد ذلك: «لقد قبَّلني، يا عزيزتي، بطيبة قلب أكثر من أي وقت مضى، وخرج وتحدَّث إلى عصافير التفاحي المغرِّدة، وقطف زهرتين أو ثلاثًا ووضعها في مِعطفه، ثم سار في تلك الحديقة الأمامية مُبتعدًا وهو يغنِّي بسعادةٍ مثل هذه العصافير المغردة الجميلة.»

ومع ذلك، فقد ودَّع أمه وداعًا طويلًا.

ولم يرَها مرةً أخرى.

أعتقد أنه على الأرجح لن يراها مرةً أخرى أبدًا — ولا بد أنه كان على دراية بهذه الاحتمالية وهو يسير في الحديقة وهو يغنِّي — لم يكن يغنِّي لأنه كان مرحًا وطيب القلب، بل لأنه كان ماكرًا بما يكفي لئلَّا يُظهِر ما قد يُثير ولو القليل من الشك، ولأنني أظن أنه كان غير قادر على الشعور بالندم.

عندما حلَّت ليلة الجمعة لم نفتقده؛ لأنه لم يكن من المتوقَّع أن يعود إلى البيت.

وعندما حل صباح السبت لم نفتقده؛ لأنه كان من المفترض أن يذهب من المنزل الريفي الذي استضافه إلى المكتب مباشرة.

لذلك، فقط عندما كانت الأم قد انتظرت طوال ليلة السبت وكان صباح يوم الأحد قد حل، بدأت تظهر فكرةٌ واضحة باحتمال أن يكون شيءٌ ما قد حدث.

ولكنه كان يوم الأحد، وفي ذلك اليوم لم تستطع الأم الساذجة إرسال أي إشعار عن الموقف الفعلي للأمور، ولا أي تنبيه، والمقصود بذلك هو أنها لم تُعلِم أو تستفسر عن ابنها في المكتب الذي كان يعمل فيه. وهكذا مر يومٌ آخر، وفقط في صباح يوم الاثنين تلقَّت الشركة التي كان يعمل فيها الابن الصدمة.

وهذا لأن جورجي المرح، والشاب المغنِّي البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، كان قد أدار الأمور جيدًا جدًّا، سواء في المنزل أو بالخارج، بحيث لم يكن ممكنًا الشك في حقيقة ما حدث بالمكتب حتى يوم الاثنين.

كان هذا هو ترتيبه البسيط.

عند وصوله صباح الجمعة إلى مكتبه (بعد أن ودَّع والدته الوداع الأخير)، طلب الإذن بالمغادرة ظهرًا؛ لأنه أراد الذهاب إلى الريف، وطلب أيضًا إذنًا حتى يوم السبت (اليوم التالي) ظهرًا.

وافقت الشركة، أو بالأحرى ممثِّلها؛ لكَوْنه ليِّن العريكة بدرجةٍ كافية.

يقول جورجي: «أوه! بالمناسبة، بما أنني ذاهب إلى الريف يا سيدي، فقد أحتاج القليل من المال، إذا سمحت لي بالحصول على شيك للشهر كله فسأكون سعيدًا.»

فيقول المدير: «أوه بالتأكيد!» وليس لديَّ أدنى شك في أن طلب ذلك الشيك القليل البسيط ساعد في تأجيل القلق الذي كان سيشعر به ذلك المدير عاجلًا أو آجلًا.

لقد كانت المسألة كلها مُقنِعة للغاية؛ زيارة الريف يوم الجمعة، والإذن بساعتين في صباح اليوم التالي، وأخيرًا طلب الحصول على راتب الشهر. كان كل ذلك منطقيًّا للغاية ومُتوافقًا بعضه مع بعض، بحيث لم يكن ثَمة مجال للشك، ولا حتى لمحققةٍ مثلي.

والآن لاحظوا كم كانت الخطة موضوعة جيدًا.

كان قد حصل على فسحةٍ من الوقت حتى ظهر يوم السبت. إذن لم يكن من المتوقَّع حضوره قبل يوم السبت ظهرًا. ولكن المكتب، كما هو مُعتاد مع معظم المكاتب الأخرى، أغلق أبوابه يوم السبت في الساعة الثانية؛ لذا، عندما حان ميعاد الإغلاق الأسبوعي كان جورجي متأخرًا بساعتين فقط، وهو زمنٌ يمكن تبريره بافتراض أن قطارًا قد فاته.

كان هذا بحذافيره هو ما بنى عليه غيابه؛ ومِن ثَم عاد أصحاب العمل إلى المنزل ببالٍ هادئ، وقضَوا يوم الأحد دون أدنى شك أو قلق حول جورجي.

سيتبيَّن الآن أنه لو كان هذا الفتى المُدندِن البريء ذو التسعة عشر عامًا قد فرَّ في أي يوم آخر غير يوم الجمعة، لكان الشك قد أُثيرَ في غضون أربع وعشرين ساعة، أو بعد

انقضائها؛ بينما باختياره ليوم الجمعة حصل على أسبقية قرابة ثلاثة أيام قبل ملاحظة غيابه في المكتب، وقبل أن تتمكن أمه المسكينة من إرسال أي إشعار عن رحيله إلى مجلس المدينة.

لقد صادفتُ الكثير من الخُطط المرتَّبة بعنايةٍ دقيقة في تجربتي كمحققة، ولكنني لم أصادف أبدًا أي حالة من الاحتيال المقرَّر والمخطَّط تفُوق حالة جورج ليجون.

بالطبع في غضون ساعة من الشك ظهر أنه كان ثَمة اختلاسات. قبل انتهاء اليوم اكتُشف عجزٌ بنحو ٣٠٠ جنيه استرليني؛ عُزِي المُتسبب فيه بوضوح إلى الشاب.

لقد خدع كل من قابَلهم، وفيهم أنا.

كان عُرضةً للاعتقال في أي لحظة خلال الشهرين الماضيين؛ في أي لحظة ربما كان سيجد نفسه مدمَّرًا مدى الحياة، ومع ذلك، وعلى حد علمي المؤكد، فقد كان سعيدًا على ما يبدو، وبصحةٍ جيدة كما هو واضح، وعيناه مُشرقتان وشفتاه مُبتسمتان حتى النهاية.

لم يكن من الممكن أن يكون لدى هذا الشاب أي إدراك لمعنى الأخلاق، وفي نفس الوقت لا بد أن صحته الجسدية كانت رائعة.

بالطبع انتشرت هذه الحقائق الجميلة بسرعةٍ كبيرة. كان محققو المدينة مشغولين بشكلٍ خاص في نشر الأخبار.

نُفِّذت الجريمة بطريقةٍ تصل في بساطتها إلى حد الروعة.

كانت الشركة مُهمِلة في الأمور المالية، ونادرًا ما تتحقَّق من دفترها المصرفي. اكتشف هذا الفتى اليافع بشكلٍ مباشر تقريبًا أنه قد كسب مكانه في الشركة، ومن المحتمل أنه قرَّر على الفور أن يرتكب الجناية. لا بد أن أضيف أنه لم يُمضِ أكثر من ثلاثة أشهر في العمل في الشركة التي سرقها.

نُفِّذت جميع عمليات الاختلاس الكبيرة في غضون شهرين من فراره. كانت خطته شديدة البساطة، ولكنها كانت بارعة.

قد يعرف قُرائي أن النظام المتَّبَع في المدينة عند الدفع إلى البنك، هو إرسال ورقة بالمبلغ المُراد إيداعه في حساب العميل، وهو المبلغ الإجمالي للفواتير والشيكات والأوراق المالية والذهب والفضة المدفوعة، يوضع كل بند من هذه البنود بشكلٍ منفصل، ويُضاف الإجمالي كله.

كتب الصرَّاف هذه الكمبيالة الخاصة بالمال الذي يجب دفعه، ووقَّع ليجون الشاب بالقبول، ثم أصبح جورجي هو الساعي الذي يُرسَل إلى البنك. كانت خطته بسيطة للغاية. لنفترض أن الكمبيالة كانت على النحو الآتي:

بنك ذا سيتي كونسوليداتد ليميتد.

			١٨٦
الرصيد			
أوراق مالية عامة ...	٥٠		
أوراق مالية محلية ...	٤٠		
العملات الذهبية ...	١٢٥		
العملات الفضية ...	٢٠	١٩	٦
الشيكات، أخرى ...	٣٥		
الشيكات والفواتير الخاصة ببنوك محلية غير مستحق —			
الإجمالي بالجنيه الاسترليني	٢٧٠	١٩	٦

جيمس هوجلي (الصراف)

مطلوب على وجه الخصوص أن تُصرف الكمبيالات قبل الساعة ٣:٣٠ عصرًا، وفي يوم السبت بحلول الساعة ٢:٣٠ ظهرًا.

كانت عملية الاحتيال الأولى تتمثل في تزوير اسم الصرَّاف في كمبيالةٍ جديدة طِبق الأصل من الكمبيالة الأصلية، باستثناء أن بند العملات الذهبية كان ٢٥ جنيهًا استرلينيًّا، بدلًا من ١٢٥ جنيهًا استرلينيًّا، بحيث كان الإجمالي ١٧٠ جنيهًا استرلينيًّا، بدلًا من ٢٧٠ جنيهًا استرلينيًّا.

والآن لاحِظوا الذكاء المتَّبَع في تنفيذ هذه الجناية.

كان هو من يتولَّى مهمة حمل دفتر البنك جيئةً وذهابًا.

في البنك لن يتمكنوا من كشف أي احتيال؛ لأن الدفتر كان مُتوافقًا مع الكمبيالة، وبمجرد إثارة أي شكوك في المكتب سيكون هو أول موظف يُرجَع إليه للتحقق مما حدث.

لنفترض الآن في هذه الحالة أن الصرَّاف اكتشف أن ١٧٠ جنيهًا استرلينيًّا و١٩ شلنًا و٦ بنسات، بدلًا من ٢٧٠ جنيهًا استرلينيًّا و١٩ شلنًا و٦ بنسات، كانت قد دُفعت، ولنفترض أن هذا الشاب المرح، ليجون، استُدعي لتفسير الأمر، فماذا سيكون ردُّه؟

«أوه! حسنًا، أنا أرى ذلك؛ إنه مجرد خطأ في الرقم؛ ١ بدلًا من ٢.» وكانت هذه الحجة ستُلاقي قبولًا جيدًا؛ لأن جميع الأرقام المتبقية ستكون مُدرَجة بالفعل في دفتر البنك وفي دفتر المصروفات في المكتب.

وكان الصرَّاف سيقول: «يا إلهي! اذهب إلى البنك وعدِّله.»

«حسنًا، يا سيدي.»

وعندئذٍ كان سيذهب ولا يعود مرةً أخرى.

صحيحٌ أنه كان سيحظى ببدايةٍ سيئة، ولكنها مخاطرة كان معرَّضًا لها.

عندما شرعت في فحص القضية، وجدت أنها تعكس تفكيرًا مُتمعنًا ودراسةً جيدةً جعلتني مُقتنعة لبعض الوقت بأنه تلقَّى مساعدةً من شخصٍ يكبره سنًّا وخبرةً قبل أن يثبت خطئي.

أنا مقتنعةٌ الآن بأن جورجي لم يكن قادرًا تمامًا على التخطيط للأمر دون مساعدة فحسب، بل إنني متأكدة تمامًا من أنه قد اعتمد على قدراته الخاصة.

لا بد أن وَقْع الأمر لم يكن سارًّا على الإطلاق على جميع أصدقاء جورج ليجون الشاب، ولكن كان عليهم تحمُّل هذه المُعاناة واحدًا تلو الآخر. إنني أقصد هنا التحقيق والاستجواب الذي خضعوا له في محالِّ إقامتهم من قِبل قوة المباحث في مدينة لندن.

أُصيبَ أحد أصدقاء ليجون من الشباب بصدمةٍ كبيرة، لدرجة أنه لازَم الفراش جراء هذا الأمر.

وفي هذه الأثناء كان جورج قد أفلت من الأمر دون أي عواقب، ولم تستطع الشرطة (لنتذكر أنها كانت شرطة المدينة) التحصل على أي أخبار عنه.

لقد كانت قدرته على الخداع رائعةً.

لقد خدع أمه فيما يخص نفقاته، قائلًا إنه يعمل ويتقاضى أجرًا مقابل العمل لوقت إضافي. وهذا هو ما فسَّر غيابه وسهولة إنفاقه للأموال.

كما أنه ضلَّل زملاءه من الموظفين، وأنا أيضًا، بقوله إنه كان ينفق كل ما كسبه على نفسه؛ لأن والدته كانت تحصل على دخلٍ سنوي.

لقد كان ما قاله — كمقولة — بخصوص الدخل السنوي صحيحًا تمامًا، ولكنه تجاهل أن يُضيف أن هذا الدخل لم يكن يتجاوز سبعة جنيهات استرلينية وعشرة شلنات سنويًّا.

ساعَد هذا التفسير بالطبع على تغطية نفقاته العادية، ولكن تعيَّن عليه أن يتجنب إظهار أي تدفُّق ملحوظ للمال أمام رفاقه؛ لذا لم يكن ينفق أكثر مما ينفقونه أبدًا. وهو ما تأكَّد دون ريب.

ولكن عندما جمَّعت الشرطة ما اكتشفته ببطء، تبيَّن بوضوح كافٍ أنه عندما كان بمفرده أو بصحبة أشخاص ليسوا على دراية بظروفه الفعلية، كان يَشْرع في تبذير مبالغ مالية ضخمة، ومع ذلك كان يحب دائمًا أن يحصل على شيء في مقابل ماله.

كان يحجز مقصورةً خاصة، على ما يبدو، بعد تناول عشاء هادئ لطيف في فندق «تافيستوك» — وهو المكان الذي كان يتردد عليه باستمرارٍ أكثر من أي مكان آخر — أو يسترخي في المقاعد الأمامية في «المسرح الإيطالي»، مُرتديًا ملابسه في «تافيستوك». كان لديه الكثير من التذوق للموسيقى.

أما عند الذهاب إلى الأوبرا أو إحدى المسرحيات، كان، على ما يبدو، يتجه أولًا إلى متجر «إيفانز» — الذي كان يُنظَر فيه إليه على أنه رجلٌ نبيل — ليفصِّل ملابس جديدة. بعد ذلك كان يستقلُّ عربة أجرة سريعة إلى منزله في حي «بو»، ويأوي إلى الفراش وينهض سعيدًا، ويتظاهر بكل شيء على نحوٍ مُقنِع، ويتناول فطوره من القهوة الرديئة والخبز السميك والزبدة، الذي لم يكن الوضع الاقتصادي القاسي للأسرة يسمح بالحصول على طعامٍ غيره.

لا أظن أن أي أحد كان يشكُّ في جورج ليجون، ولكن عندما كُشف أمره لم يعُد ثَمة حاجة للشك.

لقد أنفق أمواله، أو بالأحرى أموال أصحاب عمله، بحكمةٍ شديدة، بحيث لم يكن ممكنًا لأحدٍ أن يشكَّ فيه. على سبيل المثال، كان لديه نظارةٌ واحدة من نظارات الأوبرا التي تركها في «تافيستوك»، ونظارةٌ أخرى في مكانٍ آخر تضرَّر كثيرًا منه — مكان سأسمِّيه «آجيرني فيك» — وهو مكانٌ لا يسرُّ النظر كثيرًا، ولكن يمكنك دفع نصف سوفرين ذهبي فيه لمشاهدة مباريات الملاكمة التي تُقام لقاء المال، أو مباريات الجري، أو سباقات المشي.

لقد سمعت أنه كان يأخذ نظارة الأوبرا ويجلس في مقعده الخاص في هذا المكان كما لو كان أميرًا أصيلًا وواعيًا بكَوْنه كذلك.

لم يكن ثَمة أي هراء فيما يتعلق به. كان يفعل كل شيء بطريقةٍ مهذَّبة ورائعة. لقد كان دائمًا شديد اللطف ومهذَّبًا وجذَّابًا، ولم يتجاوز أبدًا حدود الكلام المهذَّب، بينما كان يتحمل بكثير من الصبر واللطف تعبيرات الآخرين السوقية.

من كان يتخيل أن ينتهي الحال بكل هذه الصفات الاجتماعية الجيدة في منشور الأوصاف المطبوع على جميع جدران لندن؛ طوله، ولون شعره وعينيه، وأخيرًا عبارة تصف ملامحه بأنها تُشبِه ملامح اليهود بعض الشيء (وهو ما كان غير صحيح على الإطلاق).

كان قد استولى على الأموال التي أخذها على ثلاث مراحل؛ الأولى: قبل شهر من هروبه. والثانية: قبل أسبوعين من ذلك. والثالثة: صباح يوم الجمعة المشئوم ذاك.

كانت عملية الاستيلاء الأخيرة هي الأكثر جرأة، وقد غطَّى على هذا الأمر بطلبه بوداعة الحصول على راتبه الشهري لأنه كان ذاهبًا إلى الريف.

في يوم الخميس، كان التراخي واضحًا في الطريقة التي أديرت بها شئون المكتب، حيث تُرك مبلغ بالعملات الذهبية لا يقل عن ٧٥ جنيهًا استرلينيًّا في خِزانة المكتب ولم يُودَع في البنك (كان جورجي واعيًا للغاية في كل الأوقات بألا يأخذ أي شيء سوى الذهب، وهذا على الرغم من أنه كان واضحًا أنه كان وغدًا مترفًا للغاية لدرجة أن وزن العملات المعدنية ضايَقه؛ فقد اكتُشف أنه قد استبدل عملاته الذهبية بأوراقٍ نقدية في العديد من المناسبات).

كان جورجي آخر من بقي في المكتب، بعد أن غادر الآخرون، ولقد أرى هذا الذهب لصديق — أحد أولئك الذين لم تتعاون معهم الشرطة بشكلٍ خاص بعد الكارثة — مُعلقًا على سوء الإدارة الذي سمح لمثل هذا المبلغ بالبقاء في المكتب.

وقد اختفى هذا المبلغ في الصباح التالي.

أينما كان المكان الذي أمضى فيه تلك الأمسية، فمن الواضح جدًّا أنه خطَّط لما كان سيفعله في تلك الأيام التالية، وهو ما انتهى بنجاحٍ كبير فيما يخصه. من المحتمل أنه رأى أن اللعبة لا يمكن أن تستمرَّ لفترةٍ أطول، وأن الفرق بين النقود ودفاتر البنوك لا بد أن ينتهي به الأمر إلى أن يُكتشَف، وستكون نتيجة ذلك هي سقوطه في قبضة الشرطة. لذلك، لا شك في أنه قال لنفسه إنها كانت فرصةً جيدة للهرب — نظرًا لوجود كمية جيدة من العملات الذهبية بقيمة ٧٥ جنيهًا استرلينيًّا — فقد كان اليوم التالي هو الجمعة.

لذلك قام بهذا الترتيب الصغير الذي فرَّ عن طريقه، وحظي بثلاثة أيام كاملة قبل أن يبحث عنه أحد. في صباح يوم الجمعة، كما توقَّع، أُرسلَ إلى البنك وبحوزته الـ ٧٥ جنيهًا

استرلينيًّا. زوَّر الكمبيالة، وأودع المال هذه المرة دون أي إشارة لطيفة إلى الأرقام، وترك دفتر الشيكات كي تُدفَع، وعاد إلى المكتب (وهو يحمل العملات الذهبية في جيبه على الأرجح)، وطلب إذنًا بالتغيب حتى الساعة الثانية ظهرًا من اليوم التالي لأنه كان ذاهبًا إلى الريف. بعد ذلك اقترح الحصول على شيك براتبه الشهري. ويمكن افتراض أنه فكَّر أنه بذلك سيحصل على كل ما يمكنه الحصول عليه من مال، ثم تمنَّى لمديره يومًا سعيدًا وذهب.

أعتقد أنه كان من الصعب على المدير تقبُّل واستساغة مسألة هذا الشيك، الذي كانت قيمته أربعة جنيهات لأجر الشهر، أكثر من أي شيء آخر في القضية. «لقد كان الأمر عاديًّا.» هكذا قال المدير.

لكن جورجي، بعدما أصبح آمنًا حينئذٍ لمدة ثلاثة أيام؛ إذ كان دفتر البنك محل التهمة في البنك، وإذ كان قد وضع خُططه الصغيرة بذكاءٍ شديد، لم يكن في عجلةٍ من أمره لمغادرة المدينة. والأدهى من ذلك حقًّا أنه ذهب إلى مكانه المُعتاد لتناول الطعام، وتناول غداءً احتفاليًّا صغيرًا، اختتمه بفنجان من القهوة السوداء على الطريقة الفرنسية.

لم يكن في عجلة من أمر الذهاب.

في هذا الوقت كان مرحًا ورائعًا وساحرًا للغاية وهو يقول إنه كان ذاهبًا إلى الريف لتناول العشاء مع المُلازم دَن. كان مرحًا للغاية مع النادلة إيميليا، وأعطاها شلنين بقشيشًا.

تجاذَب أطراف الحديث مع كل من كان يعرفهم، واتفق على عدة ارتباطات صغيرة للأسبوع التالي، وارتباط في يوم الأحد لسماع واعظه المفضَّل، السيد ميلو.

ثم ترك المكان وهو مرح حتى آخر لحظة، مُشيرًا برأسه عبر النافذة الزجاجية، ومُبتسمًا مُظهرًا واحدةً من أجمل الأسنان في المدينة.

لقد خدع الجميع.

كان قد قال لي ولآخرين إن والدته تركت له ماله ليُنفقه كيفما شاء، وعلى العكس من ذلك كانت فقيرة، وكانت تأخذ ثلاثة أرباعه.

أخبر والدته أن المال الذي كان ينفقه كان نتيجة عمل إضافي، ولكنه لم يحصل أبدًا على أجرٍ مقابل عمل إضافي.

كان يُوحي لأصدقائه بأنه يكسب ثمانية جنيهات استرلينية في الشهر، ولكنه كان يتقاضى أربعة.

وكان ينفق المال باعتدالٍ أمام أصدقائه القدامى. عندما يكون بمفرده كان يدفع جنيهًا مقابل مقعد في الأوبرا، ومبلغًا مُماثلًا لتناول العشاء قبل حجز هذا المقعد.

لكن أحطَّ سمة في شخصيته كانت الاستيلاء على الخاتم الألماس.

عندما شرع المحققون في إجراء التحقيقات، ذُكِر اسم المُلازم دَن على أنه السيد الذي كان قد أعطى جورجي خاتمًا من الألماس. عثر المحققون على المُلازم، وعندئذٍ اكتشف إلى من آل خاتم الألماس الخاص به.

كان جورجي المرح قد ترك جلسة لعب الورق التي أُشير إليها من قبل، وذهب إلى غرفة للنوم، وبعدما أخذ الخاتم بهدوء من عُلبته الزجاجية عاد إلى طاولة لعب الورق، ولعب بمرحٍ أكثر من أي وقت مضى.

قال لي شقيق المُلازم، إذ كنت قد أجريت بعض التحقيقات من أجل الأم: «أؤكد لكِ، أؤكد لكِ أنه تناول عشاءً رائعًا (وهو يحمل الألماس في جيبه طوال الوقت)، ولا بد أنه كان على راحته تمامًا؛ لأنني أتذكَّر أنه كان يُناقش بإنصافٍ شديدٍ مزايا نوعَي الكريمة المستخدمين في طبق السوفليه الذي تناولناه.»

فكروا في الأمر. لقد كان فاسدًا جدًّا لدرجة أنه تمكَّن من سرقة خاتم، ومع ذلك لا بد أنه كان يهتمُّ كثيرًا برأي الناس، وإلا ما كان سيتكبَّد هذه المشاق كي يفتنهم.

لقد فرَّ دون أن يُقبَض عليه.

لقد سردت هذه القصة كمثال على خطأ الاعتقاد السخيف القائل بأنه عندما يكون الشباب مُذنِبين لا يكونون ماكرين ولا مرحين، وأنهم دائمًا ما يشعرون بالذنب، وعلى الخطأ الأكبر الذي يكمن في الاعتقاد بأن المحقق لا يُخدَع أبدًا.

وصلت شرطة المدينة إلى «جريفسيند» بعد ثلاث ساعات من مغادرة جورجي لتلك البلدة. لم يكن لديَّ أي شك في أن هذا الشخص هو جورج بعدما سمعت ما قاله المراكبي عندما وصف الشاب. أضاف قائلًا: «لقد كان سيدًا شابًّا رائعًا بحق، وكان ساحرًا للغاية ومُبتسمًا، وكان يضع في إصبعه خاتمًا من الألماس، وبينما كنت أجدِّف لأوصله إلى وجهته أشار بيده نحو لندن، وقال إنه يوجد الكثيرون هناك ممن يودُّون رؤيته.»

حسنًا، لقد فرَّ بعيدًا. يؤسفني أن أقول إنه لن يكون شخصية ذات شأن في العالم، ولكن ما أنا متأكدة منه تمامًا هو أنه سيكون سعيدًا بما يكفي أينما ذهب، وأن ضميره لن يُزعجه كثيرًا.

اللغز المتكشِّف

من عادتنا، وأعني بذلك المجتمع، غالبًا التطلع إلى الرجل الناجح، وعندما نتأمَّله نفكِّر كم كان محظوظًا في حياته، وكيف فُتحت أمامه أبواب الفرص، وكم كان محظوظًا في حصد الكثير من المال.

ولكننا لا نرى، أو نتعمد ألا نرى، النواقص التي ربما تكون لديه أيضًا. إننا ننظر إلى نجاحه، ونفكر فيما فشلنا نحن فيه، ونُغمض أعيننا عن إخفاقاته، ونحسده على حسن حظه بدلًا من أن نحتذي به في مثابرته. من ناحيتي أعتقد أن أي منصب أو نجاح لا يأتي بدون عمل شخصي جاد، وهذا العمل هو وسيلة النبوغ. لن أُومن بالحظ أبدًا.

عندما نُمارس هذه العادة المُتمثلة في النظر إلى النجاح وغض الطرف عن الفشل، فإن خطر الوصول إلى نتيجةٍ خاطئة يزداد كثيرًا، ليس على مستوى فرد واحد، بل على مستوى جماعة كاملة من الناس.

هذه الحجة قوية جدًّا عند تطبيقها على عمل المحقق؛ نظرًا لوجود العديد من القضايا الكبيرة المسجَّلة التي كان المحققون يشكِّلون فيها عاملًا رئيسًا، فقد توصَّل الناس عامةً إلى استنتاجٍ مفاده أن قوة المباحث مؤلَّفة من أفرادٍ يتمتعون بذكاء وحصافة وقدرات تفُوق القدرات العادية.

كما لا يقول الرجل الناجح في أي مهنة شيئًا عن إخفاقاته، ويسمح لنجاحاته بالتحدث عن نفسها؛ بالمثل لا يكون لدى قوة المباحث أي رغبة في نشر إخفاقاتها، بينما فيما يخص النجاحات يكون المحققون دائمًا مستعدِّين لتزويد المُراسلين بأدق التفاصيل.

في الواقع، لا يرى الجمهور سوى الجانب الناجح فحسب من عمل الشرطة، وليس لديهم أدنى فكرة عن مدى تعقيد الأخطاء والإخفاقات الموجودة في الجانب السلبي.

إن العامة لا يرَون ذلك، وفي الواقع في غمار إعجابهم بالنجاحات العلنية لقوة المباحث، ينسَون بتساهلٍ كبير جدًّا إخفاقاتهم العلنية، التي تكون فظيعة في حالاتٍ كثيرة.

ربما يكون من المستحيل تحديد سبب لطف الناس هذا، ولكن يوجد احتمالٌ كبير أنه ينبع من حقيقة أن العامة ينظرون عمومًا إلى المؤسسة الشرطية على أنها ضمانةٌ عامة عظيمة، وأنها مؤسسةٌ بارعة في منع الجريمة.

أيًّا كان الأمر، من المؤكَّد أن قوة المباحث بعيدةٌ كل البعد دون شك عن الكمال كشأن أي مؤسسة قانونية عادية في إنجلترا.

ولكن قد يتساءل القارئ لماذا أُلزمُ نفسي بمثل هذا القول مع أنه يضرُّ مهنتي.

جوابي على ذلك أنه في الآونة الأخيرة، أُجريَ تحقيقٌ برلماني (شديد الإيجاز في طبيعته، كما لا بد أن أعترف) حول أعراف قوة المباحث وتقاليدها، وهو ما لا بد أنه دفع العامة إلى الاعتقاد بأن هذه السلطة تتمتع بقوةٍ هائلة؛ لأنها لا تؤثر في عالم الجريمة فحسب، بل في المجتمع بوجهٍ عام.

بدا الأمر كما لو أن المحققين الإنجليز كانوا مُعتادين على التطفل على الحياة الخاصة للناس، وكما لو أنه لا يوجد مُواطن إلا ويخضع لمنظومة من التجسس، وهو ما لو كان موجودًا لكان غير محتمل، ولكن لا وجود له إلا في خيال الناس فحسب.

إنه لأمرٌ مؤسف للغاية أن الوزير الذي رد على التحقيق لم يبيِّن ما يكفي لتوضيح أن هذه الشكوى واهية، إن لم تكن بلا أساس على الإطلاق.

لا أظن أن الجمهور سيصدِّق ما أقوله بثقةٍ كبيرة؛ وهذا ببساطة لأنني طرفٌ معنيٌّ بالأمر، ومع ذلك فإنني سأتجرَّأ بالتأكيد على قول إن المباحث كمؤسسةٍ تعتبر ضعيفة، وإنها فشلت في معظم القضايا التي خضعت لإشرافها، وأخيرًا إنه غالبًا ما تبلغ أنجح قضاياها حد الكمال، ليس من خلال التصرف دون مساعدة بقدر ما يكون من خلال استخدام الحقائق، التي غالبًا ما تُذكَر دون الكشف عن هُوية قائليها، والتي لا يُشير إليها المحققون وهم يقدِّمون أدلتهم في النهاية. يبدأ هذا الدليل من عبارة: «من المعلومات التي تلقَّيتها.» كثيرًا ما تحمل تلك الكلمات القليلة في طيَّاتها السر الذي أدَّى إلى كل العمليات اللاحقة التي يُفرِدها المحقق في الوصف، وبدون هذا السر ما كان سيحصل على دليله أبدًا.

لا داعي لأن يخاف العامة — وخاصةً العامة الذين عانَوا من أي ضغوط من نظام الشرطة الأوروبية، وممن يرتجفون من مجرد ذكر هذه المؤسسة — من أن مثل هذه الأوضاع المحلية يمكن أن تحدث يومًا ما في إنجلترا. لا يمكن حتى محاولة فعلها؛ وهذا لأن

قوة الشرطة منظمة، وما كان ممكنًا أن تُحقق النجاح لو كانت أعطت اليد العليا لنظام المباحث الذي تتَّسم أعرافه بالطابع الإصلاحي، وما سيشكِّله هذا من ضغط على المجتمع الإنجليزي؛ لأنه كان سيُكتشَف على الفور أنه شيءٌ غير دستوري؛ ومن ثَم كان سيُلاقي استياءً كبيرًا.

بهذه الملاحظات سأقول ما عليَّ قوله فيما يتعلق بدَوري كمحققة، في محاولة تفسير لغز إجرامي لم يُحَل أبدًا، وكانت فرصة كَشْفه ضئيلةً بسبب الطريقة التي تم التعامل بها معه؛ لذا لا يمكن تفسيره الآن أبدًا.

الحقائق البسيطة للقضية والتي يجب معرفتها هي كالآتي:

في صباح أحد الأيام، وجد أحد مراكبية نهر التايمز حقيبة سفر مصنوعة من قماش السجاد السميك موضوعةً على دعامة قنطرة أحد جسور التايمز. بعدما فُتح هذا الكنز الثمين وُجد أن الحقيبة تحتوي على بقايا جسم بشري بدون رأس.

وُضعت المسألة تحت تصرُّف الشرطة، وأُجري تحقيق ولم يُتوصَّل إلى شيء.

كانت هذه النتيجة طبيعية للغاية.

كان الذكاء قليلًا أو مُنعدمًا فيما يتعلق بحل هذه القضية. جُمِعت الحقائق، ولكن الاستنتاجات التي كان من الممكن استخلاصها منها لم تُستخلَص؛ ببساطة لأن الرجال المُناسبين لم يَشْرعوا في العمل على استخلاص هذه الاستنتاجات، إن كان لي أن أستخدم هذا التعبير.

لم يكن التوضيح، كما عرضته في ذلك الوقت، والذي لم يتصرف أحدٌ بِناءً عليه بأي حال من الأحوال، وافيًا — أعترف بذلك في البداية — يخصني، ولكنه كان يخص سيدًا محترمًا وضع تحت تصرُّفي وسيلة تقديم نظريتي النهائية في القضية إلى السلطات المختصة.

كنت جالسة في إحدى الليالي، أدرس قضيةً بسيطة بما فيه الكفاية، ولكنها كانت تستلزم بعض الحبكة، عندما جاء سيدٌ مهذَّب لرؤيتي، وكنت على استعدادٍ تام لمقابلته، مع أني لم أتعرَّف من قريب ولا من بعيد على الاسم المدوَّن على البطاقة التي أُرسلت لي.

وبما أنه بالطبع ليس مسموحًا لي بنشر اسمه، ولأن استخدام اسم مزيَّف سيكون عديم الفائدة، سأدعوه السيد «فلان».

أخبرني، بكلماتٍ قليلة واضحة وفظَّة، تُشبِه إلى حدٍّ كبير طريقةَ محقق رفيع المستوى، وصل إلى منصبه بإصراره، أنه يعلم أنني محققة، وأنه يريد استشارتي.

«أوه حسنًا! إذا كنت محققة فيمكنك استشارتي إذن. هاتِ ما عندك.»

عندئذٍ قال على الفور إن لديه نظريةً تخصُّ قضية لغز الجسر، كما أسماها وكما سأسمِّيها، وإنه يرغب في أن تضعها سكوتلاند يارد قيد النظر.

حتى ذلك الوقت كنت حذِرة، وطلبت منه أن يُفصِح.

وقد فعل، ويمكنني القول إنه بعد دقيقة واحدة كنت قد تخلَّصت من التحفظ الذي كنت أتصرَّف به، وأصبحت صريحة وواضحة مع زائري.

لن أكرِّر هنا ما قاله؛ لأنني لو فعلت ذلك فسيتعيَّن عليَّ أن أراجعه كي أستوفي ما أضفته من إضافات أو تصحيحات أو حذف.

ربما يكفي أن نقول إن نظريته بأكملها استندت إلى أسسٍ تتعلق بمهنته كطبيب؛ لذلك عندما يَرِد شيء في السرد الآتي له علاقةٌ واضحة بالجِراحة، يمكن للقارئ أن يُرجِعه إلى السيد فلان، بينما من ناحيةٍ أخرى ترجع الاستنتاجات المستخلصة من هذه الحقائق بوجهٍ عام لي.

لذلك سأعرض المحادثات التي أجريناها في أوقاتٍ مختلفة على شكل حكاية مكتملة تجمعها كلها، إلى جانب وضع الإضافات والاقتراحات النهائية في أماكنها المناسبة، مع أنها ربما تكون قد جرت في بداية النقاش.

سأعرض الآن على الجمهور إفادتنا كما قُدِّمت إلى السلطات، ولن أحذف إلا الصيغة الرسمية والتفاصيل غير الضرورية.

(١) لم تشكِّل الأجزاء المشوَّهة عند تجميعها معًا جسدًا كاملًا، وكان الرأس مفقودًا.

كانت الحقيقة الأولى التي أذهلت الطبيب هي أن التقطيع، إن لم يكن ينمُّ عن علم ودراسة، فعلى الأقل كان ينمُّ على دراية بالأمر. لم تكن الأجزاء المقطَّعة مُتعرِّجة، وعلى ما يبدو لم يُعبَث بمفاصل الجسم. لقد استُخدمت السكين ببعض المعرفة بعلم التشريح.

كان الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من هذه الحقائق هو أن القاتل — أيًّا كانت هُويته، وسواء كان هو أو أحد شركائه، وسواء أثناء أو بعد الواقعة — كان، بناءً على الاستنتاج، رجلًا مثقفًا، ويرجع هذا الاكتشاف ببساطة إلى وجود دليل على أنه كان يعرف شيئًا عن مهنةٍ ما (الجراحة)، وهو ما يُفترَض معه التعليم.

والآن، ثَمة قاعدةٌ عادية تقول إنه في حالات القتل التي يوجد فيها مجرمون أو أكثر، يكون هؤلاء القتلة مُنتمين إلى طبقةٍ ما.

بعبارةٍ أخرى، نادرًا ما تجد رجالًا مُتعلمين (أشير هنا إلى إنجلترا عمومًا) يتعاونون مع رجالٍ غير مُتعلمين في ارتكاب جريمة. من الواضح أنه عندما يتعاون مجرمان في

ارتكاب جُرمٍ ما، يُفترَض أنهما رفيقان في الأصل، إذا ما قُبِل هذا التأكيد، أو سُمح له أن يظل قائمًا جدلًا؛ من ثَم يجب الوضع في الاعتبار أن كل رفقة تُحافظ عمومًا على شرطٍ واحد، ألا وهو المساواة. وقد اكتسبت هذه القاعدة العامة مثلًا دارجًا، هو دليلٌ أكيد على ملاحظةٍ واسعة الانتشار، وهذا المثل هو: «الطيور على أشكالها تقع.»

ممتاز. والآن، ما هو وضعنا فيما يخص قضية الجسر، مع قبول الافتراضات المذكورة أعلاه أو السماح بوضعها في الاعتبار؟

نصل إلى الاستنتاج الآتي:

تقود حالة الأجزاء المشوَّهة إلى الاعتقاد بأن القتلة رجالٌ تلقَّوا بعض التعليم.

(٢) أظهرت حالة نسيج لحم الأجزاء المشوَّهة أن القتل قد ارتُكب باستخدام السكين.

كان من السهل التوصل إلى هذا الاستنتاج.

لا حاجة لإطلاع الجمهور على أن الدم ينتقل عبر نظام الأوردة والشرايين بالكامل في حوالَي ثلاث دقائق، ولا أنه لا شيء سيمنع الدم من التخثر على الفور تقريبًا بمجرد خروجه من الأوردة. إن الحديث عن مجاري الدم هو كلامٌ سخيف.

لذلك، إذا قُطِع شريان وظل القلب ينبض لمدة دقيقتين بعد حدوث الجرح، فسيُضَخ الدم تقريبًا إلى خارج الجسم، وسيصبح شكل اللحم، بعد الموت، مثل لحم العجل العادي أكثر من اللحم البقري العادي؛ إذ يمرُّ العجل بعملية نزيف مُشابهة، يستنفد فيها الجسم ما فيه من دماء.

ما هي النتيجة التي يمكن استخلاصها من حقيقة أن الأشلاء كانت على الحال التي ظهرت عليها، وأن القتيل قد قُطِّع باستخدام السكين؟

كان الاستنتاج الصحيح هو أنه قُتل على يد أجانب.

يرجع ذلك إلى أنه إذا فحصنا مئات جرائم القتل المُتعاقبة التي ارتكبها إنجليز في إنجلترا، فسنجد أن نسبة الوفَيات الناجمة عن استخدام السكين قليلة جدًّا بحيث لا تكاد أن تُلحَظ؛ فأساليب القتل المتَّبَعة في إنجلترا هي الخنق والضرب والتسميم (بدرجةٍ أقل).

يمكن إذن استنتاج أن جريمة القتل ارتُكبت على يد أجانب.

أعلم أنه يمكن الجدال بشأن الاستنتاجين اللذين توصَّلت إليهما بالقول بأن رجالًا مُتعلمين وأمِّيين على حدٍّ سواء قد تورَّطوا في ارتكاب مثل هذا النوع من الجرائم، وثانيًا أن جرائم القتل بالسكين تُرتكَب في إنجلترا.

ولكن في جميع الحالات الغامضة، إذا أمكن حلها أصلًا، يتعلق الأمر بقبول الاحتمالات باعتبارها حقائق مؤكدة، بقدر ما يتعلق بالتعامل معها.

(٣) كان ثَمة أدلةٌ أخرى غير الافتراضات تبيِّن أن رفات الجثة يخصُّ شخصًا أجنبيًّا.

تنقسم هذه الأدلة إلى فرعين؛ الأول: يعتمد على أدلة عظام تجويف الحوض، أو عظام الورك، التي شكَّلت جزءًا من الأشلاء المقطعة؛ والثاني: يعتمد على دليل جلد الأشلاء المقطعة.

أولًا:

قد يُلاحظ أي شخص من ذوي الخبرة أنه يوجد اختلافٌ مميز بين الأجانب والإنجليز، وهو اختلاف يمكن تمييزه في أي يوم في منطقة «سوهو»؛ وهو أنه بينما عظام الحوض عند الأجانب تكون أعرض من تلك عند الإنجليز، إلا أن أكتاف الأجانب ليست عريضة كثيرًا كما هو الحال في الإنجليز؛ من ثَم يترتب على ذلك أنه بينما يبدو الأجانب عمومًا، بسبب التباين، أعرض عند الحوض من الكتفين، يبدو الإنجليز، في معظم الأحيان، أعرض عند الكتفين من الحوض.

يمكن ملاحظة هذا الاختلاف على نحوٍ أفضل عند المقارنة بين الجيشين الفرنسي والإنجليزي، أو الجيشين الألماني والإنجليزي. عندئذٍ ستجد الاختلاف واضحًا للغاية بحيث لا يقبل المناقشة.

الآن، هل كان ثَمة أي دليل في الأجزاء المقطعة يمكن أن تنطبق عليه هذه الحجة الخاصة بالمقارنة بين الجنسيات المختلفة؟

أجل.

لقد شهد الطبيب الذي فحص الأشلاء بأنها تخص رجلًا ضئيل البنية، ثم أَتْبَع هذه الإفادة الرائعة بقوله إن عظام الحوض كانت كبيرة جدًّا.

يمكن الآن عرض الفرع الثاني من الأدلة، المتعلق بالجلد.

تابع التقرير ليُفيد أن الجلد كان مغطًّى بشعرٍ أسود طويل وقوي وناعم.

من اللافت للنظر هنا أن الجلد يعكس تلك المظاهر التي ترتبط عادةً بالقوة، في حين يوضِّح التقرير بلا ريبٍ أن الأشلاء كانت تخصُّ رجلًا ضئيل البنية.

يكتشف المفكرون العاديون للغاية على الفور أن تجربتهم تُنبئهم بأنه عادةً يمكن تمييز الرجال النحفاء الضعفاء البنية من خلال شعرهم الضعيف والخفيف. يدرك معظم الرجال على الفور قوة الوصف الشعري لقوة شمشون بأنها تكمن في شعره.

إذن، يوجد بكل تأكيد شيءٌ مُتناقض بين البنية النحيلة والشعر الأسود الطويل القوي، إذا استندنا إلى خبرتنا العادية، ولكن إن أخذنا خبرتنا إلى ما هو أبعد من نطاق المألوف، لو

ذهبنا إلى مطعم فرنسي أو إيطالي في منطقة «سوهو» مثلًا، فسنجد أنه من النادر العثور على رجل يفتقر إلى شعر وجه قوي، وغالبًا ما يكون أسود اللون. ولا حاجة لإضافة أن نموَّ الشعر بكثافة على الوجه هو دليلٌ افتراضي على أنه ينمو بكثافة في باقي الجسم، باستثناء راحتَي اليدين وباطن القدمين. (وتجدر الإشارة هنا مرةً أخرى إلى أن الطبيب هو من أدلى بهذه الملاحظات الفسيولوجية).

والآن يستتبع هذا دليلٌ آخر معقَّد. ورد أن الشعر طويل وأسود وقوي؛ أي إنه أسود وكث وغير مجعَّد.

أي شخص رأى، بحكم تجربته الطبية، العديد من الإنجليز، سيُوافقني الرأي في أن شعر الجسم هنا في إنجلترا نادرًا ما يكون أسود، ونادرًا ما يكون طويلًا، ويميل عمومًا إلى أن يكون مجعَّدًا.

والآن، إذا ذهبت إلى المقاهي الفرنسية والإيطالية التي سبق الإشارة إليها، فستجد أن اللِّحى سوداء وقوية جدًّا، وكل شعرة فيها مستقيمة.

ومن ثَم فالاستنتاج الثالث هو أن:

عظام وجلد الأشلاء تُشير إلى أنها تخصُّ شخصًا أجنبيًّا وليس إنجليزيًّا.

ما تحمله الأشلاء من أدلة: ما تحمله الأشلاء من أدلة يُثبت جدليًّا أن القتيل كان أجنبيًّا مُتعلمًا، وأنه طُعن حتى الموت على يد شخص واحد أو أكثر من المتعلمين الأجانب.

والآن، ما الدليل الذي يمكن تقديمه لدعم هذه النظرية؟

حسنًا، يوجد الكثير من الأدلة.

أولًا: تُظهر الشكاوى التي قدَّمتها الحكومة الفرنسية إلى إنجلترا، ونتائج تلك الشكاوى، بوضوحٍ شديدٍ أن لندن هي مأوى العديد من الأجانب العازمين على الانتقال. في الواقع، كانت لندن دومًا، ولا مجال للشك في ذلك، هي الملاذ الآمن للاجئين الذين لا يمكن إخراجهم منه.

ومن هنا كانت لندن على الدوام مَعقل الأجانب الساخطين المنفيِّين.

ومن ثَم، إذا أمكن إثبات أن الأجانب الساخطين المنفيين يميلون إلى ارتكاب جرائم قتل، فيمكن إثبات أن لدينا هنا في لندن أجانب مستعدين للقتل.

تُظهر الخبرة أن ميل الأجانب الساخطين إلى الاغتيال هو مفهومٌ مشترك بينهم. لا حاجة للإشارة إلى محاولات اغتيال إمبراطور فرنسا، ولا إلى محاولات اغتيال والد ملك نابولي الراحل، ولا حاجة للإشارة إلى أنه في الحالات السالف ذِكرها كان القتَلة يعيشون في

لندن، وأنهم قد شرعوا عمومًا في تنفيذ خُططهم من لندن. كل ما هو مطلوب أن تتحدث عن الطغيان مع أول عشرين أجنبيًّا قد تُقابلهم، سواء كانوا صالحين أو سيئين أو لا مُباليين، وستجد أن الفكرة المعتادة لديهم فيما يتعلق بمواجهة الطاغية هي اغتياله، وليس الإطاحة به بإرادة الشعب.

من المحتمل أن هذه النظرية هي النتيجة الطبيعية لغياب قوة التأثير في الناس، وهو ما نمتلكه نحن الإنجليز. إننا ننسب الفضل لأنفسنا في بُغْضنا لاغتيال الطغاة، ولكن لا ينبغي أن ننسى أبدًا أننا هنا لسنا بحاجة إلى الاغتيال؛ فإرادة الناس وحدها (عندما يُمارسونها) تكفي لتحريك أي معارضة.

بمجرد الاعتراف بالاغتيال كأداة مساعدة قيمة في تدمير الطغيان، سندرك استنتاجًا من ذلك قيمته العامة باعتباره وسيلةً لتحقيق العدالة والتحرر.

والآن طبِّق هذه الحجة على خيانة أحد أعضاء جمعية سرية، وستفهم اقتراح أن القتيل كان عضوًا في جمعيةٍ سياسيةٍ سرية، وأنه إما كان خائنًا، أو افتُرضت خيانته للجمعية السرية التي كان ينتمي إليها.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل توجد جمعياتٌ سريةٌ أجنبيةٌ قائمة في لندن؟

هل لها وجود في الخارج؟ بلا شك. حتى هنا في إنجلترا الحرة توجد عشرات الجمعيات السرية ذات الطابع الشبيه بالأخويات، مثل الماسونيين، وجمعية فورسترز، وجمعية «أود فيلوز» (الزملاء الغريبون) ... إلخ.

وإذا كان للأجانب جمعياتٌ سرية في الخارج، على الرغم من وجود الشرطة، فلماذا لا يكون لها وجود هنا، حيث يتمتعون بحريةٍ تامة لتشكيل أكبر عدد ممكن من الجمعيات السرية كما يشاءون؟

من أين أتت الأموال التي جهَّزت العديد من الرجال المُفلسين وأرسلتهم إلى القارة الأوروبية لاغتيال هذا الملك أو ذاك؟

يُعتبر الاستنتاج بأن أعضاء المجتمعات السرية هم من يوفِّرون المال استنتاجًا جيدًا؛ فمن أين يمكن أن يحصلوا على المال بخلاف ذلك؟ المنفيُّون أنفسهم ليسوا أغنياء، ولكن إذا ادَّخر عشرون أستاذًا مقتصدًا جنيهين لكل واحد منهم، على مدى ستة أشهر، فسيكون لديهم أربعون جنيهًا ليستخدموها في أي غرض.

وهل يوجد أي دليل قوي آخر غير الأشلاء على أن القتيل كان أجنبيًّا؟ أجل، يوجد.

في المقام الأول، أظهرت حالة تلك الأشلاء أن الوفاة كانت منذ وقت قريب؛ لنقل إنها حدثت منذ يومين.

الآن، هل كان يوجد أي رجل مفقود خلال هذين اليومين يمكن الربط بينه وبين القتيل بأي شكل من الأشكال؟

إذا كان كذلك، فإنه لم تُقدَّم للشرطة أي عريضة تُفيد ذلك.

لو كان القتيل رجلًا إنجليزيًّا، ولم يكن كل من كانوا يعرفونه متورِّطين في مقتله (وهو افتراضٌ بعيد الاحتمال للغاية)، فيبدو واضحًا جدًّا أن اكتشاف وقوع جريمة القتل، استنادًا إلى ذلك، قد حدث بسرعةٍ شديدة، وأنه لا بد أن تكون الشرطة قد توصَّلت إلى بعض مفاتيح حل هذا اللغز.

لنفترض أنه لم يكن للرجل الإنجليزي المزعوم أي صلات في لندن (إذ يجب قبول أن جريمة القتل قد ارتُكبت في المدينة على أنه حقيقةٌ مؤكدة، فمن الصعب أن نفترض أن الرفات جُلِب إلى لندن لإخفائه)، وأنه إن لم يكن له أصدقاء، فلا بد أنه كان لديه خدم أو صاحبة منزل أو أرباب عمل. إن كان أيٌّ من هؤلاء موجودًا، فمن المؤكد أن الإعلان عن الجريمة كان سيتبعه بعض الاستفسار عن المسألة من قِبل بعض من هؤلاء الأشخاص.

ولكن أحدًا لم يستفسر عن شيء.

لم يُقدَّم للشرطة أي دليل يمكن ولو للحظةٍ واحدة اعتباره ذا قيمة، مع أنه ربما لا يكون من المبالغة القول إن كل شخص في لندن، بوسعه استيعاب هذه القضية، قد سمع بها وتحدَّث عنها في غضون أربع وعشرين ساعة من اكتشافها، وهذا بفضل قوة الصحافة وانتشارها (أشير على سبيل المثال إلى القضية الأخيرة الخاصة بتسميم زوجة وأطفال في عربة أجرة. اكتُشف الجاني خلال أربع وعشرين ساعة من نشر خبر الجريمة، ومن خلال عدة أشخاص ليسوا على صلة مطلقًا بالعائلة التي وقعت فيها الكارثة).

ولكن انظروا إلى أي مدًى سيتوافق هذا الغياب لأي استفسار عن المسألة هذا مع كَوْن القتيل لاجئًا أجنبيًّا يعيش في هذا البلد.

أولًا: يعيش هؤلاء اللاجئون معًا، ويدخلون بكل أريحية منازلَ بعضهم بعضًا، ويتزاورون كثيرًا وفي أغلب الأحيان، حتى إنه سيكون من شأن صاحبة المنزل الإنجليزية أن تُواجه بعض الصعوبة في تمييز من كان أو لم يكن مستأجرًا عندها. ومن المستبعد للغاية أن تلحظ السيدة غياب أجنبي كان يُقيم مع مُستأجرها الأجنبي لعدة أسابيع؛ ومن ثَم فيمكن بكل سهولة ألا يُثير غياب شخص، لا يمكن التعرف على مكانٍ محدد له، من أي مكان، أي شكوك.

ثم دعونا نرى كيف يتفق هذا الفقر المفترَض في العيش مع فكرة أن يخون لاجئٌ مجتمعه السري بدافع العَوز ليكسب رزقه عن طريق إفشاء أسراره لشرطة بلده الأم.

أو قد يكون، من الناحية الأخرى، جاسوسًا بالفعل لدى الشرطة، أرسلته حكومة بلده كي يلعب دور اللاجئ والرجل البائس الفقير، لتتوغل في خفايا المتآمرين على نحوٍ أفضل.

ثم لاحظوا كيف تُتجنَّب كل فرص التعرف على القتيل بغياب الرأس؛ فقد كان الغرض من التخلص من الأشلاء بربطها ورميها من فوق الجسر بحبل، هو أن يُلقى في صمتٍ عبء الحقيقة القبيحة لهذه الجريمة في نهر التايمز. لم تكن فكرة أن تستقرَّ الحقيبة على دعامة الجسر مطلقًا جزءًا من الإجراءات الاحترازية التي نفَّذها القتَلة بإتقان، ومع ذلك فقد ظهرت حاجتهم إلى ضرورة الحفاظ على السرية التامة في عملية إخفاء الرأس المُتقَنة.

وما الغرض من ذلك؟ ربما يكون الفاعلون الرئيسون في جريمة القتل متأكدين من أن الرأس قد دُمِّرت، أو يحتمل أن تُرسَل إلى رئيس الجمعية السرية لإثبات موت الخائن بما لا يدع مجالًا للشك.

ثَمة أمرٌ آخر من المهم للغاية وضعه في الاعتبار، وهو التحقق من سبب اتِّباع مثل هذه الوسائل للتخلص من الرفات. سيُلاحَظ أنه كان لا مفرَّ من تنفيذ العملية البغيضة المتمثلة في تقطيع الجثة، وأنه، من ثَم، كان لا بد من تنفيذ الفعل الخطير المتمثل في حمل حقيبة تضمُّ رفاتًا بشريًّا أو أخذه في عربة أجرة عبر الشوارع وصولًا إلى النهر، وأن ينفَّذ ذلك ليلًا على الرغم من شناعته لجميع الأطراف؛ فالشرطة تكون مُتنبهة على نحوٍ خاص إلى الاستفسار عن طبيعة الطرود والحقائب التي تُحمَل في هذا الوقت من اليوم. في كثير من الأحيان، ستتوقف الشرطة وتفحص بشكلٍ مسوَّغ الأغراضَ الثقيلة التي يحملها الناس في الشوارع أثناء الليل.

إن مواجهة كل هذه المخاطر الهائلة — ناهيك عن الخوف من حدوث ما قد يعطِّلهم أثناء الفعلة الأخيرة المتمثلة في إنزال الحقيبة المصنوعة من نسيج السجاد إلى النهر — تؤيد ضمنًا فرضية أن القتلة لم يتمكنوا من التخلص من الجسد بأي طريقة أخرى أقل خطورة.

ما هو الأسلوب الذي عادةً ما يتبعه القتلة لإخفاء أبشع الآثار لجرمهم المتمثلة في القتيل؟ عادةً ما يتبعون أبسط الأساليب وأسلمها؛ ألا وهو إخفاء الجثة تحت الأرض.

لن تكشف جثةٌ مدفونة على عمق عشرة أقدام تحت الأرض، حتى وإن كانت في قبوٍ مغلق لمنزل، السرَّ الخفي بأي صورة كانت، وكذا لن تُكتشَف الجثة المدفونة في الكلس الحي في ظل ظروف مُماثلة، حتى وإن كانت على عمق أربع أو ثلاث أقدام فقط تحت الأرض.

الدفن هو أنجع وأبسط طريقة للتخلص من جثة قتيل. إذن لماذا لم يدفن القتلة المذكورون الجثة، وبدلًا من ذلك خاضوا سلسلة من المخاطر المُخيفة التي أدَّت في النهاية إلى اكتشاف الرفات؟

الجواب واضح، وهو أنه لم يكن لديهم وسيلة للدفن. بعبارةٍ أخرى، إن جريمة القتل نُفِّذت في منزل لم يكن الطابق الأرضي فيه تحت سيطرتهم، فكان من المستحيل دفن الجثة؛ لذا كان لا بد من التخلص منها بطريقةٍ أخرى؛ ومن ثَم فالاستنتاج هو أن شاغل المنزل كان مُستأجرًا وليس مالكًا له.

والآن استعلم في منطقة سوهو وستجد أن اللاجئين نادرًا ما يصبحون أصحاب منازل. يحتمل أنه يحدوهم دائمًا الأمل في العودة إلى بلادهم، فربما لا يرغبون أبدًا في اتخاذ أي خطوة قد تبدو لهم كأنها محاولة للاستقرار في بلدٍ أجنبي؛ لذا سنجد أنهم يفضِّلون المساكن المستأجرة، وأن أصحاب المنازل في الشوارع التي يرتادها هذا النوع من الناس باستمرار هم إما من الإنجليز أو من الأجانب الذين لا ينتمون لفئة اللاجئين، مثل السويسريين (غالبًا)، والأشخاص من طبقة النوادل الذين دخلوا عالم إدارة الممتلكات الأجنبية باستخدام مدَّخَراتهم.

أدرك أن ثَمة اعتراضًا واحدًا جيدًا على هذا الجزء من خُطتي، وهي الملاحظة التي مفادها أن القتل ربما يكون قد ارتُكب في منزلٍ يسكنه القاتل أو أصدقاؤه، وأنه ربما لا يوجد فناء ملحق بالمنزل، أو يوجد فناء لكنه مكشوف للغاية، أو أن الطابق الأرضي كان مشاعًا أكثر من اللازم، ويُستخدم بكثرة بحيث لم يسمح ذلك بأي وقت لإزالة الألواح واستبدال الأرضية ودفن الجثة.

ومع ذلك، ألتمس منك مرةً أخرى أن تستحثَّ لديك تبنِّي عقيدة الاحتمالات. إن قبول النظرية القائلة بأنها كانت جريمة قتل ارتكبها أجانب، وعدم إنكار القول بأن اللاجئين الأجانب، بوجهٍ عام، نادرًا ما يصبحون أصحاب منازل، يؤدي إلى أن يكون الاحتمال الأرجح هو أن القتلة لم يكن لديهم أي أرض لدفن الجثة من الأساس، وليس أنه كان لديهم أرضٌ تحت سيطرتهم، ولكن الظروف منعتهم من استخدامها.

صحيحٌ أنه توجد نقطةٌ مُربِكة في حقيقة أن الجسر الذي اختير للتخلص من عبء جريمتهم لم يكن قريبًا للغاية من المنطقة التي يعيش فيها اللاجئون، كحال «الجسر المعلق» القريب. للوهلة الأولى، قد يبدو غريبًا أنهم لجئوا لمخاطرةٍ أطول بنقل الرفات إلى جسرٍ ليس هو الأقرب إلى مسرح الجريمة، ولكن يجب أن نتذكر أن الجسر المعلق لم يكن به تجاويف، في حين أن الجسر الفعلي المستخدم كان به الكثير منها؛ وبذلك كان الجسر المعلق مكشوفًا أكثر وأفضل إضاءة من الجسر الآخر. لا بد أن تؤخذ هذه الاقتراحات على عواهنها. إنني مستعدة للاعتراف بأنه لا يزال غريبًا أن تتمَّ محاولة التخلص من الجثة

عند الجسر الأبعد، وأُقرُّ بأنه لا يبدو أن المزايا الواضحة لاختيار الجسر المستخدم، بدلًا من الجسر المعلق، تعوِّض عن تكبُّد تلك المخاطر الإضافية.

دع أولئك الذين يعترضون تمامًا على هذه النظرية بأكملها، يقدِّمون تفسيرًا للغزٍ لم يتم حله مطلقًا؛ دعهم يستفيدون أقصى استفادة من نقطة ضعف.

يبدو لي أن الاحتمال المقبول هو أن القتيل كان جاسوسًا وسط رجال، بتمسكهم بنظرية عدالة الاغتيال، قد أدركوا بالضرورة قيمتها فيما يتعلق بجاسوسٍ يعمل لصالح طاغية. وعلاوةً على ذلك، لكي أستوفي الآن أمر الجواسيس، لن يميل إلا قلة من الناس إلى إنكار أنه دائمًا ما يُتعامَل بصرامةٍ شديدة مع الجاسوس، مهما كان الشكل الذي يتخذه.

إن الافتراض الذي قبِلناه من قبلُ بأن القتلة لم يتمكنوا من دفن الجثة، يستتبعه نتيجةٌ شِبه طبيعية هي استخدام نهر التايمز لإخفائها؛ لذا تبدو فكرة إخفاء الجثة تحت الماء، عندما لا يكون ممكنًا استخدام الأرض لإخفائها، فكرةً طبيعية للغاية؛ فما هي الطريقة الأخرى التي يمكن التخلص بها من الجثة بسهولة؟

لقد وفَّر نهر التايمز السرية، أما مخاطر نقل الجثة فكان من الممكن التغلب عليها. وكانت وسيلة الإخفاء هذه، مع ما اشتملت عليه من مخاطر على القائمين على الأمر، أفضل بكثير من ترك الرفات في الشارع؛ وهو أسلوبٌ لن يتَّبعه إلا مجنون (اتُّبع هذا الأسلوب منذ بضعة أشهر مع العديد من الأطفال الذين وُلِدوا أمواتًا. جرت التحقيقات، وتبيَّن أن مرتكب هذا الأسلوب المكشوف للتخلص من الرفات البشري كان طبيبًا عانى كثيرًا من مرض الهذيان الارتعاشي لدرجة أنه يمكن أن يقال عنه إنه مجنون).

لو لم تستقرَّ الحقيبة على دعامة الجسر، فمن المؤكد أنه ما كان أي ملمح يخص الجريمة سيخرج للعلن على الإطلاق. قد يكون شخصان أو أكثر مُتورطين في هذه الجريمة، لكنهم التزموا جميعًا الكتمان التام. يستحيل التكهن بما إذا كان هذا الصمت نتيجةً لانتمائهم لأخويةٍ ما أو بداعي الخوف، ولكنه ربما يكون بسبب الخوف. إن نجاح هذه الجريمة من شأنه أن يُخيف أي عضو في مجتمعٍ سري فكَّر في خيانة رفاقه.

لا يتبقى إلى جانب ما سبق أن عرضته على القارئ، سوى إضافة حقيقتين تستدعيان القليل من التعليق أو لا تستدعيان أي تعليق:

(١) لاحَظ محصِّل الرسوم عند أحد طرفَي الجسر أن الحقيبة كانت ثقيلة الوزن عندما رفعها فوق حاجز بوابة الرسوم أثناء الليل.

(٢) وذكر أنه فعل هذا المعروف لامرأةٍ ظن بعد ذلك أنها لا بد كانت رجلًا يرتدي ثيابًا نسائية.

لا أرى أي قيمة لهذا الدليل.

(١) لم يكن التعرف على الحقيبة أمرًا ذا قيمة.
(٢) لا يبدو أن الرجل لاحَظ أي شيء غريب في حامل الحقيبة إلا بعد اكتشافها على دعامة الجسر؛ ولذلك فشهادته غير موثوق فيها.

كل ما يتعين أن أفعله الآن هو صياغة النتيجة التي استخلصتها من الدليل النظري أعلاه.

يمكن وضع النتيجة قيد البحث كالآتي:

الاستنتاج: أن رجلًا أجنبيًّا راشدًا، ولكنه ليس كهلًا، قُتِل طعنًا بأيدي أعضاء ينتمون إلى جمعيةٍ سريةٍ أجنبية تضمُّ رجالًا مُتعلمين كان قد خانهم. إن جريمة القتل هذه ارتكبها مُستأجرون، وعلى الأرجح في طابقٍ آخر غير الطابق السفلي، وفي منزلٍ يقع في منطقة سوهو.

ها قد وُضِعت نسخة من هذا البيان بين يدَي القارئ، ولكن نسخة مختصرة وتقنية إلى حد ما قُدِّمت إلى السلطات، ولكن بقدر ما تمكَّنت من معرفته لم يُقبَل البيان أبدًا على أن له أي قيمة.

لقد باء التحقيق بالفشل، كما يعرف العالم كله.

لا عجب في ذلك.

تُرِك الأمر في يد الشرطة الإنجليزية، التي شرعت في عملها وفقًا لقواعدها التقليدية، ومن الواضح أنه إذا كان من ارتكبوا جريمة القتل من الأجانب، وأنهم ارتكبوها في حيٍّ أجنبي، فإنه توجد فرصةٌ ضئيلة لاكتشاف الأمر.

أعتقد أن الحجة الأساسية التي أُخذت ضِدي في الوقت الذي أرسلت فيه تقريري كانت على النحو الآتي: إذا كانت افتراضاتي القائلة بأن القتيل كان جاسوسًا لحساب جهاز شرطة أجنبي صحيحة، فإن الدعاية التي حظي بها خبر اكتشاف الرفات كانت ستؤدي إلى اتصالٍ عاجل أو آجل من مدير شرطة أجنبي يُفيد بوجود ضابط مفقود.

لم أرد على الاعتراض، ولكن كان بإمكاني أن أقول، مثلًا، إن الشرطة الفرنسية لا ترغب على الإطلاق في الإعلان عن أعمالها، وإن مدير الشرطة الفرنسية يفضِّل أن يخسر رجلًا،

وأن يُضيِّع فرصة القصاص من المجرمين، على أن يخدم العدالة بالإقرار بأن جاسوسًا سياسيًّا فرنسيًّا كان في لندن.

إن صمت مُديري الشرطة الأوروبية في ذلك الوقت لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال دليلًا على أنهم لم يفقدوا مسئولًا كان قد أُرسلَ إلى إنجلترا.

لقد فشلت القضية فشلًا ذريعًا.

ولم يكن من الممكن أن يحدث خلاف ذلك.

كيف يمكن للشرطة الفرنسية أن تنجح، إذا شرعت في العمل في منطقة «بيثنال جرين» للقبض على قاتلٍ إنجليزي؟

كانت ستفشل هي الأخرى فشلًا ذريعًا.

لا يوجد شك في ذلك، ولأولئك الذين لديهم أي معرفة بنظام الشرطة الإنجليزية، والذين يختارون أن يكونوا صريحين في ذلك، أقول إن الأمر يتطلب إدخال المزيد من أعمال الذكاء. إن الكثير من رجال الشرطة يتمتعون بذكاءٍ استثنائي، ولديهم القدرة على اغتنام الحقائق بمجرد ظهورها، لكنهم غير قادرين على اكتشاف ما يجري في الخفاء. إنهم يعملون على نحوٍ جيد في النور، ولكن عندما يكونون في الظلام لا يكون أمامهم خيارٌ سوى تحسُّس طريقهم على غير هدًى.

لو كانت قد أُجريت تحرِّيات حول مساكن الإيجار الأجنبية، التي يرتادها عددٌ كبير من الأجانب، ولو كانت قد أُجريت بضع عمليات تفتيش قانونية تمامًا، فربما كان ذلك سيؤدي إلى اكتشاف أرضية جديدة ملطَّخة بالدماء؛ فكما هو واضح، إن كان الجاسوس قد سقط أرضًا بعدما طُعن من الخلف، فلا بد أن دمه قد سال على الأرض وكتب قصته عليها.

لا بد أن بُقَع الدم هذه ما زالت موجودة لو لم يُحرَق المنزل الذي وقعت فيه جريمة القتل على بكرة أبيه، ولكنني أشكُّ في أن تُجري الشرطة فحصًا بشأنها في هذا الوقت أو في أي وقت آخر، بحكم أن الجريمة قد ارتُكبت منذ وقت طويل.

تُظهر الخبرة أن فرص اكتشاف جريمة قتل تتناسب عكسيًّا مع زمن وقوعها. يمكن القول تقريبًا إنه إذا يُمسَك بأي خيط في غضون أسبوع من اكتشاف جريمة، تقل فرص تعقُّب المجرم يومًا بعد يوم حتى تتضاءل تمامًا.

دعونا لا نفترض أنني أدعو إلى إحداث أي تغيير غير دستوري في نظام المباحث، بل إنني، على العكس تمامًا، متأكدةٌ تمام التأكد من أن أي إعادة هيكلة غير دستورية لتلك

القوة لن تقوى على الاستمرار لأي فترة من الزمن، كما ثبت من الاعتراض البرلماني الأخير ضد تجاوز الشرطة غير المقبول لواجبها، الذي سبق أن أشرت إليه.

حُجتي التي أقدِّمها هنا هي أنه لا بد من إدخال المزيد من الذكاء في عمل نظام الشرطة، وأنه من المستحيل أن يتطابق الروتين دائمًا مع جميع أشكال الجريمة، وأخيرًا أنه لا بد من اتخاذ الوسائل اللازمة لتجنُّب أكبر قدر ممكن من الفشل الذي تتكبَّده سلطات الشرطة السرية، والذي يمكن توثيقه علنًا.

لنأخذ في الاعتبار القضية التي ذكرتها.

ما هي الأدلة التي قرأها الجمهور أو عرفها لإثبات أنه قد اتخذت أي تدابير أخرى غير التدابير العادية لحل لغز جريمة استثنائية؟

من الواضح أنه في حين أن التدابير العادية فقط هي ما يُطبَّق للكشف عن الجرائم غير العادية، تُمنَح مكافأة الإفلات من العقاب إلى مُرتكبي الجريمة السالفة الذِّكر، وهي مكافأة مسروقة كما يمكن أن تكون في كثير من الأحيان. أيًّا كان الأمر فمن المؤكد أن لغز الجسر لم يُحَل أبدًا.

حكم الضمير

كان يعيش في فقرٍ مُدقِع، ولكنه كان مُواطنًا صالحًا.

تعرَّفت على جون كامب عن طريق مسألة تافهة للغاية، كما ستعرفون لاحقًا.

كان حينئذٍ يبلغ من العمر ثلاثين عامًا تقريبًا، وغير مُتزوج. سرعان ما عرفت أن لديه رغبةً كبيرة في الزواج، ولم يكن يرغب في الزواج من شخص بعينه. بدت لي رغبته غير نابعة من أي عاطفة شخصية، بل من العقل.

لا أظن أنني قلت إنه كان صانع أحذية.

أنا على وشك أن أسرد قصةً رومانسية عن صانع الأحذية هذا، ولكنني لن أغلف السرد بأي حالة من الحالات الرومانسية الباريسية المعتادة. لقد كان صانع أحذية لندنيًّا عاديًّا وأخرق، ولم يكن مهندمًا للغاية، وكان بالكاد يكسب ما يُغطي تكاليف المعيشة، ولا يأكل اللحم إلا مرةً واحدة في الأسبوع — يوم الأحد على وجه التحديد — ويعيش على الأسماك المملحة، والرنجة، والقواقع، ونحو ذلك من طعام الفقراء المبارك طوال الأسبوع. لماذا أقول على الأسماك المملحة والرنجة والقواقع إنها طعامٌ مبارك؟ ببساطة لأنها رخيصة الثمن ووفيرة، وتُقيم أود الفقراء، ولولاها كانوا سيُعانون من نظامهم الغذائي الفقير؛ كانوا سيُعانون ليس من وطأته، بل من ضآلته.

لم أرَه مخمورًا قط خلال الأشهر العديدة التي عرفته فيها، ولم أسمعه يتلفَّظ بأي كلمة عنيفة قط، ودائمًا ما كان يتبع توجهًا فكريًّا جديدًا.

كان أحد أفراد الطبقات الدنيا.

ربما يوجد العديد من الرجال مثله وسط الطبقات الدنيا. هذا ما آمله؛ فمع أن الكثيرين يعيشون ويموتون دون أن يتركوا بصمتهم في تاريخ العالم، فقد عاشوا حياتهم بشرف،

وحسب ما نراه يوميًّا في جميع الطبقات، لا بد أن تكون ذكرى حياة طيبة، حتى إن كانت ضائعة، تعزيةً عظيمة جدًّا على فراش الموت.

لم يكن رجلًا سعيدًا، مع أن تعاسته لم تبدُ لي نابعةً من الظلم الذي حاق به على يد العالم، ولكن من الوعي بأنه كان محرومًا من فعل الخير لبني جيله.

أرجوكم لا تُسيئوا فهمي، أو فهمه.

لم يتصرف كأنه رجلٌ يشكو من ظلم العالم له لأن العالم فشل في فهمه. لم تكن شخصيته ساخرة ولا مُتشائمة ولا حزينة، ولكنني متأكدة تمامًا أنه كان يشعر بالأسف في الأغلب لأنه لم يستطع فعل خير للعالم بخلاف عيش حياة مُواطن صالح (وهو وضع لم يكن يقدره بما يكفي)، وأن العالم قد عامله بطريقةٍ حالت دون أن يتمكن من أن ينفع المجتمع.

لا أقول إنه كان مُحقًّا في شعوره بأن العالم لم يكن مُنصفًا معه. إنني مُدركة تمامًا أن المجتمع لا يمكنه البحث عن الشباب النابغين أو يتكهن بوجودهم؛ فأنا لا تُعوزني معرفة أن العالم على استعداد لمكافأة عبقرية بعينها وبسخاء، ولكنه ليس مستعدًّا لرعايتها قبل أن تصير معروفة. ومع ذلك فأنا لا أدين جون كامب لشعوره بمرارةٍ أكبر تجاه العالم أكثر مما كان يبوح به عمومًا، ولا بتمسُّكه بالاعتقاد بأن العالم قد أضرَّ به بإهماله إياه.

صحيحٌ أن الرجال يصنعون أنفسهم بأنفسهم أو يُساعدهم أصدقاؤهم في ذلك، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن رجلًا فقيرًا جاهلًا، يُعاني في الحياة الأخرى بسبب أن قُوى العالم لم ترعَه عندما تركه أبوان مُهملان جامحًا دون توجيه، ينبغي أن يفكر مثل هذا الشخص بهذه الطريقة.

اسمعوا حجته.

«أعرف أن لديَّ ما من شأنه أن يُفيد العالم، ولكن يديَّ مكبَّلتان بالجهل، وأنا شابٌّ بلا حول ولا قوة، ولا بد أن أعيش كذلك، وأن أموت كذلك.»

ما رأيكم في تلك الحجة؟ إنه من الخطأ الإيمان بها، ولكنها طبيعية للغاية.

مع ذلك، قد يقول البعض إن العديد من الرجال الذين لم تكن مكانتهم الاجتماعية أعلى من جون كامب، قد نجحوا في الارتقاء بأنفسهم إلى مكانةٍ بارزة، ولكن في حالاتهم، كقاعدة عامة، تلقَّى هؤلاء الرجال الرعاية في شبابهم المبكِّر، ووُضع أساس للبناء عليه لاحقًا. مثال ذلك بلومفيلد؛ وهو أحد العباقرة الذين ارتقَوا من الحِرفة الوضيعة التي انتمى إليها كامب.

مرةً أخرى، كانت طبيعة موهبته تستلزم المساعدة في إظهارها؛ فالرجل الذي يمتلك موهبة في الكتابة يتزوَّد بريشة، ورزمة من الورق، وزجاجة حبر، وسكين قلم. أما الرسَّام فعليه المضي إلى ما هو أبعد من ذلك، وأن يشتري مجموعةً باهظة الثمن من الألوان وقماش الرسم، ولكن عندما تأخذ موهبتك الشكل الإسقليبيوسي، أي عندما يكون شغفك أن تكون طبيبًا، لا يمكنك الشروع في ممارسة موهبتك فورًا؛ فلا بد أن تعمل بصبرٍ سنوات طويلة ومكلِّفة، ثم تبدأ في الصعود بتواضع وببطء، وألا تستخدم معرفة بجرأة في البداية؛ لئلا تظهر حداثة تلك المعرفة وكأنها جهل، وأن تُقاتل لسنوات وسنوات، وربما طوال حياتك، قبل أن يتطلع العالم إليك ويصيح قائلًا: «انظروا إليه! لقد نفع كل الناس.»

أن ينفع العالم؛ كان هذا هو ما يطمح إليه بشغف جون كامب، الإسكافي، البالغ من العمر ثلاثين عامًا.

وبينما أكتب أتذكَّر المناسبة التي التقَينا فيها لأول مرة. دائمًا ما تكون الحشود في الشارع عامل جذب للمحقق؛ لأنه قد يحدث — وهو ما يحدث فعلًا في الأغلب — أن يكون مطلوبًا منه إتمام مهمة بعينها.

رأيت حشدًا في إحدى الليالي في المناطق التقليدية في حي «وايت تشابل»، وتبيَّنت اثنين مباشرةً، إذ وجدت امرأةً فاقدة الوعي ورجلًا، يبدو ضعيفًا ولكن تظهر عليه أمارات التعقل، يتعهَّد المرأة التعيسة الحظ بالرعاية.

وإذ لم أُولد لأُصدِر الأوامر، ولا كنت مُعتادة على تلك الرفاهية، تيقَّنت بمجرد أن وقعت عيني عليه، أنه كان يبدو في مكانه الطبيعي في هذا الموقف؛ يفعل ما يعرف أنه في حدود قدرته، ودون التأثر بأولئك الذين كانوا من حوله.

بينما كنت أقترب، سمعته يقول: «تنحَّوا جانبًا أيها الرفاق! إذا كان ثَمة شيءٌ تحتاجه هذه السيدة بشدة، فهو الهواء النقي. من فضلكم، تنحَّوا جانبًا أيها الرفاق!»

وهذا ما شرع «الرفاق» في فعله بالتراجع للوراء قدمين تقريبًا، ثم على الفور تقدَّموا إلى الأمام أكثر من قدم ونصف.

«انظروا هنا يا رفاق؛ لا تُثبتوها هكذا.» قال هذه التوجيهات إلى الرجال الذين كانوا يُثبتون المرأة المسكينة بقوة من شأنها أن تُعيق أحد جنود حرس الشرف الملكي. أردف قائلًا: «ارفعوها جيدًا، وقليلًا على أحد جانبيها، بحيث يتدلى رأسها قليلًا إلى أحد الجانبين؛ إذا كان أي شيء قد دخل في حلقها فستختنق إذا ثبَّتموها يا رفاق. ربما تكون غيبوبة من التي تحدث بسبب الوهن. هل يمكن أن يذهب أحدكم يا رفاق ويشتري القليل من البراندي بثلاثة بنسات؟»

وهو ما فعله أحد الرفاق؛ الذي كان فاسق المظهر، والذي أخشى أن تكون مهنته الحقيقية هي السرقة، ولكن بدافع الإنسانية، حتى بين اللصوص، لا بد أن أقول إنه عاد وهو يحمل البراندي وبعض الماء في قصعةٍ تخص إحدى الحانات.

كانت الحالة هي واحدة من تلك النوبات العادية التي تحدث في الواقع بسبب الضعف المرتبط بحالةٍ نفسية غالبًا ما تكون صرعًا. كانت هذه المسكينة رفيعة وباردة ورثَّة الثياب وهزيلة، وهي المآسي التي نراها نحن أفراد الشرطة يوميًّا لدرجة أننا نعتاد عليها بشدة بحيث ينظر إليها أقلنا رحمةً باعتبارها أمورًا مُزعجة.

انتظرت حتى استعادت المرأة المسكينة وعيها و«عادت إلى العالم» حسب التعبير الدارج، وحتى نظرت حولها، كما لو كانت قد وُلدت في عالمٍ غريب؛ استعادت حواسَّها البائسة واستجمعت شتات نفسها، وتلفَّظت بخجل ببعض العبارات التي بدت كأنها أعذار، واستعدَّت لأن تنسلَّ بعيدًا.

قال الطبيب المُرتجل: «هيَّا يا رفاق، لنُعطِها بعض المال. هيَّا نجمع بعض المال.»

يؤسفني القول إن الشك تفشَّى فيَّ لحظةً، ونظر المحتشدون بتشكك إلى فاعل الخير الطيب، قائلين إن هذا يكفي.

كما أنبأت نظرات التشكك، لم يتجاوز المبلغ الذي جُمِّع، كما أتذكر، بنسين ونصفًا، فأعطى فاعل الخير الطيب (وهو يرمق الحشد بنظرات ازدراء) هذا المبلغ الزهيد إلى المرأة المسكينة، التي ظهر عليها الخجل والأسف أكثر من أي وقت مضى وهي تتلقى هذا الإحسان.

أما أنا فتتبعت فاعل الخير، الذي عرفت من ملابسه أنه كان عاملًا عاديًّا جدًّا.

تبعته دون أي نية سيئة إلى حي «البرج» حتى دخل منزلًا شديد الفقر، لدرجة أنه لم تكن ثَمة حاجة لغلق الباب الذي كان يتأرجح بكسل دون رِتاج.

في نفس الأمسية، قمت ببعض الاستفسارات في محلٍّ تُديره أرملة، أبدت رغبةً قليلة في البيع ورغبةً كبيرة جدًّا في الكلام، لدرجة أنني تفحَّصت الكثير من الأغراض التي كانت تعرضها للبيع كمجرد حجة. أخذت أفحص نوعًا من المظلات التي تُشبِه المظلات الرسمية التي يستخدمها الناس لإخفاء وجوههم من الفضيحة.

لم أكن مخطئة؛ فعندما تعرَّفت على الجوار على نحوٍ أفضل، تأكَّدت من أن محل السيدة «ويدو جرين» كان مُلتقى الشارع، وكان يُضاهي أي تجمُّع اجتماعي من هذا النوع في الجانب الغربي، فيما يتعلق بالحديث عن سمعة الناس. أظن أن سمعة شخص واحد على الأقل كانت تُدمَّر كل ساعة خلال ساعات العمل الرسمية.

عرفت الكثير من المعلومات من «ويدو جرين»، والتي كانت بالمناسبة تستخدم أيضًا آلة عصر الملابس الميكانيكية، التي تُعتبر بيانو الفقراء!

كان يبدو أن جون كامب شابٌّ لطيف، ولكن بعض الناس كانوا يعترضون على ذلك ويقولون إنه عكر المزاج بعض الشيء.

بعدما استفسرت أكثر عن هذا القول، تبيَّن أنه كان شابًّا محترمًا، يعتني بأخته، ولا يُسرِف أبدًا في الشراب (كان هذا هو التعبير اللطيف المتَّبَع في الجانب الشرقي للمدينة للإشارة إلى المشروبات الكحولية)، ودائمًا يدفع إيجار مسكنه. ومع ذلك لم يكن يرتاد المحل؛ لأنه لم يكن يرغب في أن يكون مَدينًا لأي شخص (كانت هذه إشارة إلى عدم دعمه للمحل، كما رأيت)، ولكن «ما لم يكن في صالحه هو أنه كان عابسًا»، ومع ذلك فقد كان مُلتزمًا بمواعيده في إصلاح الأحذية، ويستخدم أفضل الخيوط والجلود.

لست بحاجة إلى قول إنه لم يكن صعبًا أن أتعرَّف على آل كامب. كنت مُنشغلةً في ذلك الوقت فيما عُرِف حينها باسم قضية «مخبوزات السكر الكبيرة» (مع أنه قد يبدو للقارئ أن من الغريب استدعاء امرأة محققة للعمل في هذه القضية)؛ ولذلك كنت أعيش في حي «أولجيت وايت تشابل». وحيث إنه لم يكن بوسعي ممارسة قدراتي المهنية إلا في ساعاتٍ معيَّنة، فقد كان لديَّ قدرٌ كبير من وقت الفراغ.

التقيت بكامب في اليوم الثاني من إقامتي المؤقتة في هذا الجزء من لندن، وفي اليوم الثالث تعرَّفت عليه بالاستعانة بحذاء كان يحتاج إلى إصلاح، والذي كنت قد اشتريته من صاحبة منزلي التي كان شكها في الأمر واضحًا؛ لأن تصرُّفي هذا كان غير مُعتاد.

طرقت الباب بقدر ما أستطيع بطريقة الطرقتين التي كنت قد عرفت أنها الأسلوب الذي يتبعه آل كامب، وبعد مرور بعض الوقت — لأن مِطرقة الباب كانت مفكوكة ومعوجَّة، ناهيك عن عدم وجود مِصد — أتت الأخت، كما علِمت لاحقًا، لتفتح الباب.

لم تكن جميلة المنظر؛ فقد كان فكُّها بارزًا لدرجة أنه، للوهلة الأولى، أضفى على وجهها ذلك التعبير الشرير الذي يُشبِه كلب البولدوج كثيرًا، ولكنني، إذ كنت قد اعتدت تدقيق النظر في الوجوه بدلًا من إلقاء نظرة سريعة عليها، أدركت سريعًا أنها كانت شابَّةً لطيفة وجذَّابة (بغضِّ النظر عن فمها وفكها).

لست بحاجة هنا إلى الإسهاب في سرد لقاءاتي الأولى مع جون كامب؛ لأنني لديَّ مسألةٌ أهم لأكتب عنها؛ ولذلك دعوني فقط أقول إنني وجدت أنه كان يبدو رجلًا جادًّا وهو جالسٌ يؤدي عمله الشاق، وكان الضوء الخافت الضبابي يسقط على جبهته، التي كانت

عريضة وضخمة، ولكنها كانت خشنة ومحاطة بشعرٍ أسود باهت المظهر بعض الشيء وناعم، ولكنه غير معتنًى به جيدًا.

يُعتبر كسر الحواجز مع الآخرين وكسب صداقتهم جزءًا من مهنتي، وسرعان ما فعلت ذلك مع كامب.

بعد بضعة أيام كنا على وفاقٍ شديد. قبِلني تمامًا زائرةً له وليس مجرد زبونة. عندما كنت أدخل كان يرفع نظره عن عمله ويبتسم ابتسامةً لطيفة ولكنها مُتعَبة، ثم ينحني فوق عُدَّته ويطرق الجلود التي يعمل عليها.

لقد كان بالتأكيد سيئ الحظ للغاية من نواحٍ كثيرة؛ فقد كان دون شك أسمى من مهنته، ولم يكن يميل إلى الرضا بهذا الحال الذي كانت قد وضعته فيه الصدفة وإرادته، حتى إنه كان مُجبَرًا على التظاهر باحترام مهنته البائسة، ولكنه لم يكن بوسعه أن يشعر بذلك. لم يحاول قطُّ أن يشغل مكانةً عالية في مهنته؛ لأنه على الرغم من كونه حِرفيًّا جيدًا لم يكن قد عمل بانتظام في صناعة الأحذية. كان قد اضطرَّ في وقتٍ مبكر من حياته إلى أن يعمل صبي توصيل في متجر أحذية؛ لأن ظروف الحياة في منزله كانت سيئة، ومن هنا تعلَّم الحِرفة ومارسها في النهاية.

وبما أنه دائمًا ما يوجد رجالٌ ينتفعون من كل الفرص الممكنة، فقد مُنح كامب من العديد من أرباب هذه المهنة الذين وظَّفوه لديهم أسوأ أجر مقابل أفضل عمل؛ وذلك ببساطة لأنه لم يكن بوسعه أن يكون طرفًا في أي عقد عمل رسمي.

يؤسفني القول إن هذا النظام جعله أكثر سخطًا على قدَره أكثر مما كان من الممكن أن يكون.

في زيارتي الثالثة، وجدته يُعالج عامل تحميل أبله، ويخلع له ضرسًا من فكه الضخم باستخدام الكماشة العادية التي يفرد بها الجلود.

كما ترَون، فالأمر مع جون كامب يُشبِه تمامًا حفلةً مسائية يكون فيها الرجل النبيل الذي يلتفُّ حوله ويتعامل معه عددٌ أكبر من الناس هو من يبذل جهدًا أكبر من أي شخص آخر من أجل ترفيههم عمومًا. كان عامة الناس في الحي يُبْدون الشفقة عليه لكَوْنه شخصًا غريب الأطوار بأن يشتروا له كوبًا صغيرًا من البيرة، وفي المقابل يستفيدون من غرابة أطواره لمصلحتهم الشخصية.

قال العامل الغبي: «شكرًا يا صديقي!» وغادر الغرفة دون أن يوجِّه أي كلمة لأخت كامب.

قلت لكامب: «إنه لم يدفع لك شيئًا!»

أجاب: «أجل؛ فأنا لا أتقاضى أجرًا مطلقًا لقاء المشورات الطبية.»

أعترف أن الجواب كان مُتعجرفًا بعض الشيء، ولكنه كان رجلًا قليل الاطلاع، وليس دائمًا ما يكون الجُهلاء فحسب هم المغرورين. وأودُّ أن تُلاحظوا أنه عندما يرفض رجلٌ فقير، يجني ما يقل عن خمسة عشر إلى ثمانية عشر شلنًا في الأسبوع، أجرًا هو يستحقه، فلا بد أن تكون ثَمة قيمة في الإيثار والزهد أكبر مما نراه من أول وهلة.

قلت لكامب: «ولكن كان سيتعين عليه دفع شلن لو ذهب إلى طبيب أسنان؛ كان عليك أن تأخذ منه ستة بنسات.»

«أوه! كان يمكن أن يحصل على إذن من مسئول الإغاثة بالذهاب إلى طبيب الأبرشية، ويخلع ضرسه بدون مقابل.»

«ولكنه كان سيُضيع وقته إن فعل ذلك.»

قال كامب: «أجل، هذا صحيح.»

بالمناسبة، لقد كان وقت العشاء، وكان كامب قد ترك عشاءه دون مقابل من أجل أن يخلع ضرس العامل.

لم ننسجم أنا وأخت كامب. بدا لي أنها استاءت من تدخُّلي، مع أنني متأكدةٌ من أنني لم أعوِّقهما بأي حال من الأحوال. كانت لعنة الفقر جليَّةً عليها، بينما انتصر أخوها على هذه اللعنة بحكمته؛ فقد كان حكيمًا على الرغم من قلة معرفته. إنني أدرك أن الحكمة تستلزم المعرفة، ولكن خبرتي تبيِّن أنه يمكن أن يُصاحب الكثير من الحكمة القليل جدًّا من المعرفة. علاوةً على ذلك، أعرف من خبرتي أنه في الكثير من الأحيان لا تكون المعرفة الهائلة مصحوبة بأي حكمة على الإطلاق.

بطريقة أو بأخرى بدأت أُعجَب بجون كامب.

ولكنني لم أكن سعيدة بغروره على الإطلاق.

وبهذه الجملة ربما يدرك القارئ سرًّا شخصيًّا ربما لم يكن من الصعب للغاية معرفته بالفعل.

كان يعرف الكثير عن الطب، ويعرف أكثر عن فلسفته. كان كتابه المفضَّل هو كتاب جونستون «كيمياء الحياة العادية». كان يحفظ الكتاب عن ظهر قلب تقريبًا، وكان يُسهب بالكلام عنه بطريقةٍ تكاد تكون مؤثرة، عندما نأخذ في الاعتبار شغفه البائس بمهنةٍ لن يمكنه على الأرجح أن يُمارسها أبدًا.

أما فيما يتعلق بالسياسة فقد كان ليبراليًّا أصيلًا، ولكن لم تكن تُسيطر عليه تلك الآراء المتطرفة التي، كما لا بد أن نعترف، يؤمن بها عامةً من علَّموا أنفسهم بأنفسهم. لقد علَّم هذا الرجل نفسه بنفسه تمامًا؛ فقد تلقَّيت منه رسائل بعد ذلك، ويتعين عليَّ أن أقول إنها كانت تعكس مستوًى تعليميًّا كان يستحق الثناء. من خلال هذه الرسائل كان يمكن رؤية أنه قد يكون هو من علَّم نفسه بنفسه؛ فقد كانت تحتوي على الكثير من الأحرف الكبيرة، والكثير من الغموض في أسلوب الكتابة، ولكن كان يمكن ملاحظة أن الرجل كان جادًّا وصريحًا. كانت كل جملة تعكس مجهودًا كبيرًا، وكل سطر كان يحوي شيئًا، وكل حرف كان مثاليًّا بذاته وبطريقته الخاصة.

ولكنه لم يكن ينتمي إلى «الحركة الميثاقية» بالمعنى المتعارَف عليه للكلمة.

فقد قال لي في إحدى المرات:

«ذهبت ذات مرة إلى أحد اجتماعات الحركة الميثاقية، ولكنني لم أحضر مرةً أخرى أبدًا. إذا كانت الميثاقية تعني أي شيء، فهي تعني أن أولئك الذين يُعانون لن يُعانوا بعدئذٍ. حسنًا، لقد ذهبت، ووجدت أن الرجال هناك كانوا عمالًا أقوياء ومُعافين، وقد كانوا على وجه الخصوص من أولئك الأوفر حظًّا بيننا نحن العمال — مثل المهندسين والحدَّادين — ممن يحصلون على أفضل أجر بيننا. لم يكن لديهم إلا القليل مما يدعو للشكوى، بينما لم يكن العمال المظلومون — أعني كل من يستخدمون الإبرة في عملهم، كصانعي الأحذية والخياطين — الذين بالكاد يستطيعون الحصول على القليل من الخبز، والأقل كثيرًا من الجبن، موجودين في الاجتماع على الإطلاق. لم يكن لديهم الوقت للذهاب. دفعوني بأكتافهم بعيدًا، ولم يكن من الممكن سماع صوتي وسط صراخ وصياح كل أولئك الرجال الضِّخام. ما أذهلني هو أنني لم أتخيَّل أبدًا أن يكون الاجتماع بمثل هذا القدر من الاستبداد؛ لذا لم أحضر أيًّا من تلك الاجتماعات مرةً أخرى؛ فهي أكذوبة لا أكثر.»

في أثناء هذه الأحاديث، وبينما كان يعمل، وأنا كذلك، لم تقل الأخت شيئًا، ولكنها كانت تنكبُّ بانهماك على عملها الشاق للغاية، وهو خياطة الملابس العسكرية.

رأيت من خلال حركات يديها في الحياكة الصعبة لملابس جنود سلاح المدفعية، أن أصابعها كانت زرقاء تمامًا وخشنة، وفي أوقاتٍ أخرى كنت أرى الشُّحوب الشديد والإرهاق باديَين عليها وسط السترات الحمراء الخاصة بجنود مُشاة الخط.

أظن أنني قلت من قبلُ إنها كانت ذات وجه مليح، عدا فكها البارز، ولكن أغلب الناس لم ينظروا إلى ما هو أبعد من هذا العيب الخلقي، الذي كان واضحًا جدًّا وهي تتناول

وجباتها البائسة، وكانوا يُعاملونها بإجحاف. لقد تقبَّلت هذا الاستنكار الدائم بطريقةٍ هادئة ودون استياء، ولكن لم يخلُ تقبُّلها من الإدراك لذلك الاستنكار، فغرقت في نوع من اللامُبالاة الذليلة والمقزِّزة، والتي يؤسفني القول إنها لا بد أنها كانت غالبًا ما تؤدي إلى زيادة تحامُل الناس عليها.

بعد حوالَي أسبوعين من معرفتي بهذا الرجل الاستثنائي، وبينما كنت أتحَّدث مع كامب حول أحد فصول كتاب جونستون للكيمياء، الذي أعترف بأنني اشتريت نسخةً منه وقرأته، وبينما كانت جوانا كامب تعمل، حسب خبرتي، في ظل ظروف جديدة، فقد كانت محاطة بأقمشة الفانيلا البيضاء المخصَّصة للملابس الصيفية لجنود البحرية، وبينما كنا مشغولين هكذا، إذ كانت الساعة الثالثة من عصر يوم جميل من أيام شهر أبريل، وكانت الرياح الخفيفة تمرُّ بوعاء زهور الربيع المرصَّع بالعملات المعدنية وتهزُّه برقة، سمعنا صوت خطوات قوية وثقيلة على الدَّرَج.

حينئذٍ، نظر كامب إلى أخته التي كانت عند الباب. وقد يكون سبب أنها كانت تبدو أكثر شحوبًا هو تبايُن لون وجهها الشاحب مع لون الأقمشة الناصعة البياض التي كانت تُحيط بها، ولكن بدا لي كما لو أن وجه هذه المرأة المسكينة قد اصطبغ بشيء من حُمرة الدماء.

فُتح الباب مهتزًّا دون أي طرقة تمهيدية، ودخل إلى الغرفة جنديٌّ من جنود مُشاة الخط وكان قويَّ البنية، ولكنه بسيط جدًّا.

قد يكون وجودي هو ما صنع فرقًا في لقائهما، ولكن سواء كان هذا هو الحال فعلًا أم لا، فيمكنني القول إن هذه المرأة الكادحة لم تُقابل سؤال الجندي عن حالها بأي حماسة، ولكن بالكثير من الود اللطيف والهادئ.

لقد كان هذا الجندي رجلًا شديد الصدق، ولكنه، كما فهمت، كان قد حاد عن الطريق قليلًا في شبابه (مثل معظم الجنود)، ولكن انضباط الجيش أعاده إلى الطريق الصحيح مرةً أخرى.

قال لها بمرح: «لقد عادت سَريَّتي إلى البرج يا جوانا.» ثم أردف مُوجهًا حديثه إلى كامب: «لذا ستراني كثيرًا يا جاك.»

عند هذه النقطة قلت: «أظن أنني أُزعجكم.»

رد الجندي: «أوه، لا يا سيدتي.» على نحوٍ كان واضحًا أنه يوحي بأنه كان له نصيبٌ ما من ملكية هذه الغرفة، ثم قال وهو ينظر حوله بطريقة الجنود: «ستسعنا الغرفة نحن الأربعة.»

ثم خلع مِعطفه، وفك حمالاته، وجلس على طاولة جوانا وبدأ يضع خيطًا في الإبرة.

لأن الفقراء ليس لديهم وقت ليُضيعوه، رأيت على الفور أن هذه كانت مهنته القديمة، وأنه كان يساعدها في هذا المكان الفقير كي يكسب لقمة عيشه.

قال، بينما كان يأخذ قِطع القماش المُسرَّجة بالفعل التي كانت تضعها جوانا أمامه: «وأين الطاولة والأغراض الأخرى؟»

أشارت إلى كومةٍ مغطَّاة في الغرفة، غالبًا ما دفعتني للتساؤل عن ماهيتها.

قال الجندي (الذي كان عريفًا كما رأيت): «أوه، لم أرَها.» ثم كرَّر معتذرًا عن إضاعة الوقت: «لم أرَها.» واتجه في ثلاث خطوات إلى الكومة، وأزاح الغطاء القذر، ثم ألقى نظرةً على الطاولة وعلى كرسيين أو ثلاثة وبعض الأشياء الأخرى، ثم غطَّى كل شيء مرةً أخرى، وعاد في ثلاث خطوات أخرى إلى مقعده. أظن أن تلك الخطوات كانت أطول وأكثر رشاقة من الأولى.

عندما جلس نقر بيده على ذراعه الأخرى وقال:

«سأنتهي من العمل عليهم سريعًا يا جوني، وبعد ذلك!»

هنا ارتسمت على وجهه نظرةٌ مُشرِقة جعلته يبدو جذَّابًا للحظات.

بالطبع لم يتطلب الأمر أي استشفاف عميق لفهم ما كان يجري.

كان الجندي والخيَّاطة مخطوبين وعلى وشك الزواج، وكانا قد اشتريا بعض الأثاث، ولكنهما كانا فقط ينتظران حتى يضع شارة رقيب على معطفه.

حسنًا، لقد كان من الجيد رؤيتهما وهما يعملان بجد. لم يكن سيئًا في شغل الإبرة، كما هو حال عدد قليل من الجنود. في الواقع، أعتقد أن مُقاول الجيش قد حصل منه على عملٍ أفضل من أي شخص آخر. لقد بدا بالتأكيد أنه يحيك كل غرزة بتصميم وجدية.

كانت هذه هي المناسبة الوحيدة التي رأيت فيها الجندي.

في أحد أيام الأسبوع نفسه، وعندما كانت جوانا خارج المنزل تأخذ مجموعةً ضخمة من الملابس المُنجَزة إلى صاحب عملها، وهو مُقاول ملابس يعمل من الباطن لدى الجيش كنتُ قد رأيته ذات مرة (كان يبدو يهوديًّا وسيمًا نوعًا ما) في ذلك اليوم حكي لي كامب قصة الخطوبة.

تمامًا كما كان الرجال يُقابلون جوانا بعدم اكتراث على مدى حياتها، كان هو أيضًا أضحوكة النساء؛ لذا عندما التقيا صدفةً (في تلك الجنة الصغيرة في شرق لندن، حديقة فيكتوريا)، كان واضحًا أن كليهما شعر بالامتنان للصراحة التي تعامل بها أحدهما مع

الآخر، وكان هو من بادَرها بالحديث بالتقاطه مظلتها. كان كلٌّ منهما قد كابَد قدرًا كبيرًا من الألم من الطريقة التي عاملهما بها العالم، وبما أن براعة الألم العقلي تكمن في تطهير الناس، فسرعان ما اكتشفا أنهما مُناسبان بعضهما بعضًا.

عندما كانا يخرجان للنزهة يوم الأحد (علِمت بهذا الأمر من كامب) كانا دائمًا ما يتعرَّضان للسخرية. لا بد من أن أعترف أنهما للوهلة الأولى يبدوان زوجَين قبيحَين، وقد كان قُبحهما أكثر وضوحًا بسبب التناقض بينها؛ إذ إن ذقنه وفكه كانا منحرفين بشكلٍ شديد البروز. ولكنني أعتقد أن السخرية العامة التي كانا يُقابَلان بها قد منحتهما ميزة الشعور بنوع من الشفقة المتبادلة من قسوة الناس، والتي أعطتهما بعد فترة شكلًا من أشكال الرضا والإشباع؛ لأنها أظهرت لهما كم هو مقدَّر لهما أن يكونا معًا.

من جانبي، أعتقد أن جوانا وتوم هابسي كانا سعيدَين سعادةً هادئة وبائسة وصادقة، وأن كلًّا منهما قد أحبَّ الآخر حبًّا صادقًا بطريقةٍ بائسة وواضحة.

قلت إنني لم أرَ العريف مرةً أخرى — وهو ما شعرت أنه خسارة لأنني كنت قد أحببت هذا الرجل القبيح — وهذا لأنني استُدعيت من هذا الحي وشرعت في عملٍ آخر.

لم أسمع أي شيء آخر عن آل كامب. ويمكنني أن أُضيف أنهما لم يعلما أبدًا بمهنتي الحقيقية، ولكنها افترضا أنني أتلقَّى دخلًا سنويًّا صغيرًا، وأنني غريبة الأطوار قليلًا، ومع ذلك أتصرَّف بلطفٍ شديد عمومًا.

مرَّت ستة أشهر؛ ستة أشهر مثَّلت أهميةً كبيرة لامرأة في مهنتي.

كنت قد انتقلت إلى خارج لندن، وكانت هذه هي الليلة الثانية بعد عودتي، عندما وجدت، بعد ذهابي إلى المكتب، زميلاتي يتناقشن بجدية بشأن خبر كان قد وصل إليهن. كان الخبر عبارة عن تفاصيل جريمة قتل وقعت في شرق لندن.

قبل ساعتين، وفي حوالَي الساعة الثامنة مساءً عندما كان الليل قد حل، كان تاجرٌ كبير قد قُتل رميًا بالرصاص. كان قد تلقَّى الطلقات كاملةً في صدره؛ لذا لا بد أن عدوَّه كان يُواجهه. ولكن على الرغم من أن الناس قد لاحظوا ما حدث على الفور، ومن أن القتيل كان على قيد الحياة عندما اقترب عدة أشخاص منه، إلا أنه لم يتمكن من قول كلمة واحدة، ومات صامتًا كما عُثر عليه.

حدثت هذه الواقعة في مكانٍ يُدعى «نيو فورد»، وعلى مقربةٍ كبيرة من جدولٍ مائي.

لم يكن هذا المكان الذي سقط فيه هذا الرجل المسكين قتيلًا يبعد إلا أمتارًا قليلة عن منزله، وكان قد شُوهِد وهو يسير في أحد الحقول جيئة وذهابًا كما لو كان ينتظر شخصًا

ما. يمكنني أن أُضيف أن الأمر كان كما يلي؛ كان ينتظر شابَّة، يبدو أنه كان من المشهور على نحوٍ سيئ السمعة أنها كانت معتادة على مقابلته في الحقل الذي وُجد فيه يُحتضَر.

وكما هو معتاد في حالات القتل الواضح، أُعلنَ بسرعةٍ كبيرة عن المكافأة الحكومية المعتادة في هذه القضية.

والآن أنا لست بحاجة إلى إخبار القارئ أن المحققين دائمًا ما يتحمَّسون بشدة للحصول على إحدى هذه المكافآت الحكومية السخية، تمامًا كما تتطلع طالبات مدرسة للبنات لرؤية مدرس جديد وأنيق.

يتمتع كل رجل أو امرأة بيننا بفرصةٍ مُتساوية في الحصول على الجائزة أولًا، وبما أن مبلغ مائة جنيه استرليني نقدي لن يكون مُتاحًا كل يوم في الأسبوع، فإننا في الشرطة نتطلع إليه بقدرٍ كبير من الإجلال.

ذهبت إلى «نيو فورد» وألقيت نظرةً على القتيل.

كنت أعرف هذا الوجه؛ لأنني لا أنسى أبدًا أي ملامح رأيتها من قبل، ولكنني لم أستطع التعرف عليه؛ وهذا بسبب ذلك التعبير الجديد العجيب الذي يُضفيه الموت على وجه الإنسان.

حاولت ساعةً كاملةً أن أتذكَّر أين رأيت وجهه، وما هي الروابط المتعلقة به.

أعترف بأنني فشلت في ذلك، وعدتُ مرةً أخرى إلى القسم حيث عُرفت تفاصيل القضية؛ وهو القسم الموجود في المنطقة التي ارتُكبت فيها الجريمة، وجلست وأنا أشعر بإرهاقٍ شديد على الرغم من أنني لم أمشِ سوى نصف ميل.

كنت معروفة جيدًا في المكتب؛ لذا لم أُواجه أي عقبات فيما يتعلق بهذه المسألة.

سألت: «هل حصلتم على أي دليل؟» وأنا متأكدة تمامًا أن صوتي كان مُتعَبًا ومُجهَدًا.

قال رقيب، يفترض أنه لا يُضاهيه أحد فيما يخص سرعة الكشف عن القضايا: «فقط القليل من المعلومات التي تخص دليلًا واحدًا فحسب.»

الدليل الذي أشار إليه هو دليل، في حالات إطلاق النار العادية، أثبت الجُرم على القاتل الفعلي في مناسباتٍ عديدة. أقصد الحشو، أو بالأحرى المثبِّت، الذي يُستخدم في تثبيت الطلقة النارية في ماسورة السلاح الناري. إذا لم يكن هذا المثبِّت عبارةً عن قرص من الورق المقوَّى، أو من مادة تُباع لأغراض الحشو، فغالبًا ما يكون قطعةً من الورق مُزِّقت من أحد الأغراض التي بحوزة الشخص الذي يستخدم السلاح الناري.

لقد حدث في كثير من الحالات التي لم يشتعل فيها هذا المثبِّت ويحترق ذاتيًّا، أن عُثر على ما يكفي من الورق، سواء كان مكتوبًا أو مطبوعًا، الذي يُثبت تورُّط أطراف بعينها في الفعلة. وبالفعل توجد حالاتٌ مسجَّلة تطابقت فيها الحافَّة الخشنة لقطعة الورق النصف المحترقة تمامًا مع أخرى موجودة في جيب أحد المشتَبه بهم، بحيث إنه بناءً على مثل هذا الدليل الظرفي ثبتت تهمة القتل على المُذنب.

وفي القضية قيد النظر، عُثر على مثبِّتٍ مجعَّد — كان على الأرجح في فوهة سلاح ناري، إلى جانب الرصاصة التي استقرَّت في جثة السيد هيجام — والتُقط بالقرب من المكان الذي كان الرجل قد سقط فيه قتيلًا، وفي غضون ساعة من وقوع تلك الكارثة.

كان عبارة عن البقايا المحترقة السوداء للنصف العُلوي من صفحةٍ مطبوعة لكتاب بتنسيق «ديمي أوكتافو»، كما يقول عمال الطباعة؛ أي بمقاس مائتين وواحد وعشرين ملِّي متر في مائة واثنين وأربعين ملِّي متر.

كانت الورقة تحمل عنوان العمل في السطر الرئيس: «كتاب جونستون لكيمياء الحياة العادية.»

عرفت حينئذٍ أين كنت قد رأيت القتيل. في مرة، كنت أرافق جوانا كامب وهي تحمل مجموعةً كبيرة من الملابس إلى صاحب عملها (كان ذلك في المساء، وكانت تخشى أن يُسرَق عملها منها إذا ذهبت بمفردها)، وأتذكَّر أننا رأينا القتيل، وأتذكَّر أيضًا أنه، وهو يستلم عملها، أبدى نحوها نوعًا من الاهتمام الملحوظ، الذي كان مزيجًا بين المزاح والاهتمام الحقيقي.

تذكَّرت أيضًا أنها قالت لي كم كان صعبًا على الفقراء تحمُّل الكثير من أجل الحصول على كِسرة خبز.

أعترف أن الفكرة استرعت ذهني في اللحظة التي رأيت فيها قصاصة الورقة المطبوعة؛ هل مُزِّقت هذه الورقة من نسخة كتاب جون كامب؟

من جهتي، كانت هذه مسألةً يمكن اكتشافها بسهولة. لم يكن عليَّ سوى أن أزور صانع الأحذية وأن أذكر جونستون في مَعرِض الحديث، ثم أطلب أن أرى الكتاب.

ربما كان من القسوة التجسس على الرجل الذي كان يُقابلني يوميًّا باعتباري أكثر من مجرد أحد معارفه، ولكن لو كان من شأن هذا النوع من المُراعاة أن يعوق دومًا مسار العدالة، ما كانت شئون العالم العادية ستستمر.

يظل أي شخص صديقك حتى يخالف القانون الذي لا بد أن تحرص على تطبيقه لأن ذلك من واجبك، وعندئذٍ لا يكون لك الحق في العفو عنه لأنه صديقك؛ لأنك إن فعلت ذلك فإنك تعترف ضمنيًّا أنك لم تعفُ عن بقية الناس لأنهم لم يكونوا أصدقاءك.

ذهبت إلى منزل كامب في صباح اليوم التالي.

لم أطرق باب المنزل المُتأرجح؛ فقد كانت المطرقة لا تزال معلقة بالباب ومعوجَّة، وما زال الباب بدون مِصد.

صعدت إلى الطابق العُلوي مباشرةً، وشيءٌ يدق في قلبي وأنا أفعل ذلك ويقول: «يا لكِ من قاسية! يا لكِ من قاسية!» نقرت على الباب.

أتذكَّر كم كانت تلك الأصوات تبدو لي صادقة وجازمة. آخر مرة كنت أقف فيها في تلك الغرفة، كنت هناك بصفتي صديقة لهذا الرجل، أما الآن فقد كنت أدخلها عدوَّةً له، وبصفتي أشتبه في ارتكابه جريمة قتل؛ فقد كانت تلك هي مهمتي.

أجل، لقد كنت على وشك استخدام تلك الصداقة السابقة وسيلةً لتنفيذ عملي. أعلم أنني كنت أقوم بواجبي، وأنا واثقة تمامًا أنني في هذه اللحظة كنت أؤدي واجبي، ولكن شيئًا ما، أعتقد أنه ضميري، قال لي إن هذا ليس جيدًا.

قال صوتٌ ضعيف: «ادخلْ».

سمعت صوتًا نابضًا سريعًا، كان في الواقع صوت دمي وهو يندفع مُتدفقًا إلى قلبي، وفتحت الباب ودخلت.

لقد خذلني قلبي وأنا أفعل ذلك؛ وهذا لأنني كنت أفتقر إلى الأمل.

كان يجلس وحيدًا على كرسي عمله.

لم يكن يعمل.

تبيَّنني عندما دخلت إلى الغرفة، ولكنه لم ينهض أو يمد يده.

قال بشرود: «كيف حالكِ؟» ثم بشرودٍ مؤلِم، أخذ أحد أكثر أدواته استخدامًا؛ فقد كان يستخدمها في اليوم ألف مرة، ونظر إليها بتعبيرٍ غريب وشارد، كما لو أنه لم يكن قد رآها من قبل.

ثم وضعها وأخذ قطعة من الشمع الذي كان يستخدمه في مهنته، وبدأ يضغط عليه بشرود صانعًا أشكالًا مختلفة.

بدت الغرفة مُوحِشةً بشدة، وعلى الرغم من أنها لم تكن تمتاز بنظافتها عندما كنت معتادة على رؤيتها، فقد بدا المكان حينئذٍ أشد قذارة على نحوٍ لا يوصَف مما كان عليه.

كما حل على المكان طابعٌ مُوحِش وكئيب، لم يكن موجودًا على الإطلاق عندما كنت أرتاده يوميًّا.

لم يكن ثَمة أثر لأخته؛ لا خيوط، ولا قِطع قماش، ولا كرسي انتظار، ولا سلة عمل قذرة من كثرة جرها على الأرض. أما الطاولة التي كانت تعمل عليها، فقد وُضعت جانبًا في مقابل الحائط، وفي المكان الذي كان فيه الأثاث المغطَّى.

كان قفص عصفور التفاحي لا يزال معلقًا في النافذة. أوه! إنني لم أذكر عصفور التفاحي الأبتر الذيل الذي كانت تُطعمه الأخت وتُسميه «تويت»، ولكن العصفور كان قد مات بالتأكيد؛ على أي حال كان القفص فارغًا وجافًّا ومغبرًّا.

بدا كامب مُتعَبًا ومُنكسرًا للغاية، وبما أنه يتعين علينا نحن المحققين أن نُلاحظ كل شيء، فقد لاحظت أن شعره الأسود الحريري، الذي لم ينَل ما يستحقه جماله الطبيعي من الرعاية اللازمة، قد غطَّاه كلَّه الشيبُ.

أظن أنني لست بحاجة إلى إخبار القارئ أنه لم يمرَّ على وجودي في الغرفة لحظتين قبل أن أشعر أن الحياة القديمة التي سكنت هذه الغرفة قد ولَّت ولن تعود أبدًا.

عندما دخلت الغرفة كانت تفصل بيني وبينه الأرضية المُتربة غير المكنوسة. كان جالسًا على كرسيه، خاملًا ومنكسرًا.

كان ثَمة انحناءةٌ قبيحة في كتفيه، لم تكن موجودةً عندما كنت أزوره. كانت يداه — اللتان كنت أراهما في السابق نشيطتين ومتحمستين — هامدتين وتتدلى كل واحدة على إحدى ركبتيه، وكان ثَمة ظلٌّ كبير يكسو وجهه يتجاوز ظلام غرفته، فمع أن شمس النهار كانت مُشرِقة كان يُغطي زجاجَ النافذة ترابٌ قديمٌ كثيف.

قلت في نفسي إن الأخت كانت غائبة عن المنزل منذ أسابيع، وربما ليس منذ شهور.

كان المجلد الأول من كتاب جونستون «كيمياء الحياة العامة» مفتوحًا ومقلوبًا، على كومة من أدوات العمل اليومية وقصاصات من الجلود، عند قدميه.

رأيت أن كومة الأوساخ والقمامة حوله (والتي يبدو أنها تنم عن صنعه للأحذية كما ينبغي)، كانت أكبر وأعلى بكثيرٍ مما كانت عليه عندما كنت آتي كل صباح تقريبًا لعدة أسابيع كي أجعل الوقت يمرُّ عليه بسرور، كما آمل، بينما كنت أستمع إلى حديثه الذي كان يتَّسم بقليل من الاطلاع وحكمةٍ أكثر.

بدا هذا الرجل المسكين مُكتئبًا للغاية.

بدا لي أن قلبه كان يدمى.

كان الإشراق قد اختفى تمامًا من وجهه، وكذلك الصبر، والأمل الضعيف. ساد اليأس ملامح وجهه كلها، وبدا أن أي إرادة، كانت قد بدت على ملامحه ذات يوم، قد انسحقت وذهبت أدراج الرياح.

من جانبي، لم أكن أعرف ماذا أقول.

نظرت حولي لبضع لحظات، ثم قلت:

«أتمنى أنك على ما يُرام منذ أن رأيتك آخر مرة.»

قال وهو ينظر بحزن في أرجاء الغرفة: «أجل، على ما يُرام.»

ثم عمَّ الصمت.

وجدت أن حس العدالة بداخلي قد يذبل.

قلت أخيرًا:

«هل انتهيت من صنع آلتك؟»

وذلك لأنه، من بين أفكار أخرى، كان الرجل المسكين قد أولى اهتمامه لصنع آلة يستطيع صانعو الأحذية من خلالها القيام بعملهم دون أن ينحنوا فوقها بالطريقة المعتادة، وهو ما يُعزى إليه الكثير من أمراض الرئة والكبد التي يُصاب بها الرجال في مهنته.

قال، بنظرةٍ زائغة فارغة تحدِّق إلى ما هو وراء جدران تلك الغرفة الضيقة القذرة: «لا، لم أفكر في الأمر مؤخرًا.»

وحينئذٍ شرعت في تنفيذ واجبي.

قلت وأنا أشير إلى الكتاب المُلقى مقلوبًا على الأرض: «ولكنني أرى أنك ما زِلت تُطالِع كتابك.»

أجاب قائلًا: «كنت أحاول القراءة، ولكنني لا أستطيع.»

كان يتحدث كطفلٍ مريض. أعلم أنني لو كنت ضربته، على وجنتَيه على سبيل المثال، ما كان سيستاء من ذلك.

جثوت على ركبتي لآخذ الكتاب وأنا أشعر، ويؤسفني أن أقول ذلك، أنني مثل يهوذا عندما مد يده الآثمة ليأخذ الثلاثين قطعة من الفضة ثمن خيانته للمسيح.

ولكن كلماته التالية تلك أوقفتني:

«لقد كانت أيامًا سعيدة للغاية عندما كنتِ تأتين إلى هنا وتتحدثين معي عن جونستون العجوز، أليس كذلك؟»

لم أستطع أن ألتقط الكتاب.

سألته: «أين أختك؟» وكنت سأضيف متسائلةً بنبرةٍ أكثر مرحًا إن كانت قد تزوَّجت، ولكن شيئًا ما، أظن أنه كان تعاطفي مع ما ألمَّ بالمكان وبالرجل، أوقف الكلمات في حلقي.

لم يتحرك، ولم ينظر نحوي وهو يُجيب، وعادت عيناه تنظران إلى الأمام مرةً أخرى نفس النظرة العمياء، إن كان لي أن أستخدم مثل هذا التعبير، التي كنت قد أشرت إليها سابقًا.

«ماتت.»

ردَّدت قائلةً: «ماتت!»

«أجل، لقد ماتت جوانا منذ شهر أو أكثر، لكنني لا أعرف بالضبط كيف يمرُّ الوقت.»

لم أكن أعرف ماذا أقول، وفي الواقع كِدت أعترف له بمهمتي وأطلب منه أن يغفر لي لأنني ظلمته.

ولقد أحسنت صنعًا باحتفاظي بهذا الاعتراف لنفسي، كما ستُظهِر الحكاية.

قلت: «صحيح، لا بد أنها كانت صدمةً مُحزِنة لتوم هابسي.»

اعترت وجهَه نظرةٌ شرسة للحظة، ثم خبت مرةً أخرى.

قال: «لقد كان خطؤه إلى حدٍّ ما؛ لأنه لم يثق بها.»

قلت متسائلةً: «لم يثق بها؟» وأعترف بكل صدق أنه، مع أنني كنت أشفق على هذا الرجل المسكين الذي أمامي، بدا لي عجيبًا أن تكون جوانا كامب قد أثارت الغيرة في قلب حبيبها.

أجاب كامب: «لا، لم يثق بها. لم يستطع أن يفهم أنه كان عليها التصرف بلطف مع الناس في المستودع، وأن الأمر لم يتجاوز اللطف فحسب.»

«ولكنهما بالتأكيد لم يتشاجرا يا جون، أليس كذلك؟»

«بل تشاجرا.»

«وهل افترقا؟»

«أجل، افترقا.»

قال هذه العبارات بصبرٍ يائس كاد أن يجعلني أحبه.

«و... وماذا حدث بعد ذلك؟»

«ماذا حدث؟ ماذا يحدث لمعظم النساء عندما يتعرَّضن لعدم الاحترام؟ ألا يجعلهن ذلك يفقدن احترامهن لأنفسهن؟» وأردف بابتسامةٍ عذبة، وإن كانت شديدة الشحوب: «لقد كانت امرأةً صالحة.» وكرَّر بصوتٍ يُشبِه نحيبًا جافًّا قاسيًا: «امرأة صالحة، وما كان

على توم هابسي أن يكون قاسيًا هكذا معها؛ لأنها كانت ستفقد عملها، وأُقسِم بحياتي إنه لم يكن ثَمة ما يدعو للشكوى حتى هجرها هابسي.»

«هل هجرها؟»

«أجل. لقد بدأ يُراقبها ذات ليلة خارج المستودع، وعندما خرجت وهي تضحك، على الرغم من أن هذا كله كان كي تُحافظ تلك المسكينة على عملها، أمسكها من ذراعها. رأيت عليه علاماتٍ سوداء وزرقاء في اليوم التالي، ثم دفعها بعيدًا عنه ووصفها بذات الفك البارز القبيح ...» وهنا توقَّف واكتسى وجهه بلونٍ يُشبِه حُمرة الخجل، ثم أكمل قائلًا: «أستميحكِ عذرًا، كنت سأقول كلمةً لا تودِّين سماعها.»

«ولكن ماذا حدث؟»

سأل بنوع من الشراسة الرقيقة قائلًا: «ماذا حدث؟ ما الذي يحدث لأي امرأة، سواء كان فكها بارزًا قبيحًا أم لا، عندما لا تهتم بما قد يحل بها؟ لقد أمضت حياتها في صبر بما يكفي، دون أن تظن أبدًا أن أي رجل سيُلاحظها على نحوٍ إيجابي، تعيش هنا في منزلي الفقير، حتى اقترب منها توم هابسي. وبعد ذلك عندما غادر لم تعُد تهتم بما يحل بها.»

توقَّف للحظة، ثم تابع قائلًا:

«كنت مريضًا في ذلك الوقت، وكنا أفقر من المعتاد، وإلا ما كنت سأدعها تذهب إلى ذلك المستودع الملعون. إلامَ آلت الأمور؟ أتذكَّر أنني قرأت في المؤلفات القديمة عن زوجةٍ طلبت من زوجها أن يقتلها، وألقت بنفسها على السيف. كان ذلك بالضبط ما حدث مع جوانا المسكينة. إنه لم يزعج نفسه كثيرًا بها، وألقاها بعيدًا كما تُلقين حذاءً باليًا.»

تساءلت، بأنفاسٍ مُتقطعة وعصبية: «من كان هذا الشخص؟» كنت قد بدأت أخشى من أنني قد فهمت المأساة بأكملها، والتي كان عليَّ أن ألعب فيها دورًا فظيعًا كنت أنا من جلبته على نفسي.

كانت إجابته كما توقَّعت. لقد كان الرجل الذي سقط صريعًا برصاصة في الرئة اليسرى؛ إنه مُقاول الملابس الذي يعمل من الباطن لدى الجيش، والذي كانت جوانا كامب تعمل لحسابه، والذي، على حد علمي، أبدى نحوها نوعًا من الاهتمام الملحوظ (أيًّا كان سببه) الذي كان يختلف عن العاملات الأخريات.

أيًّا كان سببه!

ولكن هل يمكن تخمين السبب؟

أعتقد أن هذا ممكن. لقد كان القتيل شهوانيًّا بالمعنى الدقيق للكلمة، وماذا سيفعل الشهواني؟ سيتبيَّن أنه عندما تصل شهوة أحدهم إلى الشبع، تتطلب الشهية تحفيزًا أقوى وأشد. لو كان ممكنًا، بوسعي أن أعطي هنا بعض الأمثلة الفظيعة على مدى الفسق الذي يمكن أن يقع الشهواني المزعوم فريسةً له، ولكن ذكر هذه الأمثلة ليس مقبولًا. ومع ذلك يمكنني أن أُلقي الضوء على الخطيئة نفسها بأن أُشير إلى الفصل الافتتاحي لقصة الكاتب أوجين سو، الذي يصف فيه حياة شخص شهواني. عندما ينغمس ذلك الشهواني في الإثم ويغرق فيه، يفشل الجمال في إرضائه، ويحتقر البراءة، وتعلو غرائزه بقدر وحشية وغلظةِ مَن كانوا يُحيطون به.

يمكننا أن نجد مقارنةً أوضح وأنسب فيما يختبره المرء مرارًا عندما يرى رجلًا شديد الوسامة، أو امرأةً فائقة الجمال، تتخذ من شريكٍ عادي المظهر جدًّا زوجًا لها مدى الحياة.

أظن أن هذا الرجل البائس — الذي كان الفقر هو المحفِّز لخطيئته — كان محاطًا في الكثير من الحالات بالشابَّات الجميلات اللواتي كن يسعين لأن يعملن لحسابه، بصفته مقاولًا عسكريًّا كبيرًا، وأنه أصبح مُغرَمًا بجوانا كامب الفقيرة والقبيحة وغير الجذَّابة بسبب طبيعته الأخلاقية المنحلَّة، أو تطوُّر لا أخلاقي في طبيعته.

بعد صمت طويل جدًّا، قال الرجل البائس:

قال بحزن وهو يجثو على إحدى ركبتيه: «أراها هناك الآن عندما أحضروها من حوض السفن مبتلةً وميتة. لم أتعرف عليها في البداية، بسبب الطين الأسود الموجود في أحواض السفن. لا يمكنني أن أتخلَّص من صورة جوانا المسكينة في ذهني؛ ها هي، هناك، ترقد ويداها المسكينتان، اللتان عملتا بكد، تتدليان إلى جانبها، والمياه السوداء تنساب تمامًا كالدموع من عينيها المغلقتين. وضعوها هنا بالضبط.» وأشار إلى موضعٍ بيده اليمنى القاسية، وأصابعه التي أصبحت مسطَّحة بفعل العمل الشاق لسنواتٍ عديدة، وأضاف: «وقد بدت مُبتسمةً تقريبًا. وعندما انحنيت إلى الأمام لتقبيلها، جذبوني إلى الخلف وسألوني إن كنت قد فقدت عقلي. كنت أنا وجوانا وحيدين في هذا العالم؛ فقد ماتت أمنا بعد ساعة من ولادة جوانا، ولم يهتم أبونا بنا مطلقًا.» تابع، مُشيرًا إلى نفس الموضع مرةً أخرى: «ها هي هناك. أمضينا أربعة أيام معًا.» ثم أشار إلى غرفة الخزانة التي كانت تستخدمها غرفةً للنوم: «عندما أخذوا جوان أخذوا قلبي ودفنوه معكِ يا جوان، دفنوه معكِ.»

سقط إلى الأمام على الأرض، وفوق الموضع الذي كانت الأخت التعيسة الحظ قد وُضعت فيه، ولكن لم تبلل أي دموع وجنتيه؛ فقد كان حزنه أشد قسوة من ذلك.

والآن، ماذا كان عليَّ أن أفعل؟

ها هو الكتاب. أما أبعد قليلًا هناك، فربما يكون هذا هو القاتل.

ماذا لو كان الرجل الذي سقط قتيلًا بطلق ناري شخصًا حقيرًا بلا قلب؟ ماذا لو كان عدم وجوده في العالم أفضل من وجوده فيه؟ أمام القانون، كل الناس سواسية، وحياتهم مقدَّسة.

لا تقتل.

هذه القاعدة ساريةٌ سواء كان الشخص تقيًّا أو عاصيًا، صادقًا أو مُخادعًا. لا تقتل.

كان الكتاب أقرب إليَّ منه.

وكان جاثيًا في ذهول، وعيناه تحدِّقان في اتجاهٍ آخر غير اتجاهي. لو كان ينظر نحوي، ما كنت انحنيت وقلَّبت صفحات الكتاب.

كان رقما الصفحتين المطبوعتين على قطعة الورق النصف المحترقة الموجودة في مبنى قسم الشرطة، والتي كانت بمثابة شاهد إثبات، هما الرقمين ٧٥ و٧٦. قلَّبت صفحات الكتاب دون ضوضاء وبأقل حركة ممكنة.

كانت الصفحة رقم ٧٤ موجودة، أما الصفحتان رقم ٧٥ و٧٦ فكانتا مفقودتين، ثم تلاها الصفحة رقم ٧٧.

كانت الورقة التي تضمُّ الصفحتين ٧٥ و٧٦ ممزَّقة بفظاظة من الكتاب، تاركةً بعض الأجزاء الخشنة من الورق حول الخيط المستخدم في حياكة الأوراق معًا.

نظرت إليه بفزع بعدما تأكَّدت من أنه هو القاتل.

ومع ذلك، أشفقت عليه.

ماذا كان عليَّ أن أفعل؟

ما الذي يمكنني فعله، إلا واجبي؟

لا أعرف كم مضى من الوقت منذ لحظة اكتشافي للحقيقة حتى تلك اللحظة التي تحدَّث فيها معي، لكن بحسابٍ تقريبي أعتقد حقًّا أنه قد مرَّت دقائق قبل أن يُقطَع الصمت.

«وداعًا، لن يرى أحدنا الآخر مرةً أخرى.»

سألت بالقليل من الخجل: «لمَ لا؟»

«سأسلِّم نفسي إلى الشرطة.»

بالطبع لم يكن لديَّ أدنى شك حول هُوية قاتل مقاول الجيش اليهودي.

قلت باستغراب: «لماذا تسلِّم نفسك إلى الشرطة؟»

«لأنني ارتكبت جريمة قتل.»

تلفَّظ بهذه الكلمات بأبسط الطرق وأكثرها ثباتًا، بلا خوف ولا ألم ولا خجل. منذ تلك اللحظة، بدا لي أنه كان في تلك الحالة التي اختبرها معظم الناس، عندما تتسبب صدمةٌ كبيرة في شلِّ العقل بحيث يبدو غير قادر على ممارسة التفكير المنطقي؛ عندما لا تؤثر فينا كثيرًا الأفعال التي نرتكبها بأنفسنا — أو أفعال الآخرين — بحيث نصبح في ظل مثل هذه الظروف في شِبه ذهول.

لقد كان مخدَّر الإحساس بصورةٍ بائسة، لدرجة أنه لم يُلاحظ أنه لم يهولني مطلقًا ما قاله. أما من جانبي، فلم أتمكن من ممارسة لعبة مزدوجة على هذا الرجل. لقد كان شديد الصراحة معي، وكان كذبي عليه سيكون حقًّا أمرًا شديد الحقارة.

قلت: «أنا محققة.»

نظر لأعلى، ولكن لم يبدُ على وجهه أي دهشة أو تشكُّك في كلامي.

واصلت قائلةً وعيني مصوَّبة نحو الأرض: «هل تفهم؟ أنا محققة.»

قال ببساطةٍ مُثيرة للشفقة: «حقًّا؟»

«ما الذي دفعك لقتله؟»

فجأةً بدا جامحًا وهو يُجيب قائلًا:

«لماذا ينبغي أن يعيش الأشرار؟»

هززت رأسي وأجبت:

«لماذا ينبغي على الأخيار أن يقتلوا الأشرار؟»

«يجب ألَّا يعيشوا؛ لا نفع منهم على الأرض.»

كما ترون، لقد عامل العالم هذا المخلوق المسكين أسوأ معاملة، حتى إنه انقلب عليه عندما دمَّرت بيتَه جريمةٌ عادية لا يُعاقِب عليها العالم بصرامةٍ شديدة.

ربما يكون الوعظ أمرًا محمودًا للغاية، ولكن توجد أوقات وأماكن معيَّنة لإلقاء العظات، وشعرت أمام يأس هذا الرجل أنه لم تكن ثَمة حاجة لأن أُلقي خطبةً بهذا الشأن. إذا انتهك اليأس القانون، فليكن. لا بد من تطبيق القانون، ولكن إذا لم نكن نَقْوى على فعل أي شيء إلا الوعظ، فدعونا نترك اليأس وشأنه. من ناحيتي، أعتقد أنني أميل إلى مساعدة الشخص، مهما كان، إذا كان يائسًا.

لذا انتقلتُ إلى مناقشة الحقائق.

سألته: «كيف نفَّذتَ الجريمة؟»

نهض واقفًا على الأرض حيث كانوا قد وضعوا أخته التعسة، وكانت ألواح الأرضية لا يزال عليها علامات من طين حوض السفن الأسود الذي كان يُغطي جثتها عندما أُحضِرت إلى المنزل الفقير (يمكنني أن أُضيف أن إحدى زميلات المتوفاة في العمل قد تعرَّفت على وجهها بينما كان الماء لا يزال يخرج منه)، نهض بطريقةٍ آلية تمامًا، إن صح القول، واتجه إلى كومة القاذورات وقِطع الجلود المكدَّسة بالقرب من كرسي عمله، ووضع يده بطريقةٍ شاردةٍ غريبة في كومة القاذورات تلك، وبعدما أخذ يتحسس بداخلها لبضع لحظات، أخرج مسدسًا عاديًّا وصدئًا.

لقد كان مُلقمًا.

كان السؤال الطبيعي الذي سيطرأ على ذهن أي محقق هو:

«لماذا هذا المسدس مُلقم؟»

لذا قلت له: «عجبًا، إنه ملقم.»

أجاب ببعض من الارتباك الأحمق: «أجل.»

قلت: «لم تكن لتؤذي نفسك بالتأكيد، أليس كذلك؟»

نظر إلى أعلى، وكانت هذه هي اللحظة الوحيدة طيلة مقابلتنا التي ارتسم فيها على وجهه تعبيرٌ آخر غير الاكتئاب الشديد. وعندما رفع وجهه قال:

«هل تظنين أن بوسعي أن أقتل نفسي؟ لا! إنني أعرف نفسي جيدًا، لن أفعل ذلك.»

سأدع القارئ يتأمل في التناقض الواضح بين اعترافه بالقتل من ناحية، ومَقْته الواضح للانتحار من ناحيةٍ أخرى.

سألته قائلةً: «إذن لماذا هذا المسدس ملقم؟»

أجاب قائلًا:

«أنا ... أنا لا أعرف.»

لذا تابعت قائلةً:

«ولكن كيف فكَّرت في ارتكاب هذا؟»

عاد إلى حالة اللامبالاة الأولى وأجاب قائلًا: «كيف؟ لقد ارتأيتُ أنه لا بد أن يُقتَل، مثل الكثير من الجِيَف، واشتريت المسدس، ودفعت للصبي بالمتجر بعض المال كي يُريني كيفية تلقيمه، ثم ذهبت إلى الحقل الذي كنت أعلم أنه سيلتقي فيه بامرأةٍ أخرى منهن. علِمت بذلك من إحدى النساء بالمستودع، والتي كانت تعرف كل شيء عن هذا اللقاء. اقتربت منه، ثم ...»

هنا توقَّف عن الكلام، وبدا كأنه قد غرق في سلسلة من الأفكار الغامضة.

سألته: «ثم؟»

أجاب بطريقةٍ سريعة وشِبه مُندهشة قائلًا: «أوه، ثم سقط صريعًا رميًا بالرصاص!»

حتى حينئذٍ بدا لي كلامه غريبًا؛ بسبب الأسلوب الغريب الذي صاغ به الكلمات.

ولكن السؤال الكبير ظل قائمًا؛ لماذا كان المسدس ملقمًا؟

سأُغفِل سرد قصة اعتقال هذا الرجل المسكين؛ لأنه لا داعي للسرد التفصيلي لموضوعٍ مؤلم بشدة كهذا. يكفي أن أقول إنه لم يُبدِ أي رد فعل على الإطلاق عندما اتُّهم بالقتل العمد، وذهب إلى الزنزانة المظلمة وهو يتنهد كثيرًا، ولكن دون أن يبدي أي مقاومة.

من ناحيتي، شعرت أن شيئًا ما، بخلاف ما قاله، ينقص المسألة حتى تتَّضح.

ونحن المحققين، عندما نشكُّ نتساءل.

كانت هذه هي خطتي في القضية التي أكتب عنها الآن.

كان أول من استجوبته هو الفتاة التي كانت ستلتقي بالمدعو هيجام ليلة مقتله.

لم تَجنِ من هذه الجريمة سوى النفع؛ لقد انتفعت منها ولكن لفترةٍ قصيرة. كانت شابَّةً وقحةً وبذيئة، ولها عينان جريئتان، وكانت تُجيب على أسئلتي بنبرةٍ دلَّت بوضوح على أنها كانت تفضِّل صفعي على وجهي على أن تُجيب على أسئلتي.

عندما سألتها إن كانت قد رأت رجلًا، شعره أسود يصل إلى كتفَيه تقريبًا، جاثيًا بالقرب من المكان الذي قُتل فيه هيجام، أجابت بالنفي. ولكن كيف كانت ستُلاحظ ذلك؟ فهي لم تكن تبحث عن أشخاص من ذوي الشعر الأسود الطويل، بل عن السيد هيجام المسكين. هل رأت أي شخص في الجوار؟ لا، بالطبع لا. فهي لم تذهب إلى هناك ليراها أي شخص سوى المسكين السيد هيجام. كرَّرت سؤالي مرةً أخرى عما إذا كانت قد رأت أي شخص في الجوار، وكان ردها بالإيجاب، إن كان عليها أن تُجيب. لقد رأت جنديًّا. هل تستطيع وصفه؟ لا، لم تستطع. لقد رأته مرةً واحدة يقف أسفل مصباح الغاز في زاوية الحقل بالقرب من الطريق، وكان ذلك كافيًا جدًّا لها. لماذا كان كافيًا لها؟ لأنها إذا نظرت إلى رجل مرةً ثانية، فهذا يعني أنه يستحق النظر إليه، أجل.

كانت هذه هي كل المعلومات التي حصلتُ عليها من هذه الشابة البالغة الوقاحة، والتي، كما يمكنني أن أشير، عادت، بعدما تركتها في هذا المكان، لتحظى باهتمامٍ خاص لديَّ بعد حوالَي عامين من انتهاء قضية «حكم الضمير».

من وجهة نظر المحقق، لا يُعتبر كل الأشخاص الذين ربما يكونون مُذنبين أبرياء حتى تثبت براءتهم.

لذا، وبصرف النظر عن اعتراف صانع الأحذية، فالجندي المجهول الذي رأته الفتاة التي استجوبتُها كان من المرجَّح جدًّا أن يكون هو المُذنِب.

كان من المقرَّر إجراء التحقيق في ذلك المساء الذي أعقب وضع جون كامب رهن الاحتجاز، وبالطبع حضرت.

أثارت القضية بعض الضجة، بناءً على أن القاتل سلَّم نفسه للعدالة، لكني لست بحاجة إلى إخباركم أن التحقيق قد استمر، بقدر ما سمحت به الأدلة، بالضبط كما لو كان كامب لا يزال حرًّا طليقًا.

أحتاج هنا فقط للإشارة إلى دليل الطبيب؛ وهذا لأن وحدها إفاداته تؤثر على مسار هذه الحكاية.

أخرج الرصاصة التي كان قد استخرجها من جثة القتيل، ثم شرع في وصف المسار الذي سلكته.

يمكنكم تخيُّل دهشتي عندما طلبت الرصاصة وحاولت وضعها في ماسورة المسدس الذي كان كامب قد أعطاني إياه، ووجدت أنها لا تتناسب مع حجم ماسورة مسدسه.

لذا كان من الواضح أنه إذا كان كامب قد أطلق النار على ذلك الرجل، فقد استخدم سلاحًا آخر غير الذي كان قد أعطاني إياه، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا خدعني فيما يخص المسدس؟ إنه لم يسعَ لإخفاء الجريمة، فلماذا سعى إلى تضليلي فيما يخص السلاح المستخدَم؟

بعد المزيد من التدقيق في الأمر، وجدت أنه لم يكن بوسعه، بالطبع، أن يعرف أن من شأن دليل الرصاصة أن يكون في صالحه.

أدليت بشهادتي، التي أظهرت بجِلاءٍ التناقض التام بين أقوال كامب والدليل الذي قدَّمه الطبيب فيما يتعلق بالرصاصة.

كان من المستحيل تمامًا حل هذه التناقضات، وبعد الكثير من الاقتراحات الجوفاء وغير العادلة، تأجَّل التحقيق.

ومع ذلك، لم أكن عازمة على أن تمرَّ الليلة دون أن يتضح الغموض.

كنت في قسم شرطة الحي، وكانت الساعة حوالَي الحادية عشرة مساءً، عندما اجتذب صوت وَقْع موكب من خطوات الأقدام المقتربة أسماع جميع الضباط بالقسم.

ذهبنا إلى الباب، وحسبما أذكر كان السجَّان يعبث بمفاتيحه التي كانت تُصلصل بصوت عالٍ، وهناك كانت آتيةً نحونا محفةٌ يحملها اثنان من رجال الشرطة ويحيط بها عدد من الأشخاص، الذين كان معظمهم من الطبقة الدنيا، وكان وقع همهماتهم المتداخلة على آذاننا المتمرسة يُنبئنا أن الحالة التي كانت محمولة على المحفة لم تكن حالة سُكْر.

توقَّف الشرطي، الذي كان يقود الموكب، والذي كانت تحيط به هيبةٌ وجِلة، عندما اقترب من الباب.

قال السجَّان الذي كان يقف خلفي: «إنها حالة انتحار ناتجة عن الإسراف في الشراب!»

قال الرقيب، عندما توقَّف، وحذا حذوه بقية رجال الشرطة الذين كانوا يتبعونه: «انتحار!» لكن لم يحذُ حذوه الغوغاء الذين احتشدوا حوله، وكانوا في ذلك الحين يحدِّقون فيه في محاولةٍ بائسة لفهم ما يحدث، وأفواههم مفتوحة على آخرها من هول الإثارة.

قال السجان: «كنت أعرف ذلك. كان يجب عليَّ البقاء.»

سأل مُفتش الرقيب قائلًا: «ما الأمر، يا بروجلي؟»

قال الرقيب: «قضية عسكرية يا سيدي، جنديٌّ أطلق النار على نفسه في غرفة في شارع «هير»، في الغرفة التي كان يعيش فيها السجين كامب، صانع الأحذية.»

بعد سماع هذه الكلمات لم أكن بحاجة إلى التخمين؛ إذ صِرت متأكدة من أن الجندي هو توم هابسي.

رفعت الغطاء الرديء الذي كان موضوعًا على الجثة؛ غطاءً كان قد أُخذ من غرفة «السجين كامب»، وعندئذٍ رأيت بما لا يدع مجالًا للشك ما تبقَّى من ملامح توم هابسي، بينما كان الحشد المُتلهف يتجمع حولي وهو سعيد بفرصة رؤية هذا المنظر المرعب.

وهكذا في غضون ستة أشهر، بعد بعض التوجيهات الرسمية نُقلت الجثة إلى المشرحة؛ وبذلك كانت جوانا كامب قد انتحرت، وكذلك فعل الجندي المبتهج توم هابسي، وثالث الثلاثي المتواضع، جون كامب، مُلقًى في السجن بعدما اعترف بارتكابه جريمة القتل.

لا أريد ان أدع القارئ يظن أن هذه القضية غير حقيقية لأنها قد تبدو مبالغًا فيها؛ فالفقراء والبؤساء عادةً ما يجدون الموت أفضل من الحياة. وبالفعل في هذه القضية تحديدًا، كان الرجل والمرأة في غاية الوحدة والبؤس قبل أن يتقابلا، بسبب عيوبهما الجسدية، فلا عجب أنهما سقطا فريسةً لليأس عندما حطَّم حبَّهما رجلٌ أناني وبلا قلب.

وجد الباحث في المشرحة على جثة توم هابسي المسكين تلك الرسالة التي برَّأت جون كامب، مع أنه كان بوسعي إنقاذه لو كانت الرسالة سقطت من الجثة في طريقها إلى المشرحة.

وذلك لأن الرصاصة التي استُخرجت من جثة هيجام، كان حجمها يتناسب بالضبط مع المسدس الذي وُجد في يد هابسي اليمنى، والأكثر من ذلك أن الرصاصة التي استُخرجت من صدغ توم حيث كانت قد استقرَّت، كانت قد صُبَّت في نفس القالب (كما أثبتت علامة كسر) الذي صُبَّ فيه الدليل الذي قدَّمه الطبيب في التحقيق الخاص بمقتل مُقاول الجيش.

بعد ذلك ذهبت إلى زنزانة جون كامب بعد حصولي على إذن بذلك.

بالمناسبة، لن أذكر نص رسالة توم هابسي التي وُجدت على جثته؛ لأنها كانت مكتوبة بهجاءٍ سيئ، وبأسلوبٍ مبالغ فيه وعاطفي، وهو ما قد يبدو سخيفًا لقُرائي الذين لن يُبالوا كثيرًا. يكفي أن أذكر أنه قال إنه قد أخذ على عاتقه تطبيق القانون بنفسه، أولًا بقتل «من أغوى جوانا»، ثم بقتل نفسه.

كما قلت، ذهبت إلى زنزانة جون كامب.

حدَّثته قائلةً: «جون كامب، أنت لم تقتل السيد هيجام.»

نظر إلى أعلى بذهول.

ثم أخبرته بكل شيء.

لم ينتحب؛ فقد كان محطَّمًا تمامًا، ولم يُبدِ أي اندهاش عندما أخبرته أن ورقة السلاح الناري هي ورقة من الكتاب الذي كان مُغرَمًا به بشدة، ولم ينتبه كثيرًا لشرحي الذي مفاده أنه لا بد أن الجندي قد مزَّق ورقةً من الكتاب عندما كان يفكر في ارتكاب جريمة القتل.

كل ما قاله كان: «مسكين يا توم!»

بعد مرور بعض الوقت، فهمت كيف تصادف وجود كلا الرجلين في الحقل في نفس الوقت الذي وقعت فيه الحادثة.

كانت الشابَّة التي كان من المقرَّر أن تلتقي بهيجام، والتي كانت تشعر بفخرٍ شديد بهذه المقابلة، قد نقلت الخبر إلى إحدى رفيقاتها (والتي بالطبع كانت تعرف كل شيء عن الكلام الدائر عن موت جوانا)، وكانت هي التي أبلغت الأخ والجندي بأمر هذا اللقاء، ولكنني لم أعلم أبدًا نيَّتها من وراء ذلك، إلا أنني تكهَّنت أنها فعلت ذلك بدافع تطبيق تلك العدالة البشعة والقاسية التي تكمن في قلب كل إنسان؛ والتي تُسمى الانتقام.

أجل، كان كل ما قاله هو: «مسكين يا توم!»

قلت له أخيرًا: «ولكن، يا جون، لماذا قلت إنك أنت الذي قتلت الرجل؟»

نظر إليَّ بأكبر قدر من البساطة المُنهَكة، وقال:

«لقد ذهبت لقتله، وكان يجب عليَّ أن أفعل ذلك لو لم يفعله توم. لم أعرف حينئذٍ من الذي أطلق عليه النار. لقد كنت أنوي قتله؛ لذا سلَّمت نفسي.»

إذن، ها قد قصصت عليكم حكايتي «حكم الضمير».

يعيش جون كامب الآن في أستراليا، وهو بحالٍ جيد، وأنا لست آسفة على أنني ساعدته على أن يكون في حالٍ جيد. لقد ردَّ لي منذ فترة طويلة المالَ الذي كنت قد أعطيته إياه، كما أنه يُخبرني أنني إذا احتجت لبعض المال فعليَّ أن أخبره بذلك.

أعتقد أنه سعيد لوجوده في أستراليا؛ حيث إنهم لا يتَّسمون بالتدقيق من الناحية الاجتماعية كما هو الحال هنا في إنجلترا، حتى فيما يتعلق بالأطباء. لقد تمكَّن منذ فترة طويلة من أن يعمل مساعدًا ثانيًا في أحد المستوصفات، وأنا متأكدة من أنني لن أتردَّد لحظةً في تناول وصفة طبية من إعداده، حتى ولو كان قد أعدَّها في الظلام!

العثور على طفل ميت:
هل هي جريمة قتل أم غير ذلك؟

كان لديَّ الكثير من الشكوك فيما إذا كان من الصواب طباعة القصة التالية، ولكنني أفعل؛ لأنني أظن أنها تستحقُّ التسجيل. بعبارةٍ دقيقة، هي ليست تجربةً تخصُّني بأيِّ حال من الأحوال. كان من قدَّمها لي مكتوبةً بخط اليد هو الطبيب الذي حثَّني على متابعة قضية لغز الجسر. وربما يكون قد عاد لزيارتي مرةً ثانية لأنه شعر بالإطراء بسبب الاحترام الذي أبديته له خلال أول تعامل لي معه. سأنقل القصة كما سلَّمها لي بالضبط؛ لأنني أعتقد أن هذه هي الطريقة الوحيدة المقبولة لتقديمها إلى الجمهور. إليكم ما كتبه الطبيب: (سيجد العديد من الناس تشابهًا مُدهشًا بين هذه الحكاية وتفاصيل موت الصغير فرانسيس سافيل كينت، وهو ضحية مأساة «رود هيل»، ولكنْ ثَمة فرق جذري بين الواقعتين، حيث سيتبيَّن في هذه الورقة أن مُرتكب الفعل الشنيع لم يكن شخصًا يمكن تحديد هُويته على أنه واحد من سكان منزل السيد كينت في ليلة وقوع الحادثة، بل على العكس من ذلك؛ فالشخصية الرئيسة هي زائر للمنزل الذي تقع فيه الأحداث، بينما، في الحادثة الحقيقية الرهيبة التي وقعت بالقرب من «فروم»، لم يكن يوجد أي زائر في ذلك المنزل وقت وقوع المأساة. ومع ذلك، إذا كان القُرَّاء مُصممين على أن يروا في هذه الورقة محاولةً لتوضيح وقائع حكاية «لغز الطريق»، فأنا لا أُؤاخَذ على عدم قدرتي على خداعهم في هذه النقطة. يمكنني أن أضيف أنه حتى يُحَل لغز هذه القضية الشديدة الغرابة، إن كان ذلك ممكنًا، فلا بد أن يقع جميع شاغلي ذلك المنزل تحت طائلة الشك نوعًا ما؛ ومن ثَم فأي محاولة

لحصر دائرة الشك في فرد بعينه عن طريق إثبات ارتكابه لهذه المصيبة، ستشكِّل تصرفًا بالغ اللطف والإنصاف، مهما يكن من صعوبة ذلك على من سينحصر فيه الشك.)

كنت جالسًا، ربما حزينًا قليلًا، أنظر إلى الشارع من نافذة حانة كئيبة، وأفكر في بيت ضائع، عندما سمعت الكلمات الآتية بصوتٍ خفيض وناعم:

«لا يوجد منطق في المسألة برمَّتها من بدايتها إلى نهايتها.»

عرفت نبرة الصوت بعد لحظة، أو ظننت ذلك، وهو الأمر نفسه إلى حدٍّ كبير؛ لأن الشك غالبًا ما يكون يقينًا حذرًا، وبدايةً نظرت عبر الحاجز الذي كان يفصل مائدة عشائي الكئيبة عن المائدة المُجاورة.

كان هاردال دون أدنى شك. هاردال نفسه، وكان يبدو أكثر ضعفًا وجموحًا وجاذبية من أي وقت مضى. لم يكن رجلًا وسيمًا ولا أنيقًا، ومع ذلك فقد كان ممن يجعلون المارَّة الأذكياء والمُنتبهين يتطلعون إليه بتساؤل وحيرة.

إن هاردال رجلٌ نحيفٌ قصيرٌ شاحب الوجه، وله عينان حزينتان ولكنهما ثاقبتان، ولديه عادة النظر إلى الناس، وهو ما يُثير غضب البعض وخوف البعض الآخر.

لقد لاحظت خصوصيته هذه في مدرستنا، وقد أُتيحت لي فرصٌ كثيرة، خلال العام الماضي أو نحو ذلك، لملاحظة الصفات الغريبة لصديق دراستي القديم؛ فأنا لست بحاجة إلى قول إنني، بعدما تعرَّفت عليه، قدَّمت نفسي له على الفور. دائمًا ما يوجد الكثير من الصدق المتبادَل والود والزمالة الجيدة بين من ذهبوا إلى نفس المدرسة وتعرَّضوا للضرب معًا.

كان هاردال معروفًا في المدرسة بأنه الأكثر غرابة، وهو معروف الآن في نقابة المُحامين العامة بأنه المُحامي الأغرب بين أي من أقرانه ممن ارتدَوا عباءة المحاماة والشعر المستعار. كان مثارًا للشك في المدرسة بسبب غرابته، أما الآن فهو محل تساؤل بسبب غرابة أطواره. لم يتفق قط مع زملائه في المدرسة، والآن لا ينسجم مع زملائه في المهنة. إنه تمامًا كما كان في طفولته، وهو يُواجه الآن نفس التحامل الذي كان يُواجهه في صغره؛ فهم يتَّبعون فحسب قانون الانتقال الوراثي. إن شقاء العبقري المجهول أن يتعرَّض للتشكيك، مثلما أن فخر العبقري المعروف أن يشعر الناس نحوه بالهيبة. كان هاردال ولا يزال عبقريًّا غير معروف. عندما كان صبيًّا كانوا يعتقدون أنه مجنون، وهذه إحدى مزايا العبقرية، وحاليًّا كَوْنه رجلًا أشك فيما إذا كان زملاؤه متأكدين تمامًا من أنه عاقل. إنه يعرف مكانته مثل أي رجل آخر، ويقول: «لن أصعد من العدم أبدًا (لأنني لست رجلًا عاديًّا)، ما لم أُحَط

بظروفٍ غير عادية، عندئذٍ لن يُعيق صعودي شيء. أنا رجل لا يستطيع أن يصنع فرصة، ولكن إذا أتيحت لي واحدة فسأستخدمها خير استخدام، ما لم يثبِّط عزمي الحمقى من الجهلاء أو المغرورين، أو كليهما.»

في المدرسة، لم يكن أي شيء يجعل هاردال يحيد عما يراه صوابًا. أتذكَّر الحادثة الخاصة التي جعلته يُوصَف بالواشي، والتي كانت السبب الحقيقي وراء تركه للأكاديمية التي التقينا فيها.

وصل إلى المدرسة معلم لغة لاتينية صغير ولطيف ومُتواضع للغاية، ولأن الأولاد كانوا جُبناء بما يكفي لأن يغفروا الوداعة واللطف، فقد تحوَّل المعلم الجديد إلى أضحوكة. طرحوا عليه أكثر الأسئلة فظاعةً، ووضعوا على مكتبه خلسةً أشد الرسائل بذاءةً من خلال الشق الموجود أعلاه. تعامَل مع كل هذه التصرفات بهدوءٍ شديد، مع أنه كان يُتناقَل همسًا أنه سُمِع وهو يبكي في غرفته الخاصة، ولكن ما حدث مع قبعته في نهاية أسبوعه الأول كان كفيلًا بإغضاب حتى هذا الرجل الوديع.

أخذ الرجل المسكين قبَّعته بهدوء من فوق الشماعة ووضعها على رأسه، استعدادًا للخروج وهو يحمل نسخته المحبَّبة من كتاب «بيرسيوس» تحت ذراعه، وعندئذٍ وقع هيكل القبعة وتاجها على الأرض، ولم يبقَ سوى حافَّتها فوق الوجه المُتفاجئ لمعلم اللاتينية الشاب، فبدا إطار القبعة مثل تاج غريب مرفوع من عند الحافة المُقابلة للرأس وبه البطانة الجلدية للقبعة نفسها.

لا يبخل الأولاد بالسخرية أبدًا، وقد أثار هذا المشهد عاصفةً من الضحك، حتى إن بارجي — وهو الاسم الذي أطلقناه على الطبيب الضخم الذي كان يشغل منصب ناظر مدرستنا والذي دائمًا ما كان يحمل عصًا لمعاقبة الأطفال — خرج يمشي بخُطًى ثقيلة من غرفته الخاصة، التي اعتدنا الذهاب إليها لتلقِّي العقاب، وهو يبدو كأنه فيلٌ غاضب.

وقف معلم اللاتينية الشاب وهو لا يزال مُتوجًا! بالطبع هاجَم بارجي المعلم الصغير على الفور وضايَقه كثيرًا؛ وهذا لأنه كان من أكثر الرجال ظلمًا، وأدَّى هذا إلى شرحٍ عام لتصرفات التلاميذ، فأصدر بارجي فرمانًا يمنع أي صبي من دخول الملعب حتى العثور على الجاني، ورصد مكافأةً من خمسة شلنات لمن يقدِّم له أي دليل، على ألا يكون الشاهد شريكًا فعليًّا في الجُرم.

لكل مجتمع جبناؤه، وفي غضون خمس دقائق كان آلين باكنهام اتَّهم سيث كوندل، أغبى الأولاد وأكثرهم تعرضًا للضرب، بارتكاب الجريمة.

لم يكن لدى سيث أي شيء يقوله؛ فقد كان يؤمن بأنه قد وُلد لتلقِّي الضربات والظلم، وسرعان ما ورَّط نفسه في دوامة من التناقضات، حتى إن ذلك الجاهل العجوز بارجي حكم عليه في الحال بأنه كان مُذنِبًا، وتلقَّى أول ضربة بعدما رفعوه بالحبال.

هزَّت هذه الضربة مكتب بارجي الحكومي، حيث كانت تُنفذ عملية العقاب، وسقط إطار القبعة، الذي قُدِّم دليل اتهام ضده، على المكتب بفعل الصدمة وبالقرب من بارجي. كنت أنا وهاردال نتشارك هذا المكتب. كنا نجلس عليه جنبًا إلى جنب.

رأيت هاردال يلتقطه ويقلِّبه بين يديه مرارًا وتَكرارًا، ثم شمَّ الجلد.

لاحظت أنه كان غير مُرتاح طوال ذلك الصباح. قال لي: «انظر يا رودي، هل تعلم أن إطار القبعة كان مُلتصقًا بجسمها بالصمغ؟ أنت تعلم أن كوندل ليس مُتأنقًا، وأنه ليس لديه أي صمغ. وبالإضافة إلى ذلك، لو كان لديه صمغ فما كان سيفكر في لصقه بإطار القبعة. أتعرف، يا رودي؟! لم يكن كوندل هو من فعلها، وأنا أنوي معرفة الفاعل الحقيقي.»

أريد من القارئ أن يُلاحظ نفاذ البصيرة هذا، وأن يتنبَّأ بما طبَّقه من نفاذ بصيرة مُشابه في الكشف عن حادثة قتل غامضة لأحد الأطفال. كان هاردال يعلم أن عددًا من زملائنا من الصِّبيان يستخدمون ماء الصمغ المعطر بعطورٍ مختلفة، لتجعيد شعرهم وتثبيته على جباههم. كان هؤلاء الصِّبيان هم من أطلقنا عليهم اسم المُختالين. لم يكن كوندل واحدًا منهم بكل تأكيد؛ فقد كان شعره خشنًا وكأنه سجادة لها شعرٌ طويل. كان هاردال متأكدًا تمامًا، بعدما اشتمَّ الصمغ الملصوق على الجزء الداخلي من إطار القبعة، من أن كوندل لم يكن هو المُذنِب، ولكن من كان؟ كنت متأكدًا من معرفتي الجيدة به أنه لن يكشف الجانيَ أيُّ شخص غيره، وقد فعل.

كان ذلك في فترة ما بعد الظهر، وكان سيث المسكين على وشك أن يُرفَع مرةً ثالثة للعقاب، عندما اندفع هاردال، كما لو كان غير قادر على كَبْح جِماح نفسه، وقال: «سيدي الطبيب، إن كوندل لم يفعلها.» عمَّ المدرسةَ صمتٌ كصمت القبور في الحال.

شرع هاردال في دعواه فورًا، ودخل في صلب الموضوع في الحال. أظهر علامات الصمغ على إطار القبعة، وأشار إلى أن قلة من الأولاد فقط هم من لديهم زجاجات ماء الصمغ، ثم أخبر الناظر أن الصمغ الموجود على القبعة، إن تعرَّض للبلل، فستفوح منه رائحة ورد قوية. بالطبع يفهم القارئ حجته. أمر بارجي العجوز، كما لو كان هو من اكتشف كل شيء بنفسه، بتفتيش كل درج، ولكن لم يُعثَر إلا على زجاجةٍ واحدة من ماء الصمغ برائحة

الورد في صندوق باكينهام المُختال، الذي اعترف بذنبه على الفور من هول الرعب، وقال إنه هو من فعلها.

قال لي هاردال: «كنت متأكدًا؛ وقد اتَّهم سيث لأنه أحمق.» رأيت الدموع في عيون زميلي وهو يتحدث، ومع ذلك شنَّ الأولاد حربًا عليه بسبب تلك الأمارة على حبه للحق ومُناصرته للعدل، لدرجةٍ دفعته بالفعل لترك المدرسة التي يُديرها الطبيب. لم أسمع عنه أي شيء، ولم أرَه منذ ذلك الحين، حتى التقينا بالصدفة عندما تعرَّفت على صوته في غرفة الطعام الكئيبة تلك بحانة ستراند.

سأتغاضى عن سرد ما حدث في لقائنا. كنت أعلم دائمًا أن هاردال ليس رجلًا عاديًّا؛ ولذا لم أنزعج من العاطفة الشديدة التي أبداها عند رؤيتي. قال: «تُشبِه هذه المصادفة رحلة إلى الماضي، والماضي عندي دائمًا ما يكون أفضل من الحاضر.»

بالطبع سرعان ما قادنا حديثنا إلى الجملة التي كان هاردال قد قالها والتي تعرَّفت منها على صوته: «لا يوجد منطق في المسألة برمَّتها من بدايتها إلى نهايتها.»

قلت، بالإشارة إلى الجملة التي قالها: «أظن أنك تُمارس لعبتك القديمة مرةً أخرى، أليس كذلك؟»

قال: «أجل، إنني أحاول اكتشاف سر جريمة القتل تلك التي وقعت في منزل السيد كمبرلاند في شمال إنجلترا، هذا إن كانت جريمة قتل. إنها أكثر مسألة مُتناقضة صادَفتها على الإطلاق.»

أجبت: «صحيح، ولكن لمَ قلت «إن كانت جريمة قتل»؟ بالتأكيد لا يمكن أن يكون ثَمة أي شك في ذلك، أليس كذلك؟»

رد هاردال قائلًا: «بالتأكيد؟ إنك تظنُّ أنه لا يمكن أن يكون ثَمة أي شك في أنها جريمة قتل لأنك تفكر بالطريقة العادية. لقد سمعتَ عن العثور على جثة في ظل الظروف المعتادة لأي شخص مقتول؛ ومن ثَم قفزت إلى استنتاج أن جريمة قتل قد ارتُكبت، ولكن عندما تؤخذ الحقائق الكاملة للقضية بعين الاعتبار يكون هذا استنتاجًا سخيفًا، ولكن يا رودي، كما اعتدتُ أن أدعوك دومًا، لقد لاحظت الآن أنك جفَلت مجددًا عندما ذكرتُ اسم كمبرلاند، لماذا؟»

أجبت قائلًا: «أعرف آل كمبرلاند، وأُشفق عليهم كثيرًا. إنهم أُناسٌ طيبون، ويُعانون بشدة، حسبما أعلم.»

«هل تعرفهم؟»

«حسنًا، أعرفهم عن قرب.»

تابع هاردال بشغف قائلًا: «أخبرني، هل يرغبون في التحرِّي في أمر فقدان الطفل، أم أنهم مُحجِمون عن الشروع في المزيد من التحقيقات، بعد التحقيقات المريعة التي جرت؟»

أجبت: «على العكس، لا يوجد من هو أكثر تَوقًا من والد الطفل المتوفَّى لمعرفة سبب وفاته.»

«إذن هل يمكنك أن تقدِّمني إلى السيد كمبرلاند هذا، إذا أكَّدت لك أنني أظن أن لديَّ المفتاح لحل لغز هذه الكارثة؟»

«سأصطحبك إلى منزله، وسأضع نفسي في خدمتك، ولكن أولًا لا بد أن تُقنعني حقًّا بأن لديك أساسًا جيدًا ستبني عليه مساعيك.»

لأنه كما ترون، حتى أنا من أعرف هاردال جيدًا، كنت أشك فيه. إنني أعتقد اعتقادًا راسخًا أن التعرض للشك هو أحد اللعنات المتأصِّلة التي تُلازم العباقرة.

قال هاردال: «هذا منطقي تمامًا، ولكن لا تلعبي دور القاضي وإلا فستتشكَّك. إن جريمة القتل هذه، هكذا سأسمِّيها اختصارًا، لم تكن جريمةً عادية، ولا يجب تفسيرها بأي منطق عادي. عندما توصَّل نيوتن إلى اكتشافه العظيم للجاذبية لم يستند إلى جهودٍ عادية؛ فلو كان فعل ذلك فربما كان سيموت دون أن يعرفه أحد. والآن اسمع. يوجد شرطان لجريمة قتل أكيدة، ولا بد أن يكون كلا الشرطين موجودين للدلالة على أنها جريمة قتل أكيدة، ولا يمكن أن يكون الشرط الأول غير موجود. الشرط الأول هو الدافع، والثاني هو إخفاء الجثة. إذا قتل رجل رجلًا آخر دون دافع فالفعل ليس قتلًا؛ لأن القتل هو سلب حياة شخص آخر عمدًا، أما إذا قتل رجل رجلًا آخر في وجود دافع القتل، ولكن دون أخذ الحيطة، سواء بإخفاء الجثة أو بصرف الشبهات عن نفسه؛ عندئذٍ تكون الحبكة معيبة، وتُشير إما إلى جنون لدى الجاني، أو إلى علة لديه قد ندعوها جنونًا. على سبيل المثال، لو قتلتُ رجلًا في مكتبي في الطابق الثاني بإطلاق النار عليه، أليس هذا الفعل أحمق؟ سألفِت انتباه من حولي بالمسدس الذي أحمله، كما أن ليس لديَّ أي وسيلة لإخفاء الجثة. إذن فقد كنت أتصرف انطلاقًا من حالة جنون دائم أو مؤقت؛ لذا أنا لست قاتلًا حقيقيًّا؛ لأن القاتل الحقيقي لا يُظهر دافعًا فحسب، بل قدرةً منطقية تمامًا على السيطرة على نفسه.

والآن ماذا كان الدافع الحقيقي لقتل الطفل في هذه القضية؟

وماذا تعني السيطرة على النفس التي أظهرها المجرم بإخفاء الجثة؟

دعيني أعرض عليكِ حقائق هذه القصة. خلدت الأسرة إلى النوم في الوقت العادي في إحدى الليالي. يوجد في حجرة نوم الطفل ثلاثة أسرَّة؛ واحدٌ أسفل النافذة ينام فيه طفلٌ

يبلغ من العمر أربع سنوات تقريبًا، والثاني ينام فيه طفلٌ أصغر سنًّا، والثالث تنام فيه المربِّية، وحدها عامة عادةً، ولكن وقت حادثة القتل، كما سأستمر في تسميتها، كان أحد أصدقاء المربِّية يشاركها هذا السرير.

يغلب النعاس المربِّية الساعة الحادية عشرة، وتستيقظ في الخامسة صباحًا؛ وهو ما يعني أن الصباح كان قد أشرق منذ ساعتين؛ لأن تلك الكارثة وقعت في نهاية شهر يونيو. كما هو طبيعي، تنظر عبر الغرفة إلى المهد الذي ينام فيه الطفل، ولا تجده فيه، فتخلد للنوم مرةً أخرى مُفترضةً أن الطفل قد ذهب، أو أنه أُخذ إلى غرفة أمه التي توجد عبر الممر مباشرةً، ولا تستيقظ إلا عندما يحين وقت الاستيقاظ. تنهض، وتُلبِس الطفلة الصغيرة التي تنام في المهد القريب منها، ثم تذهب على نحوٍ طبيعي جدًّا إلى باب غرفة الأم، وتسألها عن الطفل، ولكن الطفل ليس موجودًا هناك. مُفترضةً أنه في الطابق العُلوي في غرفة الأخت الكبرى، تصعد إلى هناك وتكرِّر سؤالها، ولكنه ليس موجودًا هناك أيضًا. يتنبَّه أفراد الأسرة، ويُفتشون المنزل بحثًا عنه، دون جدوى عدا العثور على باب غرفة المعيشة وإحدى نوافذها مفتوحتين. ينطلق الأب على الفور في سيارة إلى أقرب رجل شرطة، مُعتقدًا أن الطفل قد اختُطف، ويستمر البحث عن الطفل المفقود. وبينما لا يزال الأب غائبًا عن المنزل، يُعثَر على جثة الطفل مُلقاةً بعيدًا عن الأنظار، دون إخفائها، أسفل كرسي مرحاض الخادم مباشرةً، وملفوفة ببطانية.

هذه هي الخطوط العريضة للقضية، ومع أننا قد وجدنا بالفعل حقيقتين غير مفهومتين إلا أننا لم نُفاجأ بعد. وهذه الحقائق هي كما يلي؛ أولًا: إحدى نوافذ غرفة المعيشة مفتوحة. ثانيًا: تنمُّ طريقة إخفاء الجثة عن حماقة تُضاهي حماقة النعامة، التي تدفن رأسها في الرمال وتظن بهذا أن الصياد لا يراها. أُخفيت الجثة — إذا جاز أن نسمِّي ذلك إخفاءً — في المكان وبالطريقة التي تجعل من اكتشافها على الفور أمرًا لا بد منه، وقد أُلقيت في ظروف لم يكن من الممكن أن تظل فيها غير مرئية. في الواقع، طريقة الإخفاء هذه ضعيفة جدًّا بدرجةٍ تُوحي بالحماقة.

ولكن عندما نأتي إلى استقصاء الحقائق الغريبة والعديدة لهذا الفعل، فستدلُّ كل واحدة منها على أن هذه الجريمة بعيدةٌ كل البعد عن جرائم القتل عن سبق إصرار وترصد؛ لذا لا بد أن نشعر أن تطبيق القواعد العادية للعلاقة بين المسبِّبات والنتائج على هذه القضية، لن يقودنا إلى أي شيء سوى خيبة الأمل.

في المقام الأول، من غير الطبيعي أن يتمكن أي إنسان من دخول الغرفة دون إيقاظ بعض مَن فيها. ومع ذلك دعنا من هذا، ولنتحدث عن عملية أخذ الطفل. لقد أُخذ الطفل بحرص واهتمام «نسائي»؛ لأنه كان ملفوفًا في بطانية. وهنا يأتي السؤال، من أين أتت البطانية؟ والإجابة هي، من بين الملاءة وغطاء السرير الذي شكَّل الكسوة العلوية للسرير. حسنًا، يمكننا أن نفهم أنه، عند «اختطاف» طفل، قد يفكِّر الخاطف، حتى وإن كان رجلًا، في وضعه في بطانية، ولكن عندما يتعلق الأمر بالقتل فاستخدام البطانية هذا لا تفسير له.

لكن الأمر الغريب الآتي المتعلق بهذه الحادثة هو الأكثر عجبًا في القصة كلها. لا بد أن الملاءة وغطاء السرير قد أُزيحا بقدرٍ كبير من مكانهما بسبب سحب البطانية من بينهما. ومع ذلك نجد أنهما لم يُزاحا من مكانهما، بل مرتَّبان وممهَّدان، كما لو أن السرير قد «رُتِّب» بعد القتل وقبل اكتشاف الجريمة، ولكن الأمر ليس كذلك؛ لأن أثر جسد الطفل لا يزال موجودًا على السرير، وتحت الملاءات الممهَّدة.

سواء أُخذ الطفل حيًّا أو ميتًا من السرير، فلا يزال إعادة ترتيب غطاء السرير أمرًا بلا تفسير. هل يمكن أن يبقى قاتلٌ عاقل، أو حتى خاطف طفل عاقل، ليعيد ترتيب ملاءة السرير وغطائه؟ ومرةً أخرى، إذا لم يكن يوجد شريكان مُتواطئان وحاضران معًا، فهذا يعني أنه كان على القاتل وحده أن يضع الطفل على الأرض وهو يرتِّب الملاءة وغطاء السرير. هل كان من الممكن أن يظل الطفل نائمًا، هذا إن كان لا يزال على قيد الحياة وهو يؤخذ من الغرفة، خلال كل هذه التصرفات غير العادية دون أن يستيقظ؟

والآن تأتي مسألة إخراج الجثة من المنزل. لقد وُجدت نافذة غرفة المعيشة مفتوحةً، وهذا هو المخرج الوحيد من المنزل الذي اكتُشف أنه غير مُوصَد. الحقيقة اللافتة للنظر هي أن هذه النافذة هي أبعد سبيل للخروج من المنزل من الموضع الذي عُثر فيه على الجثة.

للوصول إلى ذلك المرحاض، كان على الشخص الذي يحمل الطفل أن يمرَّ حول «مقدمة» المنزل، وبين المنزل والطريق، ثم يمرَّ من بوابات الفناء، التي يقبع خلفها كلبُ حراسة؛ ومن ثَم يصل إلى المرحاض. بعد الوصول إلى المرحاض نجد أن جسد الطفل مشقوق بأبشع الطُّرق، والرأس يكاد أن يكون مفصولًا عن الجسد، كما توجد طعنةٌ مُخيفة نافذة عبر جسده، وبالقرب من القلب.

بعدما لُفَّ جسد الطفل المسكين في البطانية أُلقي أسفل المرحاض على بُعدِ أقدام قليلة، حيث استقرَّ على الحاجز، وعُثر عليه هناك. كما اكتُشفت قطعةٌ صغيرة من قماش الفانيلا.

وهكذا تبقى الأمور محل التحقيق، ومنها جميع الحقائق السالف ذكرها، والآتية أيضًا. تقول المربِّية عن السرير المرتَّب: «لقد وُضعت أغطية السرير على نحوٍ مرتَّب، كما لو كنت أنا أو أُمه من رتَّبها.» عُثر على الكلب في حالةٍ صحية عادية في صباح اليوم التالي للقتل. يلي ذلك الدليل الخاص بالرجل الذي اكتشف الجثة، الذي يذكر أنه عثر على نحو ملعقتين من الدماء «الغامقة اللون» على أرضية المرحاض. أما خارج المرحاض، فعُثر على قطعة من جريدةٍ ملطَّخة بالدماء، ولم يُحدَّد مطلقًا إن كانت هذه الجريدة جزءًا من أي جريدة في المنزل. أما دليل الجرَّاح فهو في غاية الأهمية؛ إذ يُلقي الضوء على العديد من الملابسات التي لا يمكن تفسيرها في القضية. لقد ذكر أن الفم قد تغيَّر لونه، وأن الكمية الصغيرة من الدماء على أرضية المرحاض لا تمثِّل أي شيء يُشبِه الدماء التي كانت تجري في عروق الطفل، وأن عدم وجود دماء على أرضية المرحاض يُثبِت أن الجروح قد حدثت بعد الوفاة، أو بمجرد حدوثها وتوقُّف عمل القلب. في الواقع، تُشير أدلة الطبيب إلى أن الطفل قد تعرَّض للخنق قبل إحداث الجروح عبر الحلق وفي الصدر. وصف الجرَّاح الجروح بأنها جروحٌ بالغة الوحشية؛ فقد شُقَّ الحلق وصولًا إلى العظم، ويُظهِر الجرح في الصدر قوةً كبيرة. عندما رأى الطبيب الجثة في التاسعة صباحًا، أعلن أن الوفاة حدثت قبل خمس ساعات؛ وهذا يعني أن الساعة الرابعة كانت هي الموعد الأقصى لارتكاب جريمة القتل (أي بعد مرور ساعة واحدة من أول ضوء للصباح، ومن وجود الكثير من العمال الصيفيين بالخارج، كما يمكن أن نفترض)، بينما يمكن اعتبار منتصف الليل أبكر وقت يمكن أن يكون قد ارتُكبت فيه الجريمة، بما أن الأسرة خلدت إلى النوم في حوالَي الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا. هذا يحصر الوقت الذي ارتُكبت فيه الجريمة بين منتصف الليل والرابعة صباحًا، أو على الأرجح بين منتصف الليل والساعة الثانية صباحًا. (للقارئ العادي، الذي ربما لا يكون على درايةٍ كاملة بنظام الدورة الدموية للإنسان، تتطلب هذه الجملة بعض الشرح. يمرُّ دم جسم الإنسان كله (بل في الواقع، دم جميع الكائنات الحية في وقت أكثر أو أقل) في جميع أنحاء الجسم في حوالَي ثلاث دقائق، تاركًا القلب عبر سلسلة واحدة من الأوردة، وهي تلك التي تدق أو تنبض، ويعود عبر سلسلة ثانية من الأوردة التي لا تنبض. يُدفَع الدم إلى الأمام عن طريق انقباضات القلب، وعند كل انقباضة تنتفخ أوردة القلب، أو الشرايين، قليلًا. إذا قُطِع أحد هذه الشرايين بينما لا يزال القلب نابضًا بالحياة، فسيندفع الدم خارجها تمامًا مثلما يندفع الماء خارجًا من أنبوب ماء مُنفجر، وسيتطاير في كل مكان، وسيُلطخ القاتل، إن كان يوجد قاتل، بينما إذا قُطِع شريان بعد الوفاة، أو

بعد توقُّف عمل القلب، وبينما لا يزال الجسم دافئًا، فسيتسرَّب الدم الساكن ولكنه متجلط جزئيًّا (وهذا لأن الدم يبدأ في التجلط في اللحظة التي تتوقف فيها حركة القلب عن دفعه) تدريجيًّا من الشريان على هيئة تدفُّق دموي داكن اللون؛ ولذلك في حالة هذا الطفل، حيث لا توجد آثار دماء على الحائط أو على كرسي المرحاض، ولا يوجد سوى القليل من الدم الداكن على الأرض، فالاستنتاج المؤكد هو أن الموت قد حدث قبل إحداث الجروح).

باختصار، يضع الطبيب الشرعي، والذي يبدو أنه ليس كفئًا للغاية، معظم التركيز على نافذة غرفة المعيشة التي وُجدت مفتوحةً بمقدار قدم واحدة تقريبًا.

تَبِع استجوابَ الطبيب الشرعي العديدُ من الأحداث. وما يجذب انتباهَ الرأي العام هو ألغاز هذه القضية، وليس فظائعها، وفي النهاية يُجرى تحقيقٌ رائع ولكنه عادي، ويفشل تمامًا، وهو أمرٌ طبيعي. فإذا كنت تأمل في اكتشاف إجابات استثنائية لأسئلة عادية، فهذا منطق لا ينطوي على العقلانية.

أول من يُشتبَه به هو صبيٌّ يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، وهو خادمٌ مسئول عن الأعمال الخارجية لدى السيد كمبرلاند؛ وهذا لأنه كان قد سُرِّح من الخدمة في اليوم السابق لجريمة القتل، ولكن تبيَّن أنه كان نائمًا ليلة الجريمة في منزله، الذي يبعُد عن مكان الكارثة بحوالَي ميلين؛ لذا استُبعد من دائرة الشك.

بعد ذلك يُقبَض على ابنة السيد كمبرلاند؛ لأن أحد ثياب نومها كان مفقودًا، وإذ يفشل التحقيق في هذا الأمر تضع المربِّية نفسها في محل الشكوك؛ لأنها على ما يبدو قالت إن الصبي «قُتل بدافع الانتقام»، ولأنه عُثر على قطعة من قماش الفانيلا في الحمام، وتحت جسد الطفل، والتي ربما كانت أو لم تكن موجودة قبل وقوع جريمة القتل. يفشل هذا الاتهام كما فشلت الاتهامات الأخرى، على الرغم من إجرائه على نحوٍ رائع، ولكن على أساس أن جريمة القتل جريمةٌ ذات طابع عادي، ارتُكبت بدافع وفعل عادي، ولكن تحيط بها العديد من الملابسات الاستثنائية. يشير المحامي الذي يدير القضية إلى العديد من الحقائق القيِّمة. إنه يُصرُّ على أنه إذا كان من ارتكب الجريمةَ شخصٌ من خارج المنزل، فلا بد أنه كان لديه شريك بداخله، وهذا لعدم وجود علامات تدل على وجود عنف خارجي بالقرب من المنزل، ثم يُشير إلى أن النافذة وُجدت مفتوحةً بمقدار قدم واحدة فقط؛ وهو ما يعني أنها لم تكن مفتوحة بما يكفي لمرور أي شخص يحمل طفلًا. ويقترح أنه بما أن النافذة تُحدِث ضجيجًا عند رفعها لأعلى، فلا يُثبِت هذا فحسب أن من رفعها كان أحد أفراد الأسرة، بل أنه فعل ذلك بغرض الخداع، ومع ذلك لم يُخبرنا المحامي شيئًا عن طبيعة هذا الخداع. ثم

يزعم، بناءً على حالة السرير، بأن شخصين كانا متورِّطين في القتل، ولكن دون أن يتشكك في غرابة هذا الفعل الذي لا مسوِّغ له، أو أن يشكَّ فيما إذا كان الطفل على قيد الحياة عندما أُخذ من الغرفة. في الواقع، حجة هذا الرجل المحترم هي أن أحد سكان المنزل هو من ارتكب جريمة القتل، وأن من المرجَّح أن تكون المربِّية هي التي ارتكبت الجريمة. (من الواضح أن صديق المربية، الذي كان نائمًا معها، لم يكن مُشتبَهًا به، وثَمة أسباب لذلك).

تفشل القضية فشلًا ذريعًا، ويُفرَج عن الفتاة، ويبقى اللغز قائمًا دون تفسير، كما كان في صبيحة أول يوم بعد جريمة القتل.»

«هنا استراح هاردال، الذي ارتسمت على وجهه نظرةٌ جامحة بحلول هذا الوقت لوهلة، ثم تابع قائلًا: «والآن يا رودي، أنصِت لروايتي حول هذه المسألة، ثم ساعدني في إثباتها إن شئت. توجد ثلاثة أسئلة تحتاج للإجابة عليها؛ أولًا: هل كان مُرتكب الجريمة من غير المُقيمين بالمنزل؟ ثانيًا: هل كان مُرتكب الجريمة من أحد المُقيمين بالمنزل؟ ثالثًا: من الذي ارتكب الجريمة، ولماذا ارتكبها؟

(١) هل كان مرتكب الجريمة من غير المقيمين بالمنزل؟

إن كان كذلك فسيفعل فعلته بتسترِ شخصٍ ما من داخل المنزل، أو من تلقاء نفسه. أظن أن التحقيق الفظيع الذي خضعت له الأسرة يُثبِت بجِلاءٍ عدم وجود شريك في الجُرم من أحد أفرادها. ومع ذلك لا توجد آثار تدل على دخول المنزل عن طريق السطو؛ ومن ثَم إن كان من دخله شخصًا غريبًا فعلًا، إذن فقد دخله بطريقةٍ غير عادية. الاحتمال الوحيد هو أنه دخل المنزل من نافذة الطابق الأول أو الطابق العُلوي. والآن، هل كان من الممكن فعل ذلك؟ لا توجد كَرْمة أو أي نبات معترش آخر حول المنزل يمكن أن يستعين به أحد الغجر الراغبين في الانتقام، الذي قد يكون السيد كمبرلاند هدَّده مثلًا، للوصول إلى النافذة. بينما إن كان سُلَّم قد استُخدم فيبدو من المستحيل افتراض أن الكلب، ناهيك عن الأسرة بأكملها، ظل نائمًا ولم يسمع ضجيج محاولة تثبيته على النافذة. مرةً أخرى، من الممكن أن يكون أحد الغجر — وهم أكثر مَن يُحتمَل أن ينفِّذوا هذا النوع من الانتقام الذي يتمثل في اختطاف طفل أو قتله — قد أسكت الكلب، وهو فن يُعرَف عن الغجر أنهم بارعون فيه.

تُثبت سلامة الكلب في صباح اليوم التالي، وصمته أثناء الليل، أولًا أن أحدًا لم يعبث معه، ثانيًا أنه يتعرض للإزعاج من أي غريب. إذن، هل ارتكب الجريمةَ أيُّ شخص من غير المُقيمين بالمنزل، ولكنه في الوقت نفسه معروف للكلب؟ لا توجد على الإطلاق وسيلة

دخول المنزل. مرةً أخرى، هل اختبأ أي شخص في المنزل؟ هذا هو الاقتراح الوحيد الذي يؤيد النظرية القائلة بأن من ارتكب جريمة القتل كان من غير المُقيمين بالمنزل، ولكن في مثل هذه الحالة تقف في وجه هذه الحجة مسألةُ غرابة أنه في هذه الحالة جرى خداعٌ واضح لأفراد الأسرة في مغادرة القاتل للمنزل، ليس من الباب، بل من إحدى النوافذ، ثم وارَب تلك النافذة.

(٢) هل كان مُرتكب الجريمة من المُقيمين بالمنزل؟

إذا ثبت أنه من غير المحتمل للغاية أن يكون مُرتكب الجريمة من غير المُقيمين بالمنزل، إذن فما يتناسب عكسيًّا مع ذلك هو احتمالية أن من ارتكبها كان بالفعل من المُقيمين بالمنزل.

(٣) من الذي ارتكب الجريمة، ولماذا ارتكبها؟»

وهنا، أخذ هاردال نفَسًا عميقًا، وشرب كوبًا كبيرًا من الماء، ومسح جبهته المتعرِّقة، وتابع قائلًا: «سأُلزم نفسي بتسلسلٍ غريب من الكلام، وإن كنتَ مثل غالبية الحمقى الذين يحيطون بي فسترفض كلامي، وستُثبِت تفاهته وعدم صحته.

أولًا: اسمح لي أن أعضد كلامي بهذا الاقتباس الغريب الذي أخذته من أحد المقالات الرئيسة لجريدة «التايمز» بشأن هذه القضية برمَّتها.

«كنتيجة مؤلمة، لم يتبقَّ لنا إذن سوى أضيق دائرة شك على الإطلاق، وإلى جانب الإحراج الإضافي الذي أعقب حالات الفشل المُتتالية للعدالة ... يبدو حقًّا أن هذه القضية تحتاج في الأغلب إلى قراءة الغيب، أو إلى فن التنقيب عن المياه القديم الذي كان قائمًا على التنجيم باستخدام عصا استكشاف الماء. لقد فشلت تمامًا الطُّرق العادية في كشف الغموض.»

إنها جريدة «التايمز»! إنه، كما ترى، اعترافٌ كامل بأن التحقيق برمَّته فاشل، ومع ذلك يتمسكون بالاعتقاد بأن الدهاء، وليس الجهل، هو الذي أفشل جهود المحقق؛ إذ تُتابع الجريدة قائلةً: «ولكننا نثق أنه، في أحد جوانب القضية، ستُنفَّذ رؤية القاضي. ويجب عدم التواني ولو للحظةٍ واحدة عن اليقظة والرصد.»

لم يحدث هذا أو ذاك، ولم يُكتشَف أي شيء.»

تابع هاردال قائلًا: «والآن، دعنا نرى أولًا من كان نائمًا في المنزل ليلة وقوع الجريمة.

كان عدد الموجودين بالمنزل ليلةَ ارتكاب جريمة القتل ثلاثة عشر شخصًا؛ عشرة منهم بالغون، وكان نحو ستة منهم قادرين على تبرئة بعضهم بعضًا. كان ثلاثة منهم ينامون

في غرفة، وثلاثةٌ آخرون في غرفةٍ ثانية، واثنان في غرفةٍ ثالثة، واثنان آخران في غرفةٍ رابعة. لذا، باستثناء المُقيمين في غرفة الأطفال نفسها، لم يكن موجودًا في المنزل إلا شخصان لم يكن بوسعهما استحضار دليل بعينه يوضِّح سلوكهما طوال الليل. كانت الطاهية وخادمة المنزل تنامان معًا، والشقيقتان الكبريان تنامان معًا، وكان طفلٌ صغير ينام مع السيد والسيدة كمبرلاند في غرفة نومهما، أما السيد ويليام كمبرلاند والآنسة كونستانس كمبرلاند فقد كان لكلٍّ منهما غرفةٌ منفصلة، بينما كان الطفلان الصغيران — الطفل الصغير الذي قُتل، وطفلٌ رضيع يبلغ من العمر عامين — ينامان في غرفة الأطفال مع المربِّية، وأيضًا مع زائر لها من أقاربها، كان معروفًا جيدًا في المنزل وللأطفال، ودائمًا ما كان يعبِّر عن بالغ حبه للطفل الصغير القتيل.»

تابع هاردال: والآن سأتجرَّأ على أن أقول على الفور إنه لا يوجد دليل على جريمة قتل عادية في هذه القضية، وإن حقائق هذه القضية بأكملها تُظهِر قدرًا غير عادي من الغرابة، وإن جريمة القتل ارتُكبت بقدرٍ غير عادي من الغرابة على يد أحد سكان المنزل. وبما أن معظم التصرفات الغريبة والشاذة يكون دليلًا على الاعتلال الذهني، فقد توصَّلت إلى استنتاجٍ مفاده أنه إذا كان القاتل (كما سأسمِّيه أو أسمِّيها) واعيًا بجريمته، فغرابته واعتلاله الذهني لن يمكِّناه من الصمود خلال مثل هذا التحقيق العنيف الذي أُجري. وهكذا أستنتج أن الفعل قد ارتُكب بينما كان القاتل نائمًا وتحت تأثير اضطراب الهوس الأحادي بالقتل.

يبقى الآن التحقق، من خلال وقائع القضية، من هُوية الشخص الأكثر احتمالًا أنه كان تحت هذا التأثير. أما فيما يتعلق بافتراض أنه يمكن ارتكاب جريمة قتل أثناء النوم، وأن الهوس بالتدمير أو بالتصرف بطريقةٍ شاذة، قد يعذِّب الإنسان لسنواتٍ دون أن يعرف أي شخص آخر شيئًا عن هذا الأمر، فإنه يوجد الكثير من الحالات المثبتة جيدًا، والتي تسمح بالتشكك كثيرًا في هذه النقاط.

فيما يتعلق بحالات المشي أثناء النوم سنجد أن حالات إتيان أفعال معيَّنة أثناء حالة المشي أثناء النوم غير مُتكررة، ومع ذلك فهي في الوقت نفسه ليست شديدة الندرة لدرجة أن تكون عديمة القيمة في الدفع بحُجتي. سنجد أن الدكتور ستيوارت يقول في «موسوعة رييس للفنون والعلوم والأدب»: «يوجد العديد من الحالات التي يبدو فيها النوم جزئيًّا؛ وهو ما يعني الحالة التي يفقد فيها العقل تأثيره على بعض القدرات، ويحتفظ به على قدراتٍ أخرى.» يعتبر الدكتور داروين أن حالة السير أثناء النوم لا تُشبِه كثيرًا النوم بقدر

ما هي حالة كالصرع تقريبًا. سُجِّلت بعض حالات المشي أثناء النوم التي نُفذت خلالها مجموعة من الأعمال، وكلها تتَّفق مع أفكار اليقظة بقدرٍ ما. في إحدى الحالات لدينا صبي، لكَوْنه شديد الولع بالعنب، يمضي في منتصف الليل إلى كَرْمة للعنب ويجمع الثمار. في حالةٍ أخرى، ينهض صبي أثناء نومه في الظلام، ويطلب إشعال ضوء ليجد ثيابه، وبعدما يُلبَّى طلبه يرتدي ملابسه بسهولة، وعندما يدق جرس ساعة الوقواق، يقول: «يوجد وقواق هنا.» وما يدل على أن الفكرة المسيطرة تنحِّي كل الأفكار الأخرى جانبًا، هو أن هذا الصبي نفسه يكون حسَّاسًا للقرصات أو الضربات الطفيفة، إلا إذا «كان في ذلك الوقت مُنبهرًا بشيءٍ آخر بشدة». طلب مُراقِب هذا الصبي منه أن يكتب فكرة. ويقولون: «رأيناه يُضيء شمعة، ويأخذ القلم والحبر والورقة من درج طاولته، ويشرع في الكتابة، بينما شرع شخص من الموجودين حوله في إملائه.» ها هي سلسلة من الأحداث، ومع ذلك، توضح هذه الحالة تمامًا حجتي بأن الأفعال المرتكبة مختلَّة، أو بالأحرى تنمُّ عن خلل؛ لأنه مع أن المحبرة التي كان قد فتح عينيه ليجدها أُزيحت «عادت يده كالمعتاد إلى المكان الذي كان يعتقد أنها كانت فيه»، لا بد من ملاحظة أن حركة يده كانت سريعة حتى وصلت إلى ارتفاع المحبرة، وبعد ذلك حرَّكها ببطء حتى لمس القلم الطاولة برفق بينما كان يبحث عن الحبر. (للمزيد من المعلومات، انظر أطروحة هوفمان حول المشي أثناء النوم).

يقول الدكتور كوبلاند عن الهوس الأحادي بالقتل (قاموس الطب، المجلد الثاني، مقالة «الجنون»): «يرتكب الأشخاص المجانين جرائم القتل أو محاولات القتل: (١) عندما يكونون مدفوعين بحافزٍ لا إرادي أو رغبةٍ غريزية لا يستطيعون مقاومتها. (٢) عندما يكونون مدفوعين بدوافع يستطيعون التفكير على أساسها، وهم مُدركون للشر الذي اقترفوه. (٣) عندما يكونون تحت تأثير أوهام أو هلوسة أو تصورات خاطئة. (٤) عندما تُثيرهم عاطفة أو معارضة. (٥) عندما يعتقدون أنهم يُقاومون عدوًّا. (٦) عندما يكون الإدراك عاجزًا بحيث لا يستطيع التمييز بين الصواب والخطأ، وعندما يتصرفون بدافع التقليد. أولى هذه الحالات هي أكثرها شيوعًا، وهي التي سأوجِّه الانتباه إليها. سيبدو الأشخاص كما لو كانوا يتمتعون بالمنطق، وأنهم مُجبَرون على نحوٍ لا يمكن مقاومته، مع وعيٍ كامل بحالتهم، على ارتكاب الجريمة التي يُبغضونها أشد البغض. والسؤال هو: هل يوجد حقًّا شكل من أشكال الجنون يمكن أن يتمتع فيه الشخص بالمنطق السليم، ومع ذلك يرتكب أفظع الجرائم؟ وأقول: نعم. يستحيل لون وجه أحدهم فجأةً إلى اللون الأحمر، ويتخيل أنه يسمع صوتًا يُخاطبه، ويتصرف وفقًا لأوامره. وفي حالةٍ أخرى، كان أحد الأزواج مُقتنعًا

بأن زوجته غير مُخلِصة له، وعلى الرغم من أنه أخذ جميع الظروف بعين الاعتبار، ووجد أنها في صالحها، ومع ذلك قتلها. وفي حالةٍ ثالثة، تعتقد أم لأسرةٍ أنها في محنة، وفي نوبة من اليأس تُحاول قتل أفراد أسرتها، ولكن في هذه اللحظة يعلو صوت غريزة الأم على صوت اليأس وتصيح قائلةً: «احموا أطفالي مني.» وفي حالةٍ أخرى موثَّقة جيدًا، كانت خادمة، تتعهَّد رضيعًا، تعتريها رغبة لا يمكن السيطرة عليها في قتله في كل مرة كانت تُلبِسه فيها. يمكن الإشارة إلى كل هذه الحالات على أنها حالات وهم أو هلوسة مؤقَّتين، يمكن تحت تأثيرهما ارتكاب جرائم أو أفعال مجنونة، وبعد زوال هذه الحالة يشهد المريض فترة من الوعي.

أما قتل الأطفال فهو، كقاعدة عامة، ينمُّ دومًا عن الجنون التام؛ لسببٍ بسيط هو أن الطفل لا يمكنه أن يُثير أي دوافع. أما حالات قتل الأطفال الرُّضَّع التي لا يوجد فيها دليل على الجنون، فهي تلك الحالات التي تقتل فيها الأم طفلها بدافع العار أو العوز. إن هذا الدافع غائب في هذه الحالة. وفي حين أن غالبية جرائم قتل الأطفال ترتكبها النساء، ربما يكون الاستنتاج القائم هو أن، في غياب الدافع، قاتل هذا الطفل امرأة.

تُثبت الأدلة الظرفية للقضية أن المربِّية أو زائرها (الذي كان موجودًا ليلة القتل)، أحدهما هو مَن ارتكب الجريمة تحت تأثير حالة من غياب الوعي (أو النوم)؛ لأنه لا يوجد دليل على ارتكاب الفعل بشكلٍ واعٍ، وأن القاتل كان تحت تأثير حالة الهوس الأحادي، لغياب أي دليل على وجود دافع. يوجد دليلٌ واحدٌ غير مباشر على «التفكير اللاواعي» بشأن الطفل المقتول في الإفادة الآتية:

«ذكرت امرأةٌ شابَّة، عاشت مع الأسرة كمربِّية منذ حواليَ اثنَي عشر شهرًا، أنه في إحدى المرَّات عندما كان فردان فقط من الأسرة موجودَين في المنزل، عُثر على الطفل الصغير المقتول في مهده، وأن أغطية فراشه قد أُعيدت بعناية، وكذا بعض الجوارب الصوفية وبعض أقمشة الفانيلا التي كان يوضع في الفراش وهو يلبسها، والتي كانت قد خُلعت في الليلة السابقة لمقتله لأنه كان مريضًا. عُثر على إحدى فردتَي الجورب في الصباح على المِنضدة في غرفة النوم، وعُثر على الأخرى في اليوم التالي على سرير السيدة كمبرلاند التي عجزت تمامًا عن تفسير وجودها في ذلك المكان.» يقول الكاتب الجاهل الذي اقتبسنا منه الجمل الأخيرة تلك إن «هذه الإفادات، مع ذلك، ليس لها علاقةٌ مباشرة بهذه القضية الغامضة.»

إن لها علاقةً كبيرة؛ لأنها تبيِّن أن شخصًا ما في هذا المنزل يُعاني من حالةٍ عقليةٍ مضطربة وغير طبيعية. إنها تُثبِت صنع شخص يمكنه التصرف أثناء النوم. وبافتراض

أن هذا الشخص قد أصابته لعنة مرض الهوس الأحادي بالقتل، وبقبول حقيقة أنه يمكن القيام بسلسلة من الأفعال أثناء النوم، نصل إلى استنتاجٍ مفاده أن واقعة الجورب تُلقي بظلالها على احتمال أن يكون المنزل مسرحًا لسلسلة من الأفعال اللاواعية.»

أردف هاردال قائلًا: «أقول إن الأفعال غير المفهومة المتعلقة بجريمة القتل هذه تُثبِت أنها قد ارتُكبت في حالة من غياب الوعي والجنون، وإن مُرتكبها امرأة.

دعنا نُلقي نظرةً أولًا على تصرُّف لف الطفل ببطانية، هل يمكن لقاتلٍ واعٍ وعاقلٍ أن يفعل هذا؟ ومع ذلك، أليس هذا التصرف هو العادة اليومية لمربِّية الأطفال الصغار؟ مجددًا أذكِّر بأن اللحاف والملاءة أُعيدَ ترتيبهما؛ وهو فعلٌ تقوم به المربِّيات، ولكنهما رُتِّبا فوق سرير غير مرتَّب، وهو ما يُشير إلى وعيٍ غير كامل للفعل. ولقد ذكرت من قبلُ أنه لا بد من وجود شخصين مُتورطين في جريمة القتل هذه؛ بسبب أغطية الفراش المرتَّبة هذه. وهنا نطرح السؤال الآتي: لو كان يوجد قاتلٌ واحد فقط، فأين وُضع الطفل أثناء القيام بهذا العمل؟ لذا، يبدو أنه لا مناص من طرح السؤال الآتي: لماذا قام القاتل بهذا الفعل غير المسوَّغ، وغير الضروري، واللاعقلاني؟

أعتقد أن الطفل قد مات قبل أخذه من السرير؛ أنه قد خُنِق بوسادة، وتُثبِت أدلة الطبيب كلها أن الوفاة حدثت قبل نقل الضحية إلى المرحاض.

كانت الفعلة التالية هي نقل الجثة من المنزل، وكما تعلم، حُمِلت عبر حدود المنزل عند تلك النقطة الأبعد من باقي أجزاء المنزل كلها من الموضع الذي عُثر عليها فيه؛ أعني بذلك إحدى نوافذ غرفة المعيشة، التي اكتُشف أنها كانت مفتوحةً بمقدار قدم في صباح اليوم التالي. لقد قيل إنه، بما أن النافذة لا يمكن فتحها لأعلى من قدم دون إحداث ضجيج من شأنه أن يوقظ المنزل والكلب، وأن مسافة قدم لم تكن عرضًا كافيًا للسماح بمرور شخص يحمل طفلًا؛ لذا فقد كان الغرض من فتح هذه النافذة هو «التضليل». هذا غير صحيح على الإطلاق؛ فعرض قدم سيكون كافيًا تمامًا لأن يدفع شابٌّ نفسه من خلاله ويمرَّ منه، في حين ربما يكون الطفل الميت قد مُرِّر من تلك الفتحة أولًا، ووُضع على العشب، ثم حُمل بعد ذلك.

والآن، يلي هذا أكثر الحقائق جنونًا في القضية: بدلًا من حمل الطفل بعيدًا أو إلقائه في بركة أو بئر أو حتى في سياج، كما كان سيفعل أي قاتل واعٍ، يفضِّل حامل الطفل المرور أمام المنزل والطريق، ثم المرور بالبوابات التي يقبع أسفلها كلبٌ دائمًا ما يُزمجر

على المارَّة، ثم إلى المرحاض، الذي لا بد أن أي فرد من أفراد الأسرة الواعين يعلم أنه مزوَّد بحاجزٍ سيمنع أي شيء من الانزلاق في المرحاض.

لم تُثَر حفيظة الكلب؛ مما يدل على أنه إما كان مُستيقظًا ويعرف هذه المرأة، لذا لم ينبح، أو أن المرأة كانت تمشي بخفةٍ شديدة — كشأن الأشخاص الذين يمشون أثناء النوم — بحيث لم يستيقظ الكلب من وَقْع خطواتها.

يوجد تضاربٌ واحد فقط في هذا الجزء من القضية؛ وهو أنه إذا كانت القاتلة تمشي أثناء النوم، وإذا كانت خادمة بالمنزل؛ لذا فقد كانت مُلمَّة بالمطبخ (وهو أقرب طريق عبر الفناء — حيث يوجد الكلب — إلى حمام الخدم، حيث عُثر على الجثة) على نحوٍ أفضل من غرفة المعيشة، فكيف إذن تجنَّبت المطبخ وفناء المطبخ؟ إجابتي هي أنه من المستحيل تقييد حدود الغريزة أو المنطق أو الجنون في حالات المشي أثناء النوم؛ فهذه الصفات تتقاطع، ثم تعود لتتقاطع ثانيةً بعضها مع بعض في عملية تشابُك لا تنتهي.

إنني أقترب الآن من حقيقة في القضية تُثبِت نزعة جنون الهوس الأحادي والتصرف اللاواعي. لقد مات الطفل؛ لذا إذا كان الدافع الواعي فقط هو الموجود، فالعمل الذي سيتعين القيام به في هذه اللحظة هو التخلص من الجثة، ولكن بدلًا من ذلك نجد أن الفعل التالي هو تشويه الجسد بأكثر الطرق وحشيةً. يقول الطبيب إن الرأس كاد أن يكون مفصولًا عن الجسم، وإنه لا بد أن قوةً كبيرة قد بُذلت لدفع السلاح المستخدَم ليخترق الصدر. وهنا ينبغي أن نسأل: ما الحاجة إلى استخدام السكين أصلًا؟ لقد كان الطفل ميتًا، وإن لم يكن ميتًا فقد بدا كذلك، ومع ذلك فقد تعرَّض للتشويه وإراقة دمه. بعد ذلك لُفَّ الجسد في البطانية، وهذا دليلٌ آخر على الرعاية، وأُلقيَ أسفل كرسي المرحاض؛ لكي يُعثَر عليه في اللحظة التي يُرى فيها الدم على الأرض.

بعد ذلك تُترك النافذة مفتوحةً، وهكذا يُعثَر عليها في الصباح.

عند اكتشاف جريمة القتل، لا يُظهر أي شخص في المنزل أدنى قدر من الشعور بالذنب، مع أن جميع الاستنتاجات باستثناء استنتاج واحد تُشير إلى فرضية أن القتل قد ارتُكب في المنزل؛ يكمن هذا الاستثناء في حقيقة أنه عُثِر، بالقرب من المرحاض الذي مُسحت في جدرانه سكينٌ ملطَّخة بالدماء، على قطعة من الورق ملطَّخة بالدماء، يبدو أنها لم تُمزَّق من أي ورق موجود في المنزل.

لقد سُلبت حياة الطفل، ويبدو واضحًا أن شخصًا ما في المنزل قد فعل ذلك بأشد الطرق قذارةً، حيث اكتُشفت جريمة القتل في غضون عشر دقائق بعدما تنبَّه سكان المنزل

لغياب الطفل، ومع ذلك يبدون جميعهم أبرياء؛ فكلهم يُدْلون بنفس القصة عن أنها كانت ليلةً هادئة تمامًا ودون أي إزعاج. لا يوجد دافعٌ واضح لقتل الطفل، ولا يوجد دليل ضد أي شخص يثبت أنه القاتل، باستثناء ثوب نوم مفقود وقطعة تافهة من قماش الفانيلا، وبعد كم هائل من التحقيقات يظل الوضع كما هو عليه.

والآن انظر كيف تتناسب نظريتي عن الهوس الأحادي في حالة المشي أثناء النوم تناسبًا باهرًا مع صعوبات القضية. لدى الفتاة ميلٌ إلى قتل الطفل، وهو ميل قد يختبره الكثير من البشر، لكنهم يملكون ما يكفي من ضبط النفس للتغلب عليه، كما أنها تمشي أثناء نومها، ومع مُعاناتها من الهوس الأحادي ووجود الرغبة في القتل أثناء حالة المشي أثناء النوم، تنهض ثم تبدأ في التصرف بطريقةٍ مُتشابكة تجمع بين تصرُّفاتها اليومية العادية وأفعالها النابعة من الهوس الأحادي. في البداية، تخنق الطفل بدافعٍ من هوسها الأحادي، ثم تتصرف كمربِّية وتلفُّه بالبطانية، وترتِّب الفراش غير المرتَّب. بعد ذلك تنزل إلى الطابق السفلي دون أن يسمعها أحد، لسببٍ بسيط هو أن من يمشون أثناء النوم يتحركون ويتصرفون دون إحداث أي ضجيج. يحذِّرها إحساسها الشِّبه اليقظ من الكلب ومن صوت صرير النافذة، فتتوقف عن رفعها مع أول بادرة للضجيج. النافذة مفتوحة الآن بمقدار قدم، ويمكنها أن تضغط نفسها وتمرَّ من خلالها، وتسحب الطفل الميت معها. بعد ذلك تنسى الطريق ومقدمة المنزل بسبب تركيزها الشِّبه الواعي على خوفها من الكلب؛ ومن ثَم تصل إلى المرحاض، إما بعدما تعرَّف عليها الكلب إن كان مُستيقظًا، أو بعدما مشَت بخفةٍ شديدة حتى لا توقظه إن كان نائمًا. عندئذٍ، تتَّقد مرةً أخرى الرغبة في القتل النابعة من الهوس الأحادي، فتأخذ السكين التي كانت مخبَّأة في الحمام وتستخدمها، ولكن لا يمكنني أن أخمِّن أين خبَّأتها بالضبط. لا توجد دماء على ثياب الفتاة تفضح فعلتها؛ لأن الدم، كما يقول لنا الطبيب، لم يندفع إلى الخارج لأن الطفل كان ميتًا، ولكنه سال من جثته فحسب. بعد ذلك تصنع ذلك الجُرح البالغ الوحشية في صدره، ويُثبِت الجُرح غير الواسع أن السكين قد اخترقت اللحم بعد الوفاة، ثم تُلقي بالجسد في المرحاض، ولا تبذل جهدًا في محاولة إخفائه. بعد ذلك تمسح السكين في الورقة المجهولة وتُخفيها، والسبب في عدم العثور عليها هو أنها، على الأرجح، لم تُخبَّأ بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل أُلقيت في مكان لن يفكر أحد في العثور عليها فيه. وبعد ذلك تعود الفتاة إلى المنزل مُتناسيةً في حالة شبه الوعي هذه أن النافذة لا تزال مفتوحةً. تصعد إلى غرفتها دون أي ضجيج، وتخلد إلى الفراش وتنام، ثم تستيقظ وهي لا تعلم شيئًا عن أحلامها أو تصرفاتها. وهي حالةٌ مُتكررة

تحدث مع من يمشون أثناء النوم. وما الذي من شأنه أن ينبِّهها إلى الحقيقة عند اكتشاف الجريمة؟ لا شيء، فلا وجود للدماء على ملابسها، ولا علامات من الحصى على قدميها؛ وهذا لأنها ربما تكون قد فركت قدميها على سجادة الباب قبل الدخول كَوْنها تمشي أثناء نومها؛ لا شيء يُنبئها بأنها مُذنبة. إنها «بريئة» في الواقع؛ وبهذا يظل اللغز قائمًا، ويجب أن يظل هكذا ما دام الاعتقاد السائد هو أن جريمة قتل هذا الصبي كانت جريمةً واعية. لو كانت جريمةً واعية، فهل كان وراءها دافع؟ هل نُفِّذت بعقلانية؟ وإن كان أي فرد من المنزل قد نفَّذها عن وعي، فما السبب؟ إنني أزعم أنه يوجد الكثيرون من أولئك الذين يُعانون من الهوس الأحادي، وفي هذه الحالة لم يقتصر الأمر على الهوس الأحادي فقط، بل زاد عليه المشي أثناء النوم.» تابع هاردال قائلًا: «أنت تقول إنك تعرف والد الصبي. قدِّمني إليه، ودعني أحاول، لمصلحة الكثيرين، إثبات ارتكاب هذه الجريمة على مُرتكبتها.»

قلت لهاردال بعدما توقَّف عن الكلام فجأةً: «سأفعل، دعنا نتجه شمالًا من فورنا.»

أمسك بيدي وانطلقنا على الفور في ذلك المساء.

دعوني أخبركم بالنتيجة ...

[عند هذه النقطة تنهار الفتاة. إذا حصلتُ على تكملة هذه القصة فسأنشرها على الفور، إن وجدت أنه من المستحسن فعل ذلك. أما عنوان طبيبي المخبر فلم أعرفه أبدًا.]

السلاح المجهول

إنني على وشك أن أعرض هنا واحدةً من أبرز القضايا التي وقعت تحت ملاحظتي الفعلية. سأقدِّم تفاصيل القضية، بقدر ما أستطيع، في شكل سرد.

تدور وقائع هذه القضية في إحدى المقاطعات الوسطى، وعلى مشارف قرية ريفية ونائية جدًّا، لم تسترعِ اهتمام العالم بها مطلقًا.

فيما يلي الحقائق الأولية الدقيقة للقضية. بالطبع سأغيِّر الأسماء؛ لأن هذه القضية على وشك أن تصبح علنيةً في تلك الأثناء، وبما أن التحقيقات، التي جرت في ذلك الوقت، لم تنتهِ فقط بخيبة أمل، بل إنها، لسببٍ لا يمكن تفسيره، لم تُثِر فضول الجمهور، فلا توجد حكمةٌ من حَجْب الأسماء والأماكن بحجابٍ رقيق من الخيال الأدبي الذي سيسمح برؤية الحقيقة من خلاله. إن الأسماء والأماكن المستخدَمة هنا خيالية تمامًا، ولا تمثِّل أو تحجب بأي شكل من الأشكال الشخصيات أو الأماكن الفعلية.

كان المنزل الذي حدثت فيه الوقائع الغامضة التي أنا على وشك تحليلها، هو منزل العزبة. بينما كان ساكنه ومالك الأرض الرئيس في المقاطعة، هو سيد العزبة أيضًا، والذي سأدعوه بيتلي.

يمكنني أن أقول على الفور إن مالك الأرض هذا كان رجلًا وضيعًا تمامًا — مع أن هذه الحقيقة لم تتناهَ إلى علمي إلا بعد وقوع الكارثة — لا شغف لديه سوى حب المال، تمثَّل ذلك في صورة جشع لامتلاك الفضة.

إن كل شخص يمتلك عينين تُلاحظان التفاصيل قد صادف بشرًا يحملون في طيَّاتهم أكثر التناقضات غرابةً. ها هو رجلٌ يعيش بخسة لدرجةٍ تدفع للتساؤل عما إذا كان قد جنى شلنًا واحدًا بشرف، ومع ذلك فقد كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أن أخلاقه ستفسد إن

وطئت قدماه مسرحًا. إنه من نوعية الأشخاص الذين لم يتملَّصوا من أي دائن من قبل، ولم يأخذوا قط ما هو أكثر من خصمٍ تجاري، ومع ذلك فهو من الناس الذين قد يُلقى القبض عليهم في أي يوم بتهمة تجعله يشكِّل فضيحة لعائلته.

هكذا كان المالك بيتلي. لا شك في أنه كان شديد الجشع، في حين أن رغبته في امتلاك الفضة وعرضها والتباهي بها كانت تكاد تصل إلى درجة الهوس.

كانت فضته تقليدًا كبيرًا في المقاطعة. وفي كل وجبة — وقد سمعت أن الوجبات لم تكن وفيرة ولا شهية في منزل بيتلي — كان يوضع على طاولة الطعام ما يكفي من الأطباق لدفع تكاليف إطعام فقراء المقاطعة بأكملها لمدة شهر. لم يكن يأكل سوى قطعة من لحم الضأن من طبقه الفضي.

كان السيد بيتلي عضوًا في البرلمان، وفي موسم انعقاده كان يأتي إلى المدينة، حيث كان يملك أصغر وأسوأ منزل يمكن لأي عضو من أعضاء المقاطعة الأثرياء أن يمتلكه.

كان بيتلي جشعًا، ومن ثَم كان بخيلًا؛ لذا لم يكن لديه مجموعتان من الخدم، واحدة للمدينة، وواحدة للريف. لذا، عندما كان يأتي إلى المدينة لحضور موسم انعقاد البرلمان، كان يحضر معه مجموعة خدمه من الريف، وكان يدفع لهم أجورًا بخسةً تقل عن أدنى الأجور في المدينة.

أنا متأكدة تمامًا، حسبما علِمت، أن خدم المنازل لم يكونوا يشعرون بالرضا على الإطلاق؛ وهو ما كان أمرًا طبيعيًّا تمامًا لأنهم لم يُعامَلوا معاملةً جيدة، وكانوا يتلقَّون أقل معدل أجور ممكن.

كانت الخادمة الوحيدة التي ظلَّت باقية على الدوام هي مدبرة منزل العزبة، السيدة كوينيون.

كان يُتناقَل الهمس في الحي بأنها كانت الأخت المتبنَّاة (وربما أكثر) للسيدة بيتلي الراحلة؛ وقد قيل بصراحةٍ كافية، ويؤسفني أيضًا أن أقول وبقدرٍ عام من الرضا والمُزاح، إن المالك قد تعرَّض للأذى من زوجته الراحلة.

الحقيقة هي أن بيتلي قد تزوَّج ابنة تاجر من ليفربول، على أملٍ كبير في أن تندمج ثروتها، التي كانت تبشِّر وقت زواجها بأنها ستكون ضخمة، مع ثروته، ولكن تجارة القطن كانت محفوفة بالمخاطر حتى قبل خمسة وعشرين عامًا. وحتى نختصر التفاصيل المتعلقة بهذه النقطة، والتي ليست ضرورية لفهم سياق القصة فهمًا شاملًا، يكفي أن نقول إن بيتلي لم يحصل على بنسٍ واحد منها. أما والد زوجته، الذي كان يعيش حياةً منحرفة بشكلٍ مؤسف، فقد سافر إلى أمريكا ومات هناك.

لم تُنجب السيدة بيتلي سوى طفل واحد، وهو جراهام بيتلي، وتُوفيت عندما كان يبلغ من العمر اثني عشر عامًا تقريبًا.

خلال حياة السيدة بيتلي، كانت مدبرة المنزل هي الأخت المتبنَّاة التي أُشيرَ إليها سلفًا. أما أنا، فأعتقد أنه من الأصح أن نُطلِق على السيدة كوينيون وصف الأخت الحقيقية لزوجة السيد بيتلي.

وأيًّا كان الأمر، بعد موت السيدة بيتلي، أصبحت السيدة كوينيون، على نحوٍ شِبه مُسلَّم به، وبطريقةٍ غير مُريحة، سيدة منزل آل بيتلي الفعلية.

ربما كان السيد بيتلي على علم بقرابتها لزوجته، وهو الأمر الذي سبق أن ألمحتُ إليه؛ ومن ثَم كان مستعدًّا للإقرار بأنه كان من الأفضل أن تكون هي من تبقى في المنزل وليس أي امرأة أخرى. فبغضِّ النظر عن جشعه وهوسه بالتفاخر بفضته، وجدتُ أنه لا جدال في أنه كان رجلًا يتمتع بحكمةٍ جديرة بالاحترام.

مرةً أخرى، وقعت السيدة كوينيون في فخ جشعه وهوسه بالمال، فقلَّصت من نفقات منزله، وكانت هي نفسها راضية عن تقاضيها أجرًا متواضعًا للغاية.

من كل ما عرفته، توصَّلت إلى استنتاجٍ مفاده أن منزل آل بيتلي كان منذ فترة طويلة هو أكثر منزل غير مُريح في المقاطعة، وكان هوس التفاخر بالفضة لا يؤدي إلا لتأكيد جدب هذا المنزل.

لم يدخل المنزلَ سوى عدد قليل جدًّا من الزُّوَّار، وكان حُسْن الضيافة غائبًا، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه المساوئ، فقد تمتَّع بيتلي بمكانةٍ جيدة جدًّا في المقاطعة، وفي الواقع حقَّق ظهوره في الصحف، بمناسبة إقامة حفلين خيريين، نجاحًا كافيًا.

من يعيشون من قُرائي في الريف سيفهمون الأسلوب المتَّبَع في منزل بيتلي عندما أقول إنه سمح على مضضٍ بصيد الأرانب على أرضه. على مدى العام، وكلما كان ذلك ممكنًا، لم يُقدَّم سوى عينات من ذلك الطعام المُمل في غرفة معيشة السيد بيتلي. في الواقع، عرفت أن القس الشاب، الذي أقام فترةً قصيرة في قرية «ترام»، كان، في تهكمٍ رقيق على حصص الطعام القليلة هذه، يدعو منزل بيتلي «جُحْر الأرانب».

نشأ الابن، جراهام بيتلي، بطريقةٍ يُرثى لها، فربما كان الأب عازمًا، بعد أن خابت آماله في جَنْي ثروة من أم ابنه، على إقناع نفسه بأن ابنه لا يستحقُّ الرعاية التي كان من شأنها أن تكون من حقه لو كانت أمه قد جلبت ثرواتٍ إضافيةً لزوجها. مما لا شك فيه أن الابن عاش حياةً قاسية؛ فكل ما حصل عليه من تعليمٍ كان مما يمكن أن توفِّره أي

مدرسة قواعد أساسية عادية، ولحُسْن الحظ تصادَف أن هذه المدرسة كانت موجودة في قرية ترام.

كان يذهب إلى هذه المدرسة أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى كان ينطلق، مع فِتيانٍ أقل منه مركزًا بكثير، في رحلات ربما لم تكن، في أغلب الأحيان، لغرضٍ محترم كدراسة العلوم الإنسانية.

من الواضح أن الصبي كان يتعرض للاستغلال على نحوٍ مُخزٍ؛ وهذا لأنه كان مُهمَلًا.

عندما بلغ من العمر تسعة عشر أو عشرين عامًا (عرفت كل هذه التفاصيل بسهولة بعد الكارثة؛ لأن سكان المدينة كانوا مهتمين اهتمامًا بالغًا بالحديث عن الشاب التعيس الحظ فحسب)، كانت سنوات من الإهمال قد أتت ثمارها. كان مستعدًّا، دون أي شك، لإتيان أي عمل مجنون. كان الصيد غير القانوني على وجه الخصوص هو متعته؛ ربما لأنه وجده مُربحًا إلى حدٍّ كبير؛ وذلك لأنه، إحقاقًا للحق، لم يكن يحصل على أي نقود على الإطلاق. وإلى هذه النقيصة أضاف نقيصةً ثانية، وهي أنه كان يُنفق أي أموال كان يحصل عليها ولا يستطيع الإبقاء عليها بحوزته لأي فسحة من الزمن.

لا أشك شخصيًّا في أن عمليات السلب والنهب التي لحقت بممتلكات والده ربما وُضعت بعدالة في حسابه. ومن التحريات التي قمت بها، أعتقد جازمةً أنه عندما كان يُفقد أي غرض صغير من الفضة من المنزل، كان الابن يعرف أكثر مما ينبغي عن هذه المتعلقات الثمينة المفقودة.

من المؤكَّد أن السيدة كوينيون، مدبرة المنزل، كانت مخلصةً للغاية لهذا الشاب، ولكن الأموال التي كانت تتلقَّاها كأجر — وأي أموال أخرى خاصة أو غيرها من الوسائل — لم يكن من الممكن أن تُغطي احتياجات الشاب جراهام بيتلي، الذي كان يُنفق المال بالتأكيد، ولكن مصدر هذا المال كان محلَّ تشكُّك كبير جدًّا.

من الصورة التي كوَّنتها له، لا بد أنه كان شابًّا جريئًا ونشيطًا ومرحًا، لا يميل إلى أن يدع المسئولية تحُول بينه وبين رغباته. إنه باختصارٍ شخصٌ سيحصل من العالم على أكثر بكثير مما سيقدِّم له في المقابل.

كانت الفضة تُنقَل كل عام مع الخدم، وتكون الصناديق تحت الحراسة الشخصية لكبير الخدم، الذي لم يكن يتركها تُبارِح ناظره قط في رحلة نقلها من منزل الريف إلى منزل المدينة. لقد سمعت أن هذا الرجل كان يتطلع إلى تلك الرحلات بخوفٍ شديد للغاية.

مما عرفته، أظن أن قافلة صناديق الفضة كانت معدودة جيدًا إجمالًا.

في بعض الأحيان كان جراهام بيتلي يُرافق والده إلى المدينة، وفي أحيانٍ أخرى كان يُرسَل إلى أحد الأقارب في «كورنوال». أعتقد أنه كان من الأنسب للأب والابن على حدٍّ سواء أن يُرسَل الصبي إلى كورنوال في موسم انعقاد البرلمان؛ لأن الصبي كان قد أصبح بالضرورة مكلِّفًا نسبيًّا في المدينة، وهو ما كان مرفوضًا في نظر الأب، بينما وجد الابن نفسه في عالم لا ينتمي إليه على الإطلاق؛ بسبب التعليم السيئ الذي كان قد تلقَّاه.

كانت الخيول هي شغف بيتلي الصغير، كما لم يكن يوجد مزارع، سواء في ضيعة الأب أو في المناطق المُجاورة لقرية «ترام»، لم يكن يُعاني من دين شراء هذا الحِصان أو ذاك، ولم يكن الشاب يمتلك حصانًا.

من جانبي، أعتقد أنه إذا لم يكن الشاب يُكِن أي احترام لنفسه، فهذا العيب يُعزى إلى الأب إلى حدٍّ كبير؛ لأنه هو نفسه لم يكن يُكِن أي احترام لابنه.

أعرف أنني لست بحاجة إلى القول إنه عندما يكون الرجل مُغرَمًا بالخيول، فإنه عادةً ما يُراهن عليها.

لم يستدعِ الأمر الكثير من التحري للتأكد من أن بيتلي الشاب قد «راهن» بقدرٍ كبير من المال على الخيول، وأنه، في أغلب الأحيان، كان محظوظًا في مراهناته. أراد الشاب بعض الإثارة، وبعض الانشغال، ووجد ذلك في المراهنات. هل قلت إنه بعدما أُخرجَ الوريث الشاب من المدرسة سُمح له بأن يفعل ما يشاء؟ كان هذا هو الحال. أظن أن الأب لم يستطع أن يفكر في تكبُّد نفقات التحاق ابنه بمهنةٍ ما.

كانت الأوضاع في منزل آل بيتلي كما يلي: الأب مُهمِل وبخيل، والابن أهوج ومُهمَل، وينزلق يوميًّا إلى قاع الحياة؛ ومدبرة المنزل، السيدة كوينيون، لا تقول شيئًا، ولا تفعل شيئًا سوى الوجود فحسب، وربما تُظهِر ما يوضِّح أنها مرتبطة بابن أختها بالتبنِّي. كانت امرأةً ذات حس سليم وتمييز، ومن المؤكد أنها كانت تُعبِّر عن توقُّعها بأن الشاب الصغير كان يَفسد شيئًا فشيئًا بصمت وثبات، وبلا توقُّف.

بعد استيعاب كل هذه المقدمات، يمكنني الآن الشروع في سرد وقائع هذه القصة.

كان اليوم هو التاسع عشر من شهر مايو (لا يهم في أي عام)، وفي الصباح الباكر عندما اكتشف توم براون، بُستاني السيد بيتلي، الأمر.

في الخامسة والنصف صباحًا (في أحد أيام الثلاثاء)، وجد البستاني خارج باب القاعة الكبيرة جسدًا بشريًّا مكوَّمًا بطريقةٍ غريبة وممدَّدًا على الأرض. وعندما اقترب ليفحصه وجد أنها كانت جثة بيتلي الشاب.

جذب البستاني مِقبض الجرس الضخم، وسرعان ما أطلق إنذارًا جعل مدبرة المنزل والخادمة — وهما فقط مَن كانتا تُقيمان في منزل آل بيتلي عندما يكون المالك في المدينة — يهرعان إلى عتبة الباب المفتوح في غضون دقيقة واحدة.

لم تكن مدبرة المنزل قد ارتدت ملابسها كاملةً بعد، بينما كانت الخادمة ترتدي تنورةً داخلية وتلتحف بطانية.

انتشر الخبر بسرعةٍ كبيرة عن طريق صبي البستاني، الذي كان يمشي مُتسكعًا حول المنزل يتساءل أين سيده، ولكنه سرعان ما أطلق ساقيه للريح عندما اكتشف الأمر.

قالت مدبرة المنزل: «لا بد أنه أُصيبَ بنَوبة.» فطار الصبي على الفور حاملًا فَحْوى هذه الرسالة إلى القرية، فحضر طبيب القرية إلى المكان في أسرع وقت ممكن.

تبيَّن حينئذٍ أن هذه الفجيعة لم تكن بسبب نوبة.

أظهر فحصٌ بسيط جدًّا أن الشاب الصغير قد مات جرَّاء طعنة تسبَّب فيها سلكٌ حديدي شائك خشن طوله ست بوصات، والذي كان لا يزال مغروسًا في الجسم.

شهد الطبيب في التحقيق أنه لا بد أن قوةً هائلة قد استُخدمت في إقحام السلك الشائك في الجسم؛ وهذا لأن أحد الضلوع كان قد انشقَّ نصفَين جرَّاء هذا. بعد الطعن كان من الواضح أن السلك الشائك قد سُحِب بغرض إخراجه من الجسد، وهو ما قد فشل؛ لأن حوافَّ السلك علِقت بقوة في الغضروف والأنسجة المحيطة به. كان من المستحيل أن يكون الصبي هو من لفَّ السلك الشائك بنفسه بالطريقة التي استُخدم بها.

عندما سُئِل الجرَّاح عن شكل هذا السلك لم يتمكن من الرد؛ إذ لم يكن قد رأى مثل هذا السلاح من قبل. افترض أنه كان قد ثُبِّت في عمود من الخشب انتُزع منه بفعل القوة التي جعلته يعلق بالأجزاء المحيطة بالجرح، بعد إقحامه في الجسم.

سُلِّم السلك الشائك إلى هيئة المحلِّفين، واتفق كل واحد منهم بشدة مع زميله على أنه لم يرَ شيئًا من هذا القبيل من قبل؛ كان غريبًا بنفس القدر لهم جميعًا.

قدَّم السيد بيتلي، الذي تلقَّى الفاجعة بهدوءٍ شديد، دليلًا مفاده أنه كان قد رأى ابنه في صبيحة اليوم السابق لاكتشاف جريمة القتل، وحواليَ الظهيرة؛ أي قبل اكتشاف الفاجعة بسبعة عشر ساعة ونصف. لم يكن يعلم أن ابنه كان على وشك مغادرة المدينة حيث كان يُقيم. وأضاف أنه لم يفتقد الشاب؛ فقد كان ابنه مُعتادًا على أن يكون سيد قراره، وعلى الذهاب حيثما يشاء. لم يستطع تقديم أي تفسير لسبب عودة ابنه إلى الريف، أو سبب وجود المواد التي عُثر عليها معه هناك. كما لم يستطع تقديم تفسير على الإطلاق حول أي شيء مُتعلق بالمسألة.

قيل إن السيد بيتلي لم يُبدِ أي تأثُّر عند الإدلاء بشهادته، وأنه عندما جلس بعد التحقيق معه بدا مُرتاحًا، وهو ما اعتُبِر فضيحةً في بلدة ترام.

علاوةً على ذلك، أُلمِح إلى أنه عندما طُلب منه الخضوع لنوع من المواجهة مع الشهود بدا قلقًا، وأجاب على الأسئلة القليلة التي وُجهت إليه بحذر.

طرح أحد أعضاء هيئة المحلِّفين — كان مستشارًا قضائيًّا (كما كان واضحًا ببعض الفطنة) والمستشار الحكيم لبلدة ترام — هذه الأسئلة على السيد بيتلي.

ربما يكون من الضروري لفهم هذه القضية فهمًا صحيحًا، سرد هذه الأسئلة وإجاباتها أيضًا هنا.

وهي كما يأتي:

«هل تعتقد أن ابنك مات حيث وُجد؟»

«لم أكوِّن أي رأي بشأن ذلك.»

«هل تعتقد أنه كان في منزلك؟»

«بالتأكيد لا.»

«لمَ أنت متأكد بشدة هكذا؟»

«لأنه لو كان قد دخل المنزل لعلمت مدبرة منزلي بمجيئه.»

«هل مدبرة منزلك هنا؟»

«أجل.»

«هل قصدت استدعاءها كشاهدة؟»

«أجل.»

«هل تعتقد أن ابنك حاول اقتحام منزلك؟»

[سأوضح سبب توجيه هذا السؤال بعد قليل. بالمناسبة، ربما ينبغي هنا أن أوضِّح أنني حصلت على كل هذه التفاصيل الخاصة بالأدلة من صحيفة المقاطعة.]

«هل تعتقد أن ابنك حاول اقتحام منزلك؟»

«ولمَ قد يفعل ذلك؟»

«ليس هذا هو سؤالي؛ هل تعتقد أنه حاول اقتحام منزلك؟»

«لا، لا أعتقد ذلك.»

«هل تُقسِم على هذا يا سيد بيتلي؟»

[بالمناسبة، لم تُفقَد أي مودَّة متبادَلة بين المالك بيتلي والمستشار الحكيم لترام، لسببٍ بسيط، وهو أنه لم تكن هناك مودة يمكن قطع أواصرها بينهما من الأساس.]

«أجل، أُقسِم على ذلك.»

«هل تعتقد أنه كان هناك أي شخص في المنزل رغب في زيارته سرًّا؟»

«لا.»

«من كان في المنزل؟»

«السيدة كوينيون، مدبرة منزلي، وخادمةٌ واحدة أخرى.»

«هل الخادمة هنا؟»

«أجل.»

«أي نوع من النساء هي؟»

«في الواقع يا سيد مورتون يمكنك رؤيتها والحكم بنفسك.»

«يمكننا ذلك بالفعل. سأطرح عليك سؤالًا آخر فقط.»

«إنني أحتفظ لنفسي بحق التقرير بشأن ما إذا كنت سأُجيب عليه أم لا.»

«أعتقد أنك ستُجيب عليه يا سيد بيتلي.»

«سنرى يا سيدي. تفضَّلْ بطرح سؤالك.»

«إنه سؤال في غاية البساطة؛ هل تنوي رصد مكافأة لمن يكشف عن قاتل ابنك؟»

لم يُجِب المالك.

«لقد سمعت سؤالي يا سيد بيتلي.»

«أجل.»

«وما هي إجابتك؟»

صمت المالك للحظات. لا بد أن أذكُر أنني أضيف تفاصيل الاستجواب الذي جمعته، أو منه بالأحرى رصدته، إلى المعلومات التي قدَّمتها جريدة المقاطعة التي سبق أن أشرت إليها.

قال السيد بيتلي: «أرفض الإجابة.»

وبناءً على ذلك، استدعى مورتون الطبيب الشرعي للإدلاء بقراره.

الآن يبدو واضحًا لي أن هذا المحلِّف كان لديه دافعٌ خفي في استجواب السيد بيتلي هكذا. وإذا كان الأمر كذلك فإنني أعترف صراحةً أنني لم أكتشف هذا الدافع أبدًا دون أدنى شك. ربما أكون قد خمَّنته أو لم أفعل؛ أعتقد أنني فعلت.

من الواضح أن الطريقة التي طرح بها السيد مورتون السؤال كانت سيئة، فكيف يمكن للأب أن يقرِّر ما إذا كان سيرصد مكافأة لاكتشاف قاتل لن يكون موجودًا قانونيًّا إلا

بعد حكم هيئة المحلِّفين؟ وبالفعل يمكنني أن أضيف أن هذا السؤال لم يكن له أي علاقة بكشف لغز الجريمة، أو على أية حال لم يكن له أي علاقة واضحة بحقائق الفاجعة.

من الواضح أن أحد دافعين، كلاهما غامض، هو ما كان يدفع السيد مورتون على الأرجح. ربما كان أحدهما هو محاولة فعلية للحصول على دليل على القتل، والآخر ربما كان هو محاولة وضع المالك بيتلي، والذي قيل إن علاقته به كانت سيئة، في وضعٍ يفقد فيه احترام المقاطعة.

استدعى المحلِّفون الطبيب الشرعي فورًا، الذي أقرَّ على الفور أن السؤال لم يكن له صلةٌ وثيقة بالموضوع، ولكنه مع ذلك حضَّ المالك أن يُجيب على السؤال ما دام قد طُرح عليه.

من الواضح أن الطبيب الشرعي رأى الموقف المُحرِج الذي وُضع فيه المالك، فقال ما قاله كي يساعده في التخلص من حرج الموقف بأكثر طريقة مقبولة ممكنة.

ولكن كما قلت، بغضِّ النظر عن كل ما لديه من تناقضات وأخطاء، كان السيد بيتلي رجلًا يتمتَّع بعقلٍ جيد وواضح ورؤيةٍ جيدة. وكما لمست عدم الاتساق في هذا السؤال عندما قرأته، فلا بد أنه لاحظ القصور نفسه عندما وُجِّه إليه.

إذ بعدما أخذ بيتلي يُنصت للطبيب الشرعي بصبر حتى أنهى ذكر ملاحظاته، قال بهدوء:

«كيف يمكنني أن أقول إنني سأقدِّم مكافأة لاكتشاف قتَلة بعينهم بينما لم تُصدِر هيئة المحلفين حكمًا بالقتل بعد؟»

سأل مورتون قائلًا: «ولكن لنفترض أن هيئة المحلفين أصدرت هذا الحكم، فماذا ستفعل؟»

«حينئذٍ سيحين وقت طرحك لهذا السؤال.»

علِمت أن المحلف ابتسم وهو ينحني وقال إنه راضٍ.

يبدو لي أنه عند تلك النقطة لا بد أن يكون السيد مورتون إما قد حصل على المعلومات التي تتوافق مع نظريته، أو — بالتسليم بالدافع الأحط لسؤاله — أنه شعر بأنه قد أضرَّ الآن بسمعة المالك بيتلي بقدرٍ كافٍ في عيون سكان المقاطعة؛ إذ إن المُراسلين كانوا يعملون بلا كلل، وكان كل شخص حاضر يعلم أن ما من كلمة تُقال إلا ستُنشَر بالحرف في صحيفة المقاطعة.

ومع ذلك، فقد كان من المقدَّر أن يتعرض السيد مورتون للإساءة في غضون دقيقة واحدة.

سأل بيتلي قائلًا: «هل انتهيتم من استجوابي، أيها السادة؟»

يبدو أن الطبيب الشرعي قد انحنى عندئذٍ.

فتابع بيتلي قائلًا: «إذن قبل أن أجلس — وأرجو أن تسمحوا لي بالبقاء في الغرفة حتى انتهاء التحقيق — سأصرِّح بملء إرادتي أنني لن أرضخ للقيام بأي إعلان بناءً على محاولة إكراه غير قانونية وغير مسوَّغة على الإطلاق. إذا أصدرت هيئة المحلفين حكمًا بالقتل ضد أشخاص مجهولين، فلن أعرض مكافأة على اكتشاف هؤلاء القتَلة المزعومين.»

سأل الطبيب الشرعي: «ولمَ لا؟» وعلِمت بعد ذلك أنه اعترف بأن السؤال كان لا يُغتفر على الإطلاق.

أجاب المالك بيتلي قائلًا: «لأنني أعتقد اعتقادًا كاملًا أنه لم تُرتكب جريمة قتل من الأساس.»

وبحسب ما ورد في الصحيفة، سرت «ضجةٌ كبيرة» بعد ما قاله هذا.

سأل الطبيب الشرعي: «لا توجد جريمة قتل؟»

«نعم، أنا متأكد من أن موت المتوفَّى كان جرَّاء حادث.»

«وما الذي يجعلك تظن هذا يا سيد بيتلي؟»

«طبيعة الوفاة. لا أعتقد أن جرائم القتل تُرتكب بأي طريقة غير عادية مثل تلك التي قضت على حياة ابني. ليس لديَّ المزيد لأقوله.»

وهنا، كما يقول تقرير الصحيفة، جلس المالك بعدما أنهى كلامه.

كانت الشاهدة التالية التي استدُعيت هي مدبرة المنزل مارجريت كوينيون، وهذا بعدما كانت قد سُمعت بالفعل شهادة البستاني الذي كان قد اكتشف الجثة، وقد كانت ببساطةٍ أنه شهد بالعثور على الجثة.

كانت شهادتها فيما يتعلق بوفاة بيتلي الشاب عديمة القيمة تمامًا من وجهة نظري. ذكرت ببساطةٍ أنها قد ذهبت إلى الفراش في الوقت المعتاد (في حوالَي العاشرة مساءً) في الليلة السابقة، وأن دينا يارتون قد خلدت إلى الفراش في نفس الغرفة قبل ذلك بقليل. لم تسمع أي ضوضاء أثناء الليل، ولم يُزعجها أي شيء على الإطلاق حتى أطلق البستاني الإنذار.

بحلول دور السيدة كوينيون، استجوبها المستشار القضائي السيد مورتون.

«هل أنت وهذه، ما اسمها، دينا يارتون تنامان وحدكما في منزل بيتلي؟»

«أجل، عندما تكون العائلة غائبة.»

«ألا تخشين من ذلك؟»

«نعم.»

«لماذا؟»

«ولمَ أخشى ذلك؟»

«حسنًا، تخشى معظم النساء من النوم في منازل كبيرة منعزلة بمفردهن. ألا تخشين اللصوص؟»

«نعم.»

«لمَ لا؟»

«ببساطة لأن اللصوص لن يجدوا سوى القليل جدًّا في منزل بيتلي ليسرقوه، بحيث إنهم سيكونون في غاية الحماقة إذا اقتحموا المنزل.»

«لكن يوجد قدرٌ كبير من الأغراض الفضية في المنزل، أليس كذلك؟»

«كلها تُنقَل إلى المدينة مع السيد بيتلي.»

«كل شيء يا سيدتي؟»

«أجل، كل ذرَّة منها، عادةً.»

«تقولين إن الفتاة تنام في غرفتك، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح.»

«هل هي فتاةٌ جذَّابة؟»

«لا.»

«هل هي غير جذَّابة؟»

«ستُتاح لك فرصة الحكم على ذلك؛ لأنها ستُستدعى كشاهدة يا سيدي.»

«أوه! ألا تعتقدين أنه كان يوجد أي شيء بين هذه الشابة وسيدك الشاب؟»

«بين دينا والسيد بيتلي الشاب؟»

«أجل.»

«أعتقد أنه لم يكن من الممكن أن تكون ثَمة أي علاقة غرامية بينهما؛ لأنه (وهنا ابتسمت) لم يرَ أحدهما الآخر مطلقًا؛ فقد أتت الفتاة إلى منزل آل بيتلي من المقاطعة المجاورة منذ ثلاثة أسابيع فقط، وبعد ثلاثة أشهر من ذهاب العائلة إلى المدينة.»

«أوه، إذن فأنت لم تتوقعي قدوم ابن سيدك إلى المنزل مؤخرًا؟»

«نعم، لم أتوقع قدوم السيد بيتلي الشاب إلى المنزل مؤخرًا؛ فهو لا يأتي إلى المنزل أبدًا عندما تكون العائلة غائبة.»

«ألم يكن معتادًا على القدوم إلى المنزل على نحوٍ غير متوقَّع؟»

«نعم.»

«هل أنتِ متأكدة من ذلك تمام التأكد؟»

«أجل، أنا متأكدةٌ تمام التأكد.»

«هل كان المتوفى لا يتلقى أي نقود؟»

«لا أعرف شيئًا عن الترتيبات المالية بين الأب والابن.»

«حسنًا، هل تعلمين أنه غالبًا ما كان يُعوزه المال؟»

«إنني حقًّا أرفض الإجابة على هذا السؤال.»

«حسنًا، هل كان مُعتادًا على أن يقترض منك المال؟»

«أرفض الإجابة على هذا السؤال أيضًا.»

«تقولين إنكِ لم تسمعي شيئًا ليلًا، أليس كذلك؟»

«بلى، لا شيء.»

«ماذا فعلتِ عندما سمعتِ جرس إنذار البستاني في الصباح؟»

«أنا عاجزة عن فهم سؤالك.»

«لكنه سؤالٌ سهل للغاية. ما هو أول شيء فعلتِه بعدما سمعتِ بالفاجعة؟»

[بعد بعض التفكير.] «ينبغي أن أقول إنه من المستحيل حقًّا، في ظرفٍ رهيب مثل هذا، أن أكون قادرة على أن أقول بوضوحٍ ما هي أول ردة فعل أو كلمات قلتها، لكنني أعتقد أن أول شيء فعلته — أو أول شيء أتذكر أنني فعلته — كان الاعتناء بدينا.»

«ولماذا لم تستطع هي الاعتناء بنفسها؟»

«ببساطة لأنها دخلت في نوع من نوبة الصرع، التي تُعاني منها، عند رؤية الجثة.»

«إذن لا يمكنك توضيح أي شيء فيما يتعلق بهذه القضية الغامضة؟»

«لا شيء، كل ما أعرفه عن الأمر هو التعرف على جثة السيد بيتلي الصغير في الصباح.»

عندئذٍ استُدعيت الفتاة دينا يارتون، ولكن ما إن سمعت الشابَّة البائسة، وهي تنتظر في القاعة العامة التي كان يُعقَد الاستجواب فيها، اسمها، حتى دخلت في نوبةٍ منعتها تمامًا من تقديم أي دليل «باستثناء صراخها القوي الذي دل على أن رئتَيها كانتا في حالةٍ صحية ممتازة تُحسَد عليها»، حسبما أشارت صحيفة المقاطعة مازحةً.

قالت السيدة كوينيون: «ستتعافى قريبًا، وستكون قادرة على تقديم ما يمكنها تقديمه من أدلة.»

سألها المستشار القضائي: «وماذا سيكون هذا الدليل يا سيدة كوينيون؟»

أجابت: «ليس بمقدوري أن أجزم يا سيد مورتون.»

استُدعي الشاهد التالي (وهنا بصفتي شرطيةً قديمة يمكنني أن أشير إلى الطريقة غير المهنية التي جرى بها ترتيب الشهود)، وكان الشاهد التالي الذي استُدعي هو الطبيب.

كانت شهادته على النحو الآتي، مع حذف النقاط المهنية البحتة: «استُدعيتُ لفحص المتوفَّى صباح الثلاثاء، في حوالَي الساعة السادسة صباحًا. تعرَّفت على جثة السيد بيتلي الشاب الذي كان قد قضى نحبه. كان قد مات منذ حوالَي سبع أو ثماني ساعات، حسب تقديري؛ وهو ما يعني أن وفاته قد حدثت في حوالَي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الليلة السابقة. كانت الوفاة قد نتجت عن طعنةٍ اخترقت الرئة اليسرى. لقد نزف المتوفَّى داخليًّا. أما الأداة التي تسبَّبت في الوفاة فقد بقيت في الجرح، وأوقفت النزيف الدموي القليل الذي كان سيحدث إن لم تكن موجودة. لقد مات المتوفَّى من الاختناق حرفيًّا، بعدما تسرَّب الدم إلى الرئتين وملأهما. أما جميع أعضاء الجسم الأخرى فقد كانت في حالةٍ سليمة. أما الأداة التي تسبَّبت في موته فهي أداة لا أعرفها. لا بد من أنها نوع من الأسهم الحديدية المصنوعة بطريقةٍ رديئة، ولها مِقبض. لا بد أنه قد ثُبِّتت عند استخدامها في مِقبضٍ ما، لا بد أن يكون هو ما تسبَّب في إزالة السلوك المسنَّنة وحلِّها عند محاولة سحبها من الجثة، وهي محاولةٌ حدثت فعلًا؛ لأنني وجدت أن إحدى حوافِّ السهم قد علِقت خلف أحد الضلوع. أكرِّر أنه لا دراية لي على الإطلاق بالأداة التي تسبَّبت في الوفاة. إنها أداةٌ خشنة وغليظة بشكلٍ ملحوظ. ربما يكون المتوفَّى قد عاش ربع دقيقة فحسب بعد إصابته بالجرح. إنه لم يُنادِ طلبًا للمساعدة على الأرجح. لا يوجد دليل على حدوث أقل قدر من المقاوَمة، ولا يمكنني أن أجد أي دليل، ولو صغير، يبيِّن أن المتوفَّى أبدى أي علم بالخطر حتى. ومع ذلك، بافتراض أن المتوفى لم يكن نائمًا وقت القتل — لأنه قُتل بلا شك، أو قُتل عن غير عمد — فلا بد أنه قد رأى مُهاجِمه، الذي لا بد أنه كان في مواجهته وليس خلفه، حسبما يوضِّحه مكان السلاح. من المؤكَّد أن الوفاة كانت إما نتيجة جريمة قتل أو حادث، وليست نتيجة انتحار؛ لأنني سأُراهن على سمعتي المهنية بقول إنه من المستحيل تمامًا على شخصٍ أن يدفع مثل هذه الأداة في جسده بقوةٍ مثلما حدث في هذه الحالة، وهو ما ثبت من كسر ضلع مكوَّنة من عظمٍ حقيقي. وفي ظل ظروف مثل تلك الكائنة في هذه الفاجعة، لا يمكن أن يكون انتحار هو ما أقحم السهم في الاتجاه الذي سلكه. خلاصة القول، في رأيي أن المتوفى قُتل دون أي علم من ناحيته بالقاتل.»

استجوب السيد مورتون الطبيب.

أجاب الطبيب طوعًا على استفسارات هذا الرجل.

«هل تظن يا دكتور بيتشرلي، أنه لم يتدفق أي دم خارج الجثة؟»

«أنا متأكد تمامًا من ذلك.»

«كيف؟»

«لم تكن توجد أي آثار دماء على الملابس.»

«إذن فالاستنتاج هو أنه لم تكن توجد آثار للدماء تلطخ موضع ارتكاب جريمة القتل؟»

«بكل تأكيد.»

«إذن ربما تكون الجثة قد أُحضرَت مسافةً هائلة، ومع ذلك لم تشكِّل أي بُقَع من الدماء آثارًا دالة على الطريق؟»

«ولا بقعة واحدة.»

«هل انطباعك أن الجريمة ارتُكبت في مكانٍ بعيد عن المكان الذي عُثر فيه على الجثة أم قريب منه؟»

«هذا السؤال خارج تخصصي تمامًا، وليس بوسعي أن أُجيب عليه، يا سيد مورتون؛ فواجبي هنا هو الإدلاء بشهادتي عن استدعائي لفحص المتوفى وعن سبب الوفاة، ولكني لست بحاجة إلى إخبارك أنني قد كوَّنت نظريتي الخاصة عن الفاجعة، وإذا كانت هيئة المحلفين ترغب في معرفتها فأنا على استعداد لعرضها لينظروا فيها.»

وهنا، تشاوَر أعضاء هيئة المحلفين فيما بينهم، ونتج عن ذلك أنهم أبدَوا رغبتهم الشديدة في معرفة تصوُّر الطبيب للواقعة.

[ليس لديَّ شك في أن الكلمات الآتية هي التي دفعت هيئة المحلفين إلى اتخاذ قرارها.]

قال الطبيب المحترم:

«تصوُّري أن هذه الوفاة نتجت عن الصيد غير القانوني، ولن أقول إنها كانت نتيجة عراك، بل حادث. من المعروف جيدًا في هذه المناطق، وفي الوقت الراهن، بحيث إنني لا أحتاج لإبداء أي كياسة زائفة، يا سيد بيتلي، في قولي إن بيتلي الشاب كان شديد الولع بالصيد غير القانوني. أعتقد أنه ورفاقه كانوا بالخارج يصطادون؛ فقد رأيت الشاب بنفسي في مناسبتين منفصلتين استُدعيت فيهما في زياراتٍ ليلية، في ظروفٍ مُريبة للغاية؛ وأن أحد أفراد المجموعة كان مسلَّحًا بالسلاح الذي تسبَّب في الوفاة، والذي ربما كان يحمله مثبتًا

بنهاية العصا الثقيلة التي تُستخدم كثيرًا في صيد الأرانب. أظن أن الوفاة كانت بسبب حادث مروِّع؛ فنحن جميعًا نعلم مدى بشاعة الحوادث التي تقع كثيرًا عند استخدام الأسلحة، والتي ينتج عنها جروح. لقد أُصيب الشاب بجروحٍ قاتلة؛ ومن ثَم تُوفي، بعد أن حاول رفيقه المذعور سحب السهم من جسده بسرعة، وهو ما جعل السلك المسنَّن يلتصق بالجسم ويعلق خلف أحد الضلوع، في حين أن القوة المستخدَمة في مقاومة العظمة تسبَّبت في انفصال السلاح عن مقبضه. يمكن بعد ذلك بسهولةٍ معرفة سبب اكتشاف وجود الجثة خارج منزل الأب. إن رفاقه، الذين يعرفون هُويته، ويخافون من أن يُكتشَفوا ويُتَّهموا بارتكاب فعل يمكن أن يؤدي إلى إدانتهم شخصيًّا، حملوا الجسد إلى عتبة منزل والده، وتركوه هناك.» اختتم الطبيب حديثه قائلًا: «تبدو لي هذه الصيغة أكثر صيغة منطقية يمكنني أن أجدها لتفسير ظروف هذه الواقعة الاستثنائية والُمحزنة. أعتذر للسيد بيتلي عن الإهانة التي ربما أكون قد ارتكبتها بالإشارة إلى سمعة ابنه المتوفَّى، ولكن عذري لا بد أن يرتكز على الحقيقة التالية، عندما تكون الجريمة أو الفاجعة غامضةً لدرجة أن الُمجرم، أو الجاني، يمكن أن يكون كإبرة في كومة قش، فمن الصواب تقليص دائرة التحقيق قدر الإمكان، وهذا لتجنُّب الشك في عددٍ أكبر من الأفراد. ومع ذلك، إذا كان بإمكان أي شخص أن يقترح تفسيرًا للفاجعة أوضح من تفسيري، فسأكون سعيدًا حقًّا بالاعتراف بأنني كنت مُخطئًا.»

[أكرِّر أنه لا شك في أن تحليل الدكتور بيتشرلي يتناسب بشكلٍ مُرضٍ ومعقول للغاية مع وقائع القضية.]

لم يطرح السيد مورتون المزيد من الأسئلة على الدكتور بيتشرلي.

كان الشاهد التالي الذي استُدعي هو شرطي بلدة ترام، وهو رجلٌ غبي ميئوس منه — كما وجدتُ من تجربتي المريرة — لا يفلح إلا في إثارة الشجار في نُزلٍ ريفي عام، ولكنه كمحقق لا يرقى لمنزلة كلبي «دارت».

بدا أنه قدَّم شهادته الضحلة بغباءٍ دعا حتى الطبيب الشرعي إلى توبيخه.

كل ما أمكنه قوله هو أنه استُدعي وذهب، ورأى لمن تعود الجثة، وأن هذا هو كل ما يمكنه قوله.

تولَّى السيد مورتون زمام استجوابه، ولكن حتى هو لم يستطع فعل أي شيء مع هذا الرجل.

«هل كان يوجد العديد من الأشخاص في المكان الذي عُثر فيه على الجثة قبل وصولك؟»

«لا.»

«كيف ذلك؟»

«حسنًا؛ لأن توم براون، البستاني، أتى لي على الفور، وهو من أتى لي أولًا؛ لأنه أول من شهد الأمر.»

وقد كان الأمر كذلك كما اكتشفت عندما ذهبت إلى ترام؛ فبعدما استرعى انتباه مدبرة المنزل انطلق البستاني براون مذعورًا إلى القرية لطلب مساعدة لا داعي لها، وهو ما سيفعله أي شخص مذعور. وإذ تصادَف أن منزل الشرطي كان هو أول منزل وصل إليه، كان الشرطي هو أول من أُعلِمَ بما حدث. لو كان قد جرى التعامل مع القضية بطريقةٍ صحيحة، كان الشرطي، بما أنه أول من أُعلِمَ بما حدث، سيحصل على الأدلة التي كان من شأنها أن تضع المحققين على المسار الصحيح فورًا.

أظهر أول سؤالين طرحهما المستشار القضائي وعضو هيئة المحلفين أنه رأى مدى أهمية الأدلة التي كان ربما كان سيقدِّمها هذا الشاهد، جوزيف هيجينز، لو كان يعرف عمله حقًّا.

كان السؤال الأول:

«لقد أمطرت ليلة الاثنين، أليس كذلك؟»

[كان ذلك قبل الفاجعة.]

أجاب هيجينز: «أجل، لقد أمطرت.»

ثم تبع ذلك السؤال المهم الآتي:

«كنتَ من بين أوائل من حضروا إلى موقع الحادث على الفور. هل لاحظت وجود أي آثار أقدام في الأنحاء؟»

يبدو لي هنا بوضوحٍ شديدٍ أن السيد مورتون كان يُتابع النظرية التي قدَّمها الطبيب بخصوص الفاجعة. فمن الواضح أنه إذا كان العديد من رفقاء الصيد غير القانوني قد حملوا الشاب الصغير بعد موته إلى باب الردهة، فمع تساقط المطر أثناء الليل سيوجد حتمًا العديد من آثار الأحذية على الأرض الناعمة.

بعد توجيه هذا السؤال، سأل الشاهد قائلًا: «ماذا؟»

كرَّر السيد مورتون سؤاله مرةً أخرى.

فأجاب هيجينز: «لا، لم أرَ أي آثار أقدام.»

«هل بحثت عنها؟»

«لا، لم أبحث.»

فقال السيد مورتون: «إذن فأنت لا تعرف كيفية القيام بعملك.»

وقد كان المحلِّف على حق؛ إذ يمكنني أن أخبر قُرائي أن آثار الأحذية قد أرسلت عددًا أكبر من الناس إلى المشنقة، كجزء من أدلةٍ ظرفية، أكثر من أي دليل آخر. إن دليل آثار الأحذية هو بالفعل دليلٌ رهيب، فإذا سقط مسمار أو اثنان أو ثلاثة وفُحصا معًا من كثب — مسمار مكسور، أو كانت كل المسامير سليمة — فقد أدَّى ذلك في مرات لا حصر لها إلى مطابقة حذاء المُشتبَه به بآثار أقدامه الموجودة بالقرب من القتيل، وكان هذا الدليل هو أول حلقة من سلسلة الأدلة التي تدفع بالقاتل إلى حبل المشنقة، أو بالمجرم القاصر إلى السجن.

في الواقع، إذا كان لي أن أنصح الأشرار بأفضل الوسائل لتجنُّب اكتشافهم، فسأقول لهم خذوا زوجًا ثانيًا من الأحذية في حوزتكم، وعندما تقتربون من مسرح جريمتكم، بدِّلوا حذاءكم بالآخر الذي تحملونه معكم وارتكِبوا جريمتكم واهربوا وأنتم تلبسونه، وبعدما تكونون قد قطعتم بعض المسافة بدِّلوه وارتدوا حذاءكم الأول مرةً ثانية، ثم أخفُوا بعنايةٍ الحذاء الذي يُثبِت تورُّطكم. عندئذٍ سيكون الحذاء الذي تلبسونه دليلًا على براءتكم، بدلًا من أن يكون دليلًا مُفترضًا على جرمكم.

لا تُصدَموا من هذه النصيحة العلنية التي قدَّمتها للأشرار؛ لأنني سأمتدح نفسي وأقول إن لديَّ طريقةً مضادَّة لإحباط مثل هذه الترتيبات الإجرامية المتعلقة بتبديل الأحذية. وبما أنني نشرت الأسلوب المتَّبَع بين أفراد الشرطة، فأي محاولة لتنفيذ الاقتراحات التي قدَّمتها فعلًا على أرض الواقع ستحظى بفرص اكتشاف أكبر مما قد يحدث من خلال اتباع المخاطرة العادية.

والآن لنعد إلى موضوعنا.

ربما باستثناء مورتون، كان شرطي ترام هو الشخص الوحيد في المدينة الذي كان لا بد أن يعرف وفقًا لمهامٍّ واجبه المعتاد قيمة كل أثر قدم موجود بالقرب من الجثة، ولكنه أهمل تمامًا اتخاذ مثل هذا الإجراء الاحترازي، الذي لو كان لاحظه فلا بد أنه كان سيؤدي إلى كشف (وكشفٍ فوري)، وهو ما لم يحدث أبدًا بسبب غبائه.

ما كان مؤكدًا بلا ريب هو أن دليل آثار الأقدام كان غائبًا تمامًا.

لم يلحظ الشرطي أي شيء ولم يأخذ احتياطاته؛ ومن ثَم كان من المستحيل أن يحصل حتى أكثر المحققين ذكاءً وبراعةً على أي دليل يخص هذه الآثار؛ إذ إنه بعد انتشار أخبار

الفاجعة كالنار في الهشيم، وهو ما لا يحدث إلا في القرى، جاء عشرات الريفيين يتسكَّعون في مكان الحادث؛ ومن ثَم طُمست أي آثار أقدام كان يحتمل وجودها.

باختصار، لم يستطع السيد جوش هيجينز تقديم أي دليل كان يمكن أن يستحق الاستماع إليه.

والآن، كانت الشهادة الوحيدة المُتبقية هي شهادة دينا يارتون.

قالت الصحيفة التي حصلت منها على هذه التفاصيل إنها «دخلت المحكمة وهي مُنكمشة بشدة من آثار تعاقُب نوبات الصرع التي تعرَّضت لها، وجاهدت للتخلص منها».

كانت شديدة الغباء لدرجة أنه كان لا بد من تكرار كل سؤال بست طرق مختلفة قبل أن تتمكن من الإدلاء بإجابةٍ واحدة. تطلَّب الأمر أربعة أسئلة لمعرفة اسمها، وثلاثة لمعرفة مكان إقامتها، وخمسة لمعرفة مهنتها. أما الطبيب الشرعي وهيئة المحلفين فيئسوا، بعد مجموعة من الأسئلة، من محاولة التأكد مما إذا كانت تعرف طبيعة القَسم أم لا. ومع ذلك، فقد اعتُبرت شاهدةً كُفؤةً تمامًا عندما قالت إنها متأكدة تمامًا من أنها ستذهب إلى «مكانٍ سيئ» إن لم تقل الحقيقة، ولا يُساورني شك في أنها تعرَّضت لسيل من الأسئلة المُزعجة.

وبما أن السيد مورتون قد حصل منها على تفاصيل أكثر من باقي المستجوَبين مجتمعين، وبما أنني بنيت كل تصرُّفاتي اعتمادًا على شهادتها، فربما لن يكون من الخطأ عرض أسئلة هذا الرجل وإجاباتها عليها كاملةً، كما اقتُبست بالضبط في جريدة المقاطعة النهمة للأخبار، التي نظرت إلى القضية برمَّتها بلا شك باعتبارها هبةً صحفية من السماء، وقد تمنَّى مالكوها بشدةٍ تأجيل التحقيق عدة مرات للحصول على مزيد من الشهادات.

قال السيد مورتون: «حسنًا يا دينا، في أي وقت ذهبت إلى الفراش يوم الاثنين؟»

[جرى الحصول على الإجابات عمومًا بعد الكثير من الطرق من جانب المستجوِب ليعمَّ الهدوء. سأسرد الإجابات ببساطة كما قالتها تمامًا.]

«في العاشرة.»

«هل خلدتِ إلى النوم؟»

«لا، لم أنَم.»

«لمَ لا؟»

«لأنني لم أتمكن من النوم.»

«ولكن لماذا؟»

«كنت أفكر.»

«في ماذا؟»

«أشياء كثيرة.»

«أخبرينا بواحد من هذه الأشياء.»

[لم تُجِب، هذا باستثناء ظهور أعراض نوبة أخرى.]

«سكوت، سكوت! حسنًا، هل نِمت أخيرًا؟»

«أجل، فعلت.»

«حسنًا، متى استيقظتِ؟»

«استيقظت عندما نادتني السيدة.»

«متى؟»

«لا أعرف أي ساعة كانت.»

«هل كان نهارًا؟»

«أجل، نهارًا.»

«هل استيقظتِ أثناء الليل؟»

«أجل، مرةً واحدة.»

«كيف حدث ذلك؟»

«لا أعلم.»

«هل سمعتِ أي شيء؟»

«لا.»

«هل تظنين أنكِ سمعتِ أي شيء؟»

«أجل.»

«ماذا سمعتِ؟»

«شيئًا يتحرك.»

«ما الذي كان يتحرك؟»

«الصندوق.»

«صندوق! سكوت، سكوت! أجيبيني بإجابةٍ واضحة.»

وهنا رفع صوته، وليس لديَّ أدنى شك في أن دينا كان يجب عليها أن تُرجِع الفضل في عودة نوباتها إلى هيئة المحلفين.

«هل تسمعينني؟ أجيبيني بإجابةٍ واضحة.»

«أجل.»

«هل سمعتِ أي ضوضاء عندما استيقظتِ؟»

«لا.»

«ولكنك ظننت أنكِ قد سمعتِ ضجيجًا، أليس كذلك؟»

«بلى، في الـ...»

«سكوت، سكوت! دعينا من الصندوق، أين كان؟»

«الصندوق؟ في القاعة!»

«لا، لا، الضجيج.»

«في القاعة يا سيدي.»

«تقصدين الضجيج؟»

«لا يا سيدي، الصندوق.»

فقال السيد مورتون: «حسنًا، دعينا من الصندوق يا عزيزتي. أريدك أن تفكري في هذا؛ هل سمعتِ أي ضجيج «خارج المنزل»؟»

«لا.»

«ولكنكِ قلتِ إنكِ سمعتِ ضجيجًا، أليس كذلك؟»

«لا يا سيدي لم أفعل.»

«حسنًا، لكنكِ قلتِ إنكِ ظننتِ أنكِ سمعتِ ضوضاء، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«حسنًا. أين؟»

«في الصندوق.»

وهنا تذكر صحيفة المقاطعة أن رجل القانون واصل الضرب بيده على الطاولة أمامه، ثم تابع قائلًا:

«إذا تحدَّثتِ عن الصندوق مرةً أخرى يا فتاتي فستذهبين إلى السجن.»

قالت الشاهدة التعيسة الحظ مندهشةً: «السجن!»

«أجل، سجن وخبز وماء!»

عقب ذلك، دون أن تُبْدي أي ملاحظات أخرى، أُصيبت الشاهدة التعيسة بنوبةٍ أخرى، وكان لا بد من حملها خارجًا وهي تُصارع بقوةٍ شديدة يبدو أنها نتيجة للتشنجات، بينما يُمسِك بها ثلاثة رجال كان عليهم بذل جهد كبير لإبقائها هادئة إلى حدٍّ ما.

قال الطبيب الشرعي: «لا أظن أيها السادة أن هذه الشاهدة ذات أهمية. أولًا: يبدو لي أنه من المشكوك فيه أن يكون لديها القدرة على الإدلاء بشهادة. وثانيًا: أعتقد أنه ليس لديها شهادة تُدلي بها؛ فلا يستدعي الأمر تأجيل الاستجواب حتى تتعافى. يبدو لي أنه سيكون من القسوة إجبار هذه الشابَّة المسكينة مرةً أخرى على معايشة الوضع الذي عانته لتوِّها، إلا إذا كنتم مُقتنعين أنها شاهدةٌ ذات أهمية. أظن أنها قالت ما يكفي ليُظهِر أنها ليست كذلك. يبدو مؤكدًا، من إفادتها، أنها ذهبت للنوم مع السيدة كوينيون، وأنها لا تعرف شيئًا أكثر عما حدث حتى أيقظتها مدبرة المنزل في الصباح، بعدما كانت هي نفسها قد سمعت جرس الإنذار؛ لذلك أقترح أن الدليل الذي يمكن أن تقدِّمه مُتضمَّن بالفعل فيما هو موجود أمام هيئة المحلفين، وفيما أدلت به مدبرة المنزل في شهادتها.»

وافقت هيئة المحلفين على ملاحظات الطبيب الشرعي، إلا أن السيد مورتون أضاف أنه مُتحير بشأن إشارات الفتاة المُتكررة إلى الصندوق، وأنه ربما يمكن للسيدة كوينيون أن تساعد في توضيح هذا اللغز.

نهضت مدبرة المنزل على الفور.

قال السيد مورتون: «سيدة كوينيون، هل يمكنكِ تقديم أي تفسير لما تعنيه الشابَّة بإشارتها إلى الصندوق؟»

«لا.»

«يوجد صناديق بالطبع في منزل آل بيتلي، أليس كذلك؟»

«أجل، بلا شك.»

«هل يوجد صندوق بعينه؟»

«لا، لا يوجد.»

«ألا يوجد صندوق بعينه يُشار إليه بأنه «الصندوق»؟»

«نعم، لا يوجد.»

«لقد قالت الفتاة إنه في الردهة، هل يوجد صندوق في الردهة؟»

«أجل، العديد منها.»

«ما الذي تحتويه؟»

«يوجد صندوقٌ مخصَّص للأحذية والقباقيب، وصندوق على الطاولة توضع فيه رسائل البريد عندما تكون الأسرة في المنزل، وتؤخَذ منه هذه الرسائل كل يوم في الرابعة عصرًا، كما يوجد صندوقٌ مثبَّت في الحائط، لم أتمكَّن من اكتشاف الغرض منه مطلقًا، وكنتُ قد تحدَّثتُ إلى السيد بيتلي عدة مرات بشأن إزالته.»

«ما حجمه؟»

«حوالَي قدم ونصفٍ مربَّعة في عمق ثلاث أقدام.»

«هل هو مقفل؟»

«لا، الغطاء مفتوح دائمًا.»

«هل سبق أن أبدت الشابَّة أي خوف من هذا الصندوق؟»

«مطلقًا.»

«هل لديك فكرة عن أي صندوق في الردهة أشارت إليه في شهادتها؟»

«ليس لديَّ أدنى فكرة.»

«هل تعتبرين الشابة ضعيفة العقل؟»

«إنها ليست شديدة الذكاء بكل تأكيد.»

«وهل تعتقدين أن فكرة الصندوق هذه محض خيال؟»

«بالطبع.»

«وهل تعتقدين أنها فكرةٌ حديثة؟»

«لم أسمعها تشير إلى أي صندوق من قبل.»

«هذا يكفي.»

وصفت الجريدة، التي أخذت منها شهاداتي، السيدة كوينيون بأنها امرأةٌ تتمتع بقدرٍ كبير من رباطة الجأش، وأنها أدلت بما كان يتوجب عليها قوله بهدوءٍ تام وبكلامٍ واضح.

كان الطبيب الشرعي على وشك أن يختم بعدما أُدلي بكل الشهادات الممكنة، عندما تذكَّر الشرطي هيجينز أنه نسيَ ذِكرَ أمرٍ ما، وتقدَّم إلى الأمام بسرعةٍ كبيرة ليُصلح خطأه.

قال هيجينز إنه لم يكن له أي علاقة بالأدوات التي عُثر عليها مع المتوفى.

كانت هذه الأدوات عبارة عن مفتاح و«قناعٍ أسود من قماش الكريب الرقيق».

استُدعي السيد بيتلي مرةً أخرى وعُرِض عليه المفتاح، فتعرَّف عليه قائلًا إنه (حسبما اعتقد) أحد «مفاتيح المنزل». لم يكن ذا قيمة خاصة، ولا يهمُّ إن بقيَ بحوزة الشرطة.

وكما أورد تقرير الجريدة «المفتاح الآن في عهدة الشرطي.»

أما فيما يتعلق بقناع قماش الكريب، فلم يتمكن السيد بيتلي من تقديم أي توضيح فيما يتعلق به.

ثم شرع الطبيب الشرعي بعد ذلك في اختتام الجلسة، وفي خلال ذلك قدَّم العديد من الإطراءات المنمَّقة للطبيب على وجهة نظره في القضية (والتي لا أشك في أنها قضت

على اهتمام العامة بالقضية، وأضعفت من يقظة قوة المباحث، التي على الرغم من أن كثيرين من أفرادها يتمتعون بالذكاء الشديد فهم بسطاء بالقدر نفسه، ولديهم استعدادٌ كبير لتقبُّل التصريحات الواضحة والمباشرة). كما دفع السيد مورتون بأن اكتشاف القناع الأسود المصنوع من قماش الكريب يبدو إلى حدٍّ كبير دليلًا يعضد طرح الطبيب. قال الطبيب الشرعي: «لو كان الشاب يصطاد بشكلٍ غير قانوني، فسيرغب بشدة في إخفاء وجهه؛ نظرًا لوضعه في المقاطعة؛ ومن ثَم فالعثور على هذا القناع الأسود على جثته — إذا سلَّمنا بتفسير الصيد غير المشروع — سيكون اكتشافًا طبيعيًّا للغاية، ولكن …»

بعد ذلك شرع الطبيب الشرعي في التوضيح لهيئة المحلفين أنه يتعين عليهم اتخاذ قرار استنادًا إلى الحقائق وليس الافتراضات. قد يكونون جميعهم مُقتنعين بأن تفسير الدكتور بيتشرلي هو التفسير الصحيح، ولكن هذا لا يمكن قبوله في القانون. لا بد أن يكون حكمهم وفقًا للحقائق، والحقائق البسيطة للقضية هي أنه عُثر على شابٍّ ميتًا، وأن أسباب وفاته تدل على أنه من المستحيل تصديق أن المتوفَّى اقترف إثم الانتحار؛ ولذلك فإنهم في ظل هذه الظروف سيشعرون أنه من واجبهم إصدار قرار بأن الواقعة جريمة قتل مقيَّدة ضد مجهول.

لم تنسحب هيئة المحلفين للتشاور، ولكن في نهاية جلسة تشاور مدتها ثلاث دقائق، كان رئيس المحلفين، السيد مورتون، هو (حسبما علِمت) مَن استحوذ فيها على الكلام كله، أصدرت هيئة المحلفين حكمًا بالقتل العمد ضد شخص أو أشخاص مجهولين.

وهكذا انتهى التحقيق.

ولن أتردَّد كثيرًا في القول إن هذا التحقيق كان أحد أضعف التحقيقات التي جرت على الإطلاق من هذا النوع. كان يتسم بالفوضى وافتقار الفهم والمنطق السليم.

أثارت وقائع القضية بعض الضجة، ولكن التفسيرات المعقولة التي قدَّمها الطبيب، والملابسات العديدة المُتزامنة، حرمت القضية من الكثير من الاهتمام الذي تستحقُّه، سواء من جانب الجمهور أو قوة المباحث؛ فلم يتبقَّ للجمهور سوى مساحة صغيرة للتخمين العادي، أما فيما يتعلق بقوة المباحث — وهنا لستُ بحاجة إلى قول ما هو معروف بالفعل — فالقوة الدافعة الرئيسة للمحقق هي تحقيق مكسب ما، وقد تبدَّدت تقريبًا في هذه القضية احتمالات تحقيق مكسب؛ لأن إمكانية تقديم تفسير حقيقي لوقائع هذه القضية قد جرت فعلًا، وإذ كان الوضع كذلك كان الأمل الموعود بتحقيق مكافأة كبيرة ضعيفًا.

ولكن مجرد سردي لهذه الرواية هنا سيكون كافيًا لإثبات أنني لم أتفق مع وجهة النظر العامة المتَّبَعة في هذه القضية.

لذا، فقد كنتُ مُحققةً كما ستُثبِت الصفحات الآتية حسبما أظن.

عرضت الحكومة بالطبع المكافأة المعتادة، ألا وهي مائة جنيه استرليني، والتي تُنشَر في جميع حالات الوفاة التي يُفترض أن تكون قد حدثت بفعل فاعل.

ولكن ما أغراني لاختيار هذه القضية للتحقيق فيها لم يكن المكافأة العادية المعتادة، بل العديد من الظروف الغريبة التي أثارت اهتمامي.

والتي كانت كما يأتي:

(١) لماذا رفض الأب عرض مكافأة؟

(٢) لماذا كان المتوفَّى يحمل أحد مفاتيح المنزل معه وقت الوفاة؟ وكيف حصل عليه من الأساس؟

(٣) ما الذي كان يعنيه الصندوق؟

فيما يخص السؤال الأول، بدا لي أن رفض الأب عرض مكافأة لا بد أنه ينجم من أحد ثلاثة مصادر؛ إما أنه كان يعتقد أنه لم تحدث جريمة قتل من الأساس؛ لذلك شعر أنه لم تكن ثَمة حاجة لذلك؛ أو أنه كان يعلم بارتكاب جريمة قتل ولكنه لم يرغب في تسريع عمل الشرطة، أو، ثالثًا، أن الأب سواء كان يعتقد بحدوث جريمة قتل أو لا، أو يعلم بكَوْنها كذلك أو لا يعلم، كان بخيلًا لدرجةٍ جعلته لا يرغب في تقديم مكافأة ستجعله يخسر مالًا دون أن يكسب أي شيء في المقابل.

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني؛ لماذا كان المتوفى يحمل أحد مفاتيح منزل والده معه في جيبه؟ لقد كانت حوزته للمفتاح أمرًا غريبًا للغاية، وغير مفهوم. كيف صار بحوزته؟ ولماذا كان بحوزته؟ وماذا كان سيفعل به؟

أما السؤال الثالث؛ ما الذي كان يعنيه الصندوق؟ هل كانت الفتاة البائسة دينا يارتون تُشير لأي صندوق عادي أم لصندوقٍ مميز؟ يبدو لي أنها إن كانت تُشير إلى أي صندوق عادي فلا بد أنه صندوقٌ عادي، ولكن الملابسات التي أحاطت به كانت غير عادية، ولكن الحمقى نادرًا ما يتمتعون بأي خيال على الإطلاق، وبمعرفتي لهذا لم أكن مستعدَّة أن أُسنِد إلى دينا أي قدرة على أن تنسب أي صفات غير عادية لصندوقٍ عادي، ثم عندما تذكَّرت أنه لم يكن يوجد أي شخص بالمنزل يمكنه ممارسة ألاعيب عليها سوى مدبرة منزل جادة ووقورة، لا يمكن أن تفعل شيئًا من هذا القبيل، وصلتُ إلى استنتاجٍ مفاده أن الصندوق المَعني كان صندوقًا غير عادي. «لقد كان في القاعة»، كما قالت دينا. إذا كان الصندوق

صندوقًا غير عادي، وكان في القاعة، فهذا يعني أنه كان قد وصل هناك لتوِّه. هل في هذا الوقت ربطتُ ارتباطًا وثيقًا بين الصندوق والقضية؟ لا أظن ذلك.

على أي حال، عقدتُ العزم على الذهاب إلى بلدة ترام والتحقيق في القضية، وكما هو حال أمثالنا نحن المحققين، غالبًا ما يتزامن الفعل مع العزم عليه. لا أحتاج لقول إنني ما إن عقدتُ العزم على زيارة ترام فسرعان ما كنتُ أقترب من محطتها وأنا أستقلُّ أول قطار مُتجهٍ إليها بعدما عقدت العزم على الذهاب.

وأثناء رحلة ذهابي، رتَّبت في ذهني الطريقة التي سأتبعها في إنجاز الأمر.

أولًا: لا بد أن أقابل الشرطي.

ثانيًا: لا بد أن أتحدَّث مع الفتاة دينا.

ثالثًا: لا بد أن أفحص مسرح الجريمة.

سيكون كل هذا سهلًا.

ولكن ما يلي ذلك سيكون أصعب.

كان ما يلي ذلك هو استخدام ما سأكتشفه على أي شخص قد يتبين تورُّطه في الجريمة من خلال اكتشافاتي، وأن أرى ما يمكنني أن أحصده من هذا كله.

فور أن وصلت إلى ترام عثرت على الشرطي، ولا بد أن أقول إنني لم أقابل في حياتي شخصًا أكثر حُمقًا منه.

كان صريحًا ببلاهةٍ من شدة غبائه؛ فقد كان من المستحيل أن يكون غير ذلك.

لم يتمتع بأي فرصة من الهروب من صفاتي باعتباري محققة تُشبِه المثقاب، مثلما لا يتمتع عامل ثقب يافع وغض بأي فرصة في التحكم بصورةٍ مناسبة في مثقابٍ ثقيل. أعتقد أنه حتى نهاية الأحداث لم يفهم أبدًا أنني كنت محققة. لم يتمكن عقله من استيعاب فكرة وجود امرأة شرطية.

استجوبته بأقصر طريقة للسيطرة عليه؛ إذ خفَّفت من شكوكه ومن حدة لهجته بالمال الذي يحكم هذا العالم.

التقيت به وجهًا لوجه مباشرةً، وكنت أعرف ما يجب عليَّ فعله. ببساطةٍ كان عليَّ استجوابه. وهنا سأعرض أسئلتي وإجاباته بقدر ما أستطيع تذكُّرها، وكذا سأسرد ما نتج عن الاثنين.

قلت له على الفور إنني كنت أشعر بالفضول لمعرفة كل التفاصيل الممكنة عن هذه القضية، وما إن أكَّدت رغبتي هذه بإظهار أول شلن، حتى أتيحت لي في لمح البصر فرصة رؤية ابتسامته العريضة التي كشفت عن أسنانه التي لم يكن ينقص منها سنٌّ واحدة.

«أين المفتاح والقناع اللذان عُثِر عليهما مع الجثة؟»

«حسنًا، إنهما في صندوقي، بما أنني شرطي!»

«هل يمكن أن تُريهما لي؟»

«أوه، أجل بالطبع!»

عقب ذلك مضى إلى صندوق في زاوية الغرفة، وفتحه بوقار.

بصفته شرطي بلدة ترام، كان من الطبيعي تمامًا أن يحتفظ بهذه الأشياء؛ فقد صدر حكم بالقتل العمد؛ لذلك قد يتعين إجراء تحقيقات في أي وقت.

أخرج حزمةً من هذا الصندوق وفتحها، فظهرت منها مجموعة من الملابس، ومن بينها أخرج مفتاحًا وقناعًا.

فحصت المفتاح أولًا. كان مُتقَن الصنع وجميلًا ومعقَّدًا للغاية. نتعلم نحن أفراد الشرطة خلال تجربتنا الكثير عن المفاتيح؛ لذا لم أحتَج سوى نظرة سريعة لأدرك أنه كان مفتاحًا لقفلٍ معقَّد وذي قيمة أكبر من المعتاد.

كان الرقم «١٣» منقوشًا بعناية على حلقة المفتاح المصقولة بشدة.

لم يكن هذا المفتاح، بلا أدنى شك، مفتاحًا عاديًّا لقفلٍ عادي.

الأقفال والمفاتيح غير العادية لا تحمي سوى الكنوز غير العادية.

لذا، كان الاستنتاج الأول الذي توصَّلت إليه من مقابلتي مع شرطي ترام، هو أن المفتاح الذي عُثِر عليه مع الجثة يفتح قفلًا يحرس شيئًا قيِّمًا.

بعد ذلك فحصت القناع.

كان مصنوعًا من قماش الكريب الأسود، ومشدودًا على سلكٍ فضي. لم أكُن قد رأيت شيئًا كهذا من قبل، على الرغم من أنني بصفتي محققةً كثيرًا ما كان يختلط عليَّ الناس الذين يرتدون أقنعة، سواء في الحفلات التنكرية أو في مناسباتٍ أخرى أقل لطفًا.

لذا، استنتجت أن القناع كان أجنبيَّ الصنع.

[علمت في النهاية أنني كنت على حق، ولا يعود لي فضلٌ كبير في ذلك أيضًا؛ لأنه يمكن بسهولةٍ تخمين أن أي لون غير اللون الأبيض هو لون آخر. كان القناع هو من النوع الذي يُسمى بالخارج «قناعًا فاخرًا»، وهو قناع، على الرغم من أنه يغيِّر وجه من يرتديه بما يكفي ليمنع التعرف عليه، فهو مصنوع بدقةٍ شديدة لدرجة أن قماش الكريب يسمح بالتعرق بأريحية، وهي خاصية لا تسمح بها الأقنعة الرديئة.]

«هل عُثر على أي شيء آخر مع الجثة؟»

«لا.»

«هل وجدت مفتاحًا يفتح كل الأبواب؟»

«لا، فقط مفتاح واحد.»

إذن لو كان الشرطي مُحقًّا، «وإذا كانت الجثة قد ظلَّت كما هي» عندما عثر عليها البستاني براون، فالأغراض الوحيدة التي عُثر عليها هي المفتاح والقناع.

ولكن من المؤكَّد أنه كان يوجد شيءٌ آخر في الجيوب.

سألته: «هل عُثر على أي كيس نقود؟»

«لا.»

«ولا منديل؟»

«أوه، أجل كان يوجد منديل.»

«أين هو؟»

مضى إلى الحزمة على الفور.

«هل هذه هي الملابس التي عُثر عليه وهو يرتديها؟»

«أجل، إنها هي.»

حتى ذلك الحين، كنت أشعر بشعورٍ جيد.

كان الشرطي، الذي كان يبدو غبيًّا وصادقًا، مُرتابًا للغاية؛ ولذلك شعرت أنه لا بد من التعامل معه بعنايةٍ شديدة.

أعطاني المنديل بعدما أخرجه من بين بعض الثنايا في الحزمة بأكثر إصبع سبابة مسطَّح أظن أنني رأيته في حياتي.

كان منديلًا نسائيًّا.

كان جديدًا، وبدا أنه لم يكن قد استُخدم من قبل؛ إذ لم يكن مجعَّدًا ولا متَّسخًا، كما كان سيكون حاله لو أنه ظل موضوعًا لفترةٍ طويلة في أحد الجيوب. وكان مطرزًا اسم «فريدي» على طرفه، ولا شك أنه كان اختصارًا لاسم فريدريكا.

سألت الشرطي مستخدمةً نفس طريقته في الكلام: «هل كان المنديل ملفوفًا في أي شيء؟»

«لا.»

«في أي جيب كان موجودًا؟»

«لم يكن في أي جيب.»

«أين كان إذن؟»

«كان في الصديري، في مقابلة صدره، وفوق الصوف المَحوك فيه مباشرةً.»

والآن ما الاستنتاج الذي يخصُّ المنديل؟

كان المنديل يخصُّ امرأةً، ولم يكن متَّسخًا، ولم يُستخدم لفترةٍ طويلة، وكان قد دُسَّ في صدره، وكان مطرزًا عليه اسم فريدي.

كان استنتاجي كما يأتي:

كان هذا المنديل يخصُّ امرأةً شابَّة، على الأرجح، وكان اسمها الحقيقي فريدريكا. وبما أن المنديل لم يكن متَّسخًا، وبما أنه لم يتحوَّل إلى اللون الأسود بسبب الاستخدام، فهذا يعني أنه قد أخذه أو أن شخصًا ما قد أعطاه إياه مؤخرًا. وبما أن المنديل قد وُجد في صدر قميصه، فيبدو أنه كان ينظر إليه بعين الرضا. هل نفترض إذن أنه كان هديةً من إحدى الشابَّات للمتوفَّى في الوقت الذي كان فيه على وشك أن ينطلق في رحلته؟

لقد غادر المتوفى لندن في غضون ثماني عشرة ساعة من وفاته، فهل أُعطيَ له المنديل في لندن أم بعد أن غادر المدينة؟

ومرةً أخرى، هل كان للقناع أي علاقة بهذه المرأة؟

أخذته مرةً أخرى وفحصته مجددًا، فأدهشتني رقة القماش أكثر من ذي قبل، وقرَّبته من عيني لأفحصه فحصًا أدق، فوجدت أنه كان معطرًا.

كان استنتاجي إجمالًا هو أن هذا القناع يخصُّ امرأة.

مرةً أخرى بدأت في استجواب جوزيف هيجينز الشرطي.

فقلت له: «أودُّ إلقاء نظرة على الملابس.»

أجاب الشرطي: «يا إلهي، بالطبع.»

كانت مجموعةً عادية من الملابس التي كان يرتديها أي رجل من الطبقة الوسطى في الصباح، لكنها لم تكن جيدة للغاية أو عصرية كما قد يتوقع المرء أن يجد ملابس ابن رجل ثري.

[سرعان ما استجليت هذا التناقض الواضح بعدما علِمت في مساء وصولي أن المالك بيتلي كان شخصًا بخيلًا بل شديد البخل.]

لم يكن يوجد أي شيء في الجيوب، ولكن ما لفت انتباهي هو أن القماش كان «موبرًا» ورماديًّا داكنًا، وهو من ثَم ما أخفى هذا الوبر إلى حدٍّ كبير.

«أخشى أنك لم تعتنِ بتلك الملابس، أليس كذلك؟»

«إنها كما كانت عندما جُرِّد منها!»

«ماذا؟ هل كان كل هذا الوبر موجودًا في القماش؟»

«نعم.»

[كانت «نعم» هي النسخة الجديدة من «أجل»، وكان كلاهما يعني «بلى».]

«تبدو كأنها قد طُويت فوق طبقة من الحصى.»

«لا.»

كانت الملابس ملطَّخة على جانبها السفلي بعلاماتٍ من الحصى، وكانت لا تزال رطبة في هذه الأجزاء.

ذكَّرتني هذه الملاحظة بشيءٍ نتج عن التحقيق، وهو ما تذكَّرته الآن ووضعته في اعتباري أثناء فحص حالة الملابس.

كانت الأمطار قد هطلت ليلة الاثنين، واكتُشفت الجثة صباح الثلاثاء.

لم تكن الملابس كلها رطبة؛ وهذا لأن الوبر كان مجعَّدًا بشدة، وكان يطير في الهواء. كان من الضروري معرفة الوقت الذي توقَّفت فيه الأمطار ليلة الاثنين، أو صباح الثلاثاء.

كان واضحا جدًّا أن الملابس لم تتعرض للمطر في الوقت بينما أصبحت مزغبة وقت اكتشاف الجثة؛ لذلك بعد التأكد من الساعة التي توقَّف فيها المطر سأتوصل إلى الوقت (الوقت الذي اكتُشفت فيه الجثة كان في الساعة الخامسة والنصف) الذي جرى فيه التخلص من الجثة.

لم يكن الشرطي يعرف شيئًا عن المطر، وأعتقد أنه عند هذه النقطة، وعلى الرغم من الشلنات التي أعطيته إياها، بدأ يُظهر علاماتٍ فظَّةً على نفاد الصبر.

أُضيفُ هنا أنني وجدت أن المطر لم يتوقف إلا في الساعة الثالثة من صباح الثلاثاء؛ لذا كان من الواضح أن الجثة قد وُضعت حيثما وُجدت بين الساعة الثالثة والخامسة والنصف؛ أي في غضون ساعتين ونصف.

توصَّلت إلى هذا الاكتشاف في نفس المساء من صاحبة منزلي، وهي امرأةٌ مُفيدة للغاية.

والآن، ألا يُفاجأ القارئ أن الساعة الثالثة من صباح شهر مايو، وعند اقتراب الصباح، كان وقتًا متأخرًا جدًّا لممارسة الصيد غير القانوني؟

أخذ هذه الحقيقة التي لا جدال فيها بعين الاعتبار، إلى جانب عدم الحاجة إلى وجود قناع (لأن الصيَّادين غير القانونيين لا يرتدون أقنعة) وحالة الملابس، ناهيك عن نوع الملابس التي كان يرتديها المتوفى، دفعني إلى استبعاد نظرية السيد مارتون القائلة بأن

الشاب قد لقي حتفه أثناء نزاع على الصيد غير الشرعي، أو بالأحرى أثناء رحلة صيد غير شرعي.

أخذت القليل من الوبر من الملابس ووضعته بحذرٍ في دفتر جيبي.

كان آخر شيء فحصته هو السلك الشائك الذي تسبَّب في الوفاة.

وهنا أعترف أنني أُحبطت تمامًا وشعرت بالهزيمة الكاملة، فأنا لم أرَ شيئًا من هذا القبيل من قبلُ قط.

لقد كان سلكًا شائكًا خشنًا للغاية، على هيئة شيء يُشبِه سهم الملكة ذا النصل العريض، ولكن الفارق الوحيد هو أن حوافَّه قد اتَّسعت من عند طرفها، بحيث بدا كلٌّ منها مثل شفرة مطواة بالية. كان المقبض غير منتظم وربما أكثر خشونة من بقية الأجزاء. كان السلاح مصنوعًا من حديدٍ شديد الرداءة؛ وهذا لأنني ثنيته بدفعه في إطار النافذة، دون استخدام أي شكل من أشكال القوة، وهو ما أثار اشمئزازًا شديدًا لدى الشرطي، الذي أتذكر جيدًا أنه أصدر صوتًا مُتعجبًا.

والآن، ماذا الذي جنَيته من زيارتي للشرطي؟ هذه السلسلة من الافتراضات:

أن المتوفى وُضع في المكان الذي عُثر عليه فيه بين الساعة الثالثة والخامسة والنصف من صباح يوم الثلاثاء، وأنه لم يُقتَل جرَّاء رحلة صيد غير قانوني، وأنه كان قد زار امرأةً شابَّةً اسمها فريدريكا قبل موته بساعاتٍ قليلة، وأنه قد حصل منها على منديل وربما قناع أيضًا.

كانت الإشكالية الوحيدة هي المفتاح، والذي عُثر عليه، بالمناسبة، في جيب ساعة صغير في المعطف عند الخصر.

لا أحتاج إلى قول إنني طرحت الكثير من الأسئلة بينما كنت أتناول الشاي في النُّزل الذي كنت أقيم فيه، وسمعت الناس يشيرون إلى سيدةٍ اسمها السيدة جرين بشكلٍ مُتكرر، فتوقَّعت أنها كانت سيدةً فضولية، وحصلت على عنوانها بصفتها سيدةً لطيفة تؤجر الغُرَف للناس، ويمكنني أن أضيف أنني في تلك الليلة نِمت في أفضل غرفة من الغُرف التي تؤجِّرها هذه السيدة اللطيفة.

كانت أكثر مُتحدثة يصعب السيطرة عليها واجهتها على الإطلاق، ولم تكن تخلو من الحدة. في الواقع، لو كانت حذرةً أكثر مما كانت عليه، أو دعوني أقول، لو كانت تتمتع بحذرٍ عادي، كانت ستصلح أن تصير ضابطة شرطة عادية جيدة، وربما كنت سأساعدها لو كانت تمتلك مثل هذه الصفة، ولكنها لم تكن سوى فكرة لا يمكن التفكير فيها بجدية ولو للحظة.

لقد كانت السيدة جرين هذه سيدةً رائعة.

كان كل ما عليك فعله هو طرح سؤال حول أي نقطة، وستجدها تترك الموضوع الذي كانت منهمكة بالحديث عنه، وتندفع في مسار حديث جديد تمامًا.

كانت نهمة للحديث عن جريمة القتل؛ وهذا لأن استنتاجها المفروغ منه كان أن جريمة قتل قد ارتُكبت.

باختصار، جاءت جميع المعلومات المقدَّمة حتى هذه النقطة، والتي لم تنتج عن سعيي الخاص، ولم أستقِها من نسخة من جريدة المقاطعة (وكثير من المعلومات الأخرى التالية) كلها من المصدر المتدفِّق بالمعلومات نفسه؛ السيدة جرين.

كان كل ما عليَّ فعله هو طرح سؤال آخر عندما أظن أننا قد استنفدنا السؤال السابق، وعلى الفور كانت تُسهب في الحديث مرةً أخرى، وهكذا واصلنا على هذا المنوال من الساعة السابعة إلى الحادية عشرة. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف، واقتربت من التاسعة، عندما رُفعت أدوات الشاي التي كان قد مرَّ عليها وقتٌ طويل وهي باردة ومتَّسِخة.

سألتها في سياق ما بدا لي أنه تسليةٌ ثمينة للسيدة جرين: «وما الذي حل بالسيدة كوينيون؟» وطوال هذا الوقت لم تسألني عن الشأن الذي أتيت من أجله إلى هذه الأنحاء (على الرغم من أنني كنت متأكدة تمامًا من أن شخصًا شديد الفضول كهذه السيدة كان يتُوق لمعرفة كل شيء عني)؛ لأن أي استفسار كان سيتطلب ردًّا في المقابل، وهذا ما لم تكن تستطيع تحمُّله وهي ترى أنني على استعداد للإنصات إليها؛ لذا وقع اختيارها على أهون الشَّرَّين.

«وما الذي حل بالفتاة؟»

«أي فتاة؟»

«دينا.»

«دينا يارتون؟»

«أجل، أعتقد أن هذا كان اسمها.»

«ليُباركك الرب! إن حكيت لكِ عن دينا يارتون فسيُشبِه ذلك سرد كتاب مبارَك طويل. لقد غادرت بعد يومين، وعندما لم تجد لها سريرًا في نُزُل «لامب أند فلاج» وعلِمَت أن لديَّ سريرًا شاغرًا، أتت إلى هنا. دائمًا ما يرسل لي الناس في «لامب أند فلاج» نزلاءهم الذين يبحثون عن مكان للمَبيت، فليُباركهم الرب ويُباركك! وهكذا عرفت كل شيء عن الأمر وعن الصندوق الكبير، ليُباركِ الرب!»

[الصندوق! كان هذا بكل تأكيد ما أردت أن تأتي السيدة جرين على ذكره! سيتذكر القارئ أنني ألقيت بعض الضوء على إشارة الفتاة المتكرِّرة إلى الصندوق.]

«ليُباركِكِ الرب! إن الصندوق الكبير هو ما أثار الخلاف؛ لأن السيدة كوينيون قالت إنها كانت حمقاء لخوفها من صندوقٍ كبير، لكن دينا كانت خائفة منه فعلًا، من المحتمل أن تكون الآن في المقاطعة المجاورة، في «ليتل بوكلينجتون»، حيث تعيش والدتها التي تصنع الدانتيل، ووالدها المُزارع، وحيث وُلدت دينا، في الأول من أبريل عام ١٨٣٥؛ إذ إنها تبلغ من العمر عشرين عامًا الآن. ما الذي تفعلينه؟ ليُباركِكِ الرب!»

[كنت أدوِّن اسم «ليتل بوكلينجتون».]

لن أقدِّم هنا أي ملاحظات حرفية أخرى لتعليقات السيدة جرين، وإنما سأستخدمها بطريقتي الخاصة حسب الاقتضاء، وكما هو الحال في الواقع، فقد دوَّنت تعليقاتها فعلًا.

قرَّرت أن أرى الفتاة في الحال، وهذا بعدما كنتُ قد حظيت بليلةٍ من الراحة. ومن ثَم، في صباح اليوم التالي، بعدما تأكَّدت من أن صندوقي وحقيبتي مغلقان بعناية، أعددتُ وجبة إفطار سريعة، وخرجت على الفور. عند وصولي إلى المحطة كانت السيدة جرين هناك. من الواضح أنها سبقتني بعبور حقول «جووس جرين»، كما أخبرتني في الواقع.

قالت إنها اعتقدت أنه لا بد أن «تلك» قد سقطت مني، وإنها قد أتت لتتأكد.

كانت «تلك» محفظةً قديمة جدًّا لدرجة أنها كانت تُثير الفضول.

قالت: «ليُباركِكِ الرب! هل هذه محفظتكِ؟ غريب، لا يوجد قطارات؟ ولكن، ليُباركِكِ الرب! سيكون عليك الانتظار ساعةً كاملة لاستقلال القطار التالي. لم يمرَّ أي قطار لأي مكان منذ ساعة.»

أجبت: «سأمشي إذن.»

سألت السيدة جرين قائلةً: «هل يمكنني مرافقتك وتسليتك؟»

أجبت: «لا، لديَّ بعض الشئون التي عليَّ أن أُنجزها.»

كانت أمامي ساعةٌ إضافية، وعندما تذكَّرت أنني كنت قد رأيت الأشياء التي بحوزة هيجينز في ضوء المساء الضعيف، فكَّرت في أن الأمر كان يستحق زيارةً أخرى، وأن أُجري فحصًا ثانيًا.

وربما كان من الجيد أنني فعلت ذلك.

لا يعني ذلك أنني اكتشفت شيئًا مهمًّا آخر، ولكن النذر اليسير من الابتكار الذي أتقنته ساعد في إثبات اعتقادي بأن المتوفى قد زار امرأةً شابَّة، ربما كانت سيدة، قبل وقت قصير جدًّا من وفاته.

لم يُسَر هيجينز، الذي كانت صنعته إصلاح السروج، على الإطلاق عندما رآني مرةً أخرى، وكنت أخشى حقًّا أن أضطرَّ إلى أن أصرِّح بمهنتي لأحصل على ما أريده، ثم أُرهِبه بكياسة كي يُبقي الأمر سرًّا، لكن لحُسْن الحظ تغلَّب اعتقاده بأنني امرأةٌ مجنونة إلى حدٍّ ما على فظاظته، وهكذا بمساعدة بضعة شلنات أخرى فحصت مجددًا الملابس التي عُثر على الشاب البائس وهو يرتديها.

والآن، رأيت في ضوء شمس صباح الربيع الحارقة ما فاتني في المساء السابق. لم يكن سوى قطعة قرمزية لامعة من جديلةٍ حريرية، كتلك التي تستخدمها السيدات في تنفيذ دراسات التطريز.

كان هذا الجزء من الجديلة ملفوفًا حول أحد الأزرار عند الصدر، ثم رُبط في أعلاه على شكل عقدة فراشية أنيقة.

فكَّرت في أنها سيدةٌ شابَّة، وأنها كانت تُريح رأسها على صدره عندما ربطت هذا الجزء من الجديلة في الزر. إنها بريئة كما أعتقد، وإلا ما تصرَّفت مثل هذا التصرف الطفولي الساذج.

أزاح هيجينز ملابس الشاب الميت جانبًا باستياء وسألني:

«انظري أيتها السيدة، هل تظنين أنكِ ستحتاجين إليها مرةً أخرى؟»

«لا.»

«حسنًا، إن احتجتِ إليها فلن تحصلي عليها.»

قلت: «أوه، حسنًا!» ومضيتُ عائدةً إلى المحطة.

بالطبع كانت السيدة جرين هناك في حالة ترقُّب، على الرغم من أنني كنت قد رأيت في المنزل صباحًا ما يدل على أن اليوم كان مخصصًا لما سمعتُ اللندنيين يصفونه ساخرين بأنه «الحفلة المائية»، بعبارةٍ أخرى، يوم الغسيل.

ولكن السيدة جرين تركت مهمة الغسيل هذه.

«ليُباركَكِ الرب، أنا في انتظار صديق عزيز!»

«أوه، بالطبع يا سيدة جرين.»

«هل أشتري لكِ تذكرةً يا عزيزتي؟»

قلت: «أجل، لو سمحتِ. تذكرة لـ «ستوكلي».»

قالت السيدة جرين: «على بعد أربعة أميال. لديَّ صديقة في ستوكلي، يا تُرى هل صديقتك وصديقتي هما نفس الشخص! ما اسم صديقتك يا عزيزتي؟»

«السيدة بلوتشلي.»

«ماذا! هل هي من تعيش بالقرب من المضخة؟»

«أجل.»

«أوه، إنني لا أعرفها.»

بدا لي أن السيدة جرين قد اندهشت؛ لم أعرف مطلقًا سبب ذلك؛ إذ بما أنني لم أعرف مطلقًا أحدًا يُدعى السيدة بلوتشلي، وأنني ذكرت هذا الاسم بالصدفة، وأنني لم أزُر ستوكلي أبدًا، فلم تستفد السيدة جرين أي شيء من الاكتشاف.

«وإذا لم أعُد إلى المنزل بحلول التاسعة فلا تنتظريني يا سيدة جرين.»

«أوه! هل ستبيتين الليلة عندها؟»

«من المرجَّح جدًّا.»

«أوه!»

انحنت لي السيدة جرين احترامًا؛ إذ تكوَّن لديها انطباع بأن السيدة بلوتشلي كانت سيدةً ذات شأن، وانعكس هذا على سلوكها تجاهي.

ليس لديَّ أدنى شك في أن المعلومات التي أشاعتها السيدة جرين على الفور قد ساعدت على تسريب الغرض الفعلي الذي جعلني آتي إلى بلدة ترام.

عندما وصل القطار إلى ستوكلي اشتريتُ تذكرةً أخرى إلى «ليتل بوكلينجتون»، ووصلت إلى تلك البلدة في حوالَي الساعة الثانية بعد الظهر. لم تكن تبعد عن ترام أكثر من ستين ميلًا.

كان والد دينا يارتون هذه واحدًا من أولئك المُزارعين الصغار الذين يمتلكون عددًا قليلًا من الهكتارات، والذين يقل عددهم تدريجيًّا بلا شك في جميع أنحاء البلاد.

ربما يمكنني القول إن الفتاة المسكينة دينا أُصيبت بثلاث نوبات على الأقل خلال الاستجواب الذي أخضعتُها له، وهنا (وتكريمًا للطبيعة البشرية الريفية البسيطة) دعوني أسجِّل أنه في الواقع كان عليَّ استخدام آخر ما في جعبتي، وأن أُفصِح عن مهنتي كضابطة شرطة، بإبراز تصريحي في حضور شرطي بلدة «ليتل بوكلينجتون»، الذي أُقحِمَ في المسألة، قبل أن أتمكَّن من التغلب على اعتراضات والد الفتاة. لقد أكَّد، ولأسبابٍ مسوَّغة جدًّا، أن هذه المسألة «اللعينة» قد أجهدت ابنته تمامًا، وأن اللعنات ستحلُّ عليه إذا تسبَّبتُ في موتها.

كما قلت، أُصيبت الفتاة التعيسة بثلاث نوبات، وليس لديَّ أدنى شك في أن الأسرة قد تنفَّست الصعداء وكانت سعيدة للغاية عندما غادرت منزلهم.

كان على الشابَّة البائسة أن تبذل جهدًا جهيدًا قبل أن تجد إجابةً واحدة.

وهنا لا أحتاج إلى تكرار شهادتها الخاصة بتلك النقطة التي لم تتمكن من إكمالها عندما مثَلَت أمام الطبيب الشرعي وهيئة المحلفين، ولكنني سأبدأ من تلك النقطة.

سألتها بنبرةٍ هادئة: «دينا»، وأعتقد أن الضجة التي كانت والدتها تُثيرها كانت تتسبَّب في إصابة الفتاة بالنوبات بقدر التوتر الذي كانت تشعر به الفتاة نفسها، «دينا، أخبريني عن كل ما يخص ذلك الصندوق الكبير.»

قالت الأم: «اللعنة على ذلك الصندوق».

وهنا أصيبت الفتاة التعيسة بنوبتها الثانية.

قالت المرأة العجوز: «ها نحن ذا، لقد قتلَت دينا الآن.» ولا بد أن أعترف بأن دينا كانت مُصابة بتشنجٍ بشع، وبدت بالفعل مُرعبة للغاية. لقد قضت هذه المخلوقة المسكينة ساعةً كاملة تُحارب النوبة، وعندما عادت إلى وعيها وفتحت عينيها أغلقتهما ثانيةً عندما رأتني.

ومع ذلك، كان لا بد أن أؤدي واجبي، وهنا يكمن عذري لتعذيبي إياها.

«ماذا؟ أوه، أوه! ماذا قلت؟»

«ماذا عن الصندوق الكبير؟»

ردَّت بلهجةٍ ريفية: «لا أعرف.»

«أين كان؟»

«في القاعة.»

«ومن أين أتى؟»

«لا أعرف.»

«منذ متى كان هناك؟»

«منذ اليوم السابق.»

«من أحضره؟»

«لا أعرف.»

«هل كان رجلًا؟»

«لا.»

«من إذن؟»

«رجلان.»

«كيف أتيا؟»

«أتيا في عربةٍ ضخمة.»

«وهل جلبا الصندوق في العربة؟!»

قالت بلهجةٍ ريفية كنت قد فهمتها بالفعل: «أجل.»

«وتركا الصندوق في القاعة؟»

«أجل.»

«ثم ماذا حدث؟»

قالت بلهجةٍ فهمتها بالكاد: «ماذا؟»

«ماذا قالا؟»

«إن هذا الصندوق كان للمالك.»

«هل حمله كلاهما؟»

«أجل.»

«كيف؟»

«بحرصٍ.» [هنا بدأت تظهر عليها أعراض نوبة تشنج أخرى.]

«ما الذي حدث للصندوق الكبير؟»

«لا أعرف.»

«هل أتيا لأجله ثانيةً؟»

«لا أعرف.»

«هل هو موجودٌ هناك الآن؟»

«لا.»

«إذن هل أُرسلَ بعيدًا مرةً أخرى؟»

«أجل.»

«هل رأيتِه وهو يؤخَذ؟»

«لا.»

«إذن كيف تعلمين أنه ليس موجودًا هناك الآن؟»

«لا أعرف.»

«ولكنك تقولين إنه ليس بالقاعة، فكيف تعلمين ذلك؟»

«لقد أخبرتني السيدة كوانيان (كوينيون) أن رجالًا أتَوا وأخذوه.»

«متى كان ذلك؟»

«بعدما خلدتُ إلى الفراش.»

«هل كان موجودًا في الصباح التالي؟»

«ماذا؟»

«هل كان موجودًا في الصباح التالي عندما وجدوا الشاب ميتًا أمام الباب؟»

وهنا أُصيبت «ديني»، كما تُسميها والدتها، بالنوبة الثالثة، واضطررت إلى تركها في خِضم المراحل الأولى من نوبة التشنج؛ لأن والدها، الذي كان رجلًا صريحًا، طلب مني مغادرة منزله، وأنه لا يأبه إن كنتُ شرطية أم لا، وأنني إن لم أغادر فسيدفع بي إلى الخارج.

في ظل هذه الظروف، ارتأيتُ أنه ربما كان من الحكمة أن أرحل؛ ومن ثَم غادرت.

مكثت في ليتل بوكلينجتون في تلك الليلة على أمل اكتشاف المزيد من التفاصيل التي ربما تكون الفتاة قد باحت بها لرفيقاتها، لكن أملي هذا خاب بشدة. أولًا: لم يكن لدينا رفيقات. وثانيًا: كانت كل محاولات تشجيع الناس للكلام عن القضية تبوء بالفشل التام؛ لأن القضية كانت قد نُشرت في جريدة المقاطعة التي كانت تحظى بالانتشار في ليتل بوكلينجتون.

عند عودتي لترام، استقبلتني السيدة جرين بحفاوةٍ كبيرة؛ بالتأكيد لأنني، حسب ظنها، زُرتُ السيدة بلوتشلي، ولاحظتُ أن موقد قاعة الاستقبال كان مزخرفًا بزخرفةٍ جديدةٍ مصنوعة من ورقٍ ذي طابع جذَّاب.

شكرت السيدة جرين، وردًّا على استفساراتها، كنت سعيدة بقول إن السيدة بلوتشلي كانت على ما يُرام، باستثناء نزلة برد خفيفة. أجل، لقد قضيت الليلة هناك. ما الذي تناولته على العشاء عند السيدة بلوتشلي؟ حسنًا، لقد نسيت حقًّا. فقالت السيدة جرين: «يا إلهي، يا له من أمرٍ مؤسف!»

بعد رؤية دينا وعودتي بالقطار (وفي الواقع يمكنني دائمًا التفكير جيدًا أثناء السفر)، قلَّبتُ في رأسي كل المعلومات التي كنت قد استخرجتها بشقِّ الأنفُس من دينا يارتون فيما يخص الصندوق الكبير.

هل كان هذا الصندوق مرتبطًا بأي شكل من الأشكال بالوفاة أم لا؟

لقد كان كبيرًا؛ فقد حمله رجلان. وبحسب معلومات دينا فقد أُخذ من القاعة مرةً أخرى.

في جميع الأحوال، لا بد أن أعرف كُنْه هذا الصندوق.

كانت القضية برمَّتها لا تزال حديثة للغاية، فلم يكن قد مر على حدوثها أكثر من أسبوعين، حتى إنني كنت لا أزال متأكدة من أن جميع التفاصيل المتعلقة بذلك التاريخ الملحوظ ستبقى عالقة في الأذهان.

دفعت بالسيدة جرين للعمل؛ إذ لا يمكن لأي شخص أن يخدم هدفي أفضل منها.

«سيدة جرين، هل يمكنك اكتشاف ما إذا كانت عربة نقل غريبة تحتوي على صندوق ضخم قد شُوهدت في ترام يوم الاثنين، وقبل يوم من العثور على جثة السيد بيتلي الشاب؟»

رأيت السعادة ترتسم على وجه السيدة جرين. وبعد أن دفعت بها للعمل أصلحتُ هندامي على أفضل نحو، ومضيتُ إلى قاعة منزل آل بيتلي.

فتحت الخادمة الباب (ببطءٍ مُريب)، وأغلقته مرةً أخرى قبل أن تأخذ رسالتي وبطاقة هويتي إلى السيدة كوينيون. كانت الرسالة تتألف من عبارة تقول إنني جئت أسأل عن إحدى الخادمات.

مرَّت لحظاتٌ قليلة، ثم أدخلتني الخادمة وقدَّمتني إلى مدبرة المنزل.

وجدتها امرأةً هادئة المظهر، جميلة، وسمينة، ويرتسم على قسَمات وجهها الكثير من التصميم الهادئ. لم تكن قبيحة على الإطلاق.

كانت شديدة الهدوء.

جرت بيننا المحادثة الآتية. وسيرى القارئ أنني لم أُشِر ولو من بعيد إلى الهدف الحقيقي من زيارتي، ألا وهو تنفيذ استجواب يتعلق بالطريقة التي لقي بها السيد بيتلي الشاب حتفه. وإذا اشتكى القارئ من وجود الكثير من الزيف فيما سأقوله، فإنني أقول إنه بما أن فعل الشر هو نوع من الكذب الموجَّه إلى المجتمع، فللتغلب عليه لا بد أن يُواجهه المجتمع، من خلال موظفيه المَنوطين بذلك، بعملٍ كاذبٍ مُماثل.

إليكم محادثتنا:

«أنتِ السيدة كوينيون، أليس كذلك؟»

«بلى، كما يُطلَق عليَّ عادةً، ولكن لا يهم. أترغبين في رؤيتي؟»

«أجل؛ لقد أتيت بخصوص خادمة.»

«حقًّا؟ مَن؟»

«كنت أمرُّ عبر ترام، حيث سأبقى بعض الأيام، في طريقي من المدينة إلى يورك، واعتقدت أنه سيكون من الحكمة أن أستفسر بنفسي، وهو ما أجد أنه أفضل خطة فيما يتعلق بجميع الشئون المتعلقة بخدمي.»

«خطة ممتازة، ولكن بما أنك أتيتِ من المدينة، فلمَ لم تستعيني بمدبرة منزل من المدينة، حيث لا شك لديَّ في أنك تأخذين الشابَّة من منزل المدينة؟»

«هنا تكمن صعوبة الأمر. سآخذ الشابة، إذا كانت شخصيتها مناسبة، بدافع من الإحسان نوعًا ما. لم يسبق لها الذهاب إلى المدينة من قبل، وهنا يكمن الشك، ولكنك إن أعطيتني أي أمل بالعثور على الشابة ...»

«ما اسمها؟»

«دينا ... دينا ... اسمحي لي بالرجوع إلى دفتر جيبي للتأكد.»

قالت: «لا داعي لذلك.» وأظن أنها بدت شاحبةً، ولكن ربما كان شحوبها، كما اعتقدت في ذلك الوقت، راجعًا إلى حالة الحداد العميق التي كانت تمرُّ بها، «تقصدين دينا يارتون.»

«يارتون، أجل، هذا هو الاسم. هل تعتقدين أنها مناسبة؟»

«هذا يعتمد كثيرًا على ما هي مطلوبة لأجله.»

«مساعدة مربِّية أطفال.»

«لأسرتك؟»

«أوه، لا يا عزيزتي، لأختي.»

«في المدينة؟»

[سألت هذا السؤال بهدوءٍ شديد.]

«لا، خارج البلاد.»

«خارج البلاد؟» ولاحظت أنها قالت العبارة بقوةٍ أكبر بكثير من هدوئها السابق، ومع ذلك فقد كانت لا تزال واهنة.

أجبت قائلةً: «أجل، عائلة أختي على وشك مغادرة إنجلترا إلى إيطاليا، حيث سيبقون هناك لسنوات. هل تعتقدين أن هذه الفتاة مناسبة؟»

«حسنًا، أجل. صحيحٌ أنها ليست شديدة الذكاء، لكنها نظيفة للغاية وأمينة، ومُولَعة بالأطفال بشدة.»

خطر ببالي حينها أن دراية مدبرة منزل آل بيتلي، التي ليس لديها أطفال، فيما يتعلق بحب دينا للأطفال، لا بد أنها كانت محدودة للغاية.

أردفت السيدة كوينيون قائلةً: «أكثر ما أحببته في دينا هو صراحتها وجدارتها بالثقة. لا يمكن أن يوجد أدنى شك في رقَّتها مع الأطفال.»

«أتسمحين لي أن أسألك لمَ استغنيتِ عنها؟»

«لقد تركتني بمحض إرادتها. لقد مررنا هنا منذ أسبوعين أو ثلاثة بظروفٍ مُحزِنة جدًّا، وهو ما أثَّر فيها كثيرًا. رغِبَت في مغادرة المكان، وبالفعل كنت سعيدةً أنها عزمت على الرحيل.»

«هل تتمتع بصحةٍ جيدة؟»

«تتمتع بصحةٍ مقبولة جدًّا.»

لم تذكر أي شيء عن النوبات.

خطر ببالي أن السيدة كوينيون استساغت فكرة سفر دينا يارتون خارج البلاد.

«أعتقد أنني سأرشِّحها لأختي. لقد أخبرتني أنه لن يكون لديها أي اعتراض على السفر إلى الخارج.»

«أوه! هل رأيتِها؟»

«أجل، رأيتها أول من أمس وقبل مغادرتي إلى المدينة؛ ومن ثَم أتيت إلى هنا. سأرشِّح الفتاة، أتمنى لكِ صباحًا سعيدًا.»

«صباحك سعيد يا سيدتي، ولكن قبل أن تذهبي، هل تسمحين لي أن أسألكِ بما أنكِ من لندن، إذا كان بإمكانك أن ترشِّحي لي خادمة بالمدينة، أو شابَّة من مكانٍ بعيد عامةً. عندما تُغادر الأسرة لا أحتاج إلا إلى خادمةٍ واحدة هنا، والآن لا يمكنني الحصول على هذه الخادمة بعدما أصبحت سمعة المنزل علكةً يلوكها مروِّجو الفضائح بسبب الفاجعة التي سبق أن أشرتُ إليها. إن الشابَّة التي معي لا تُطاق؛ إنها لم تُمضِ هنا سوى أربعة أيام فقط، وأنا متأكدة تمامًا من أنها يجب ألا تبقى أكثر من ذلك.»

«حسنًا، أظن أنه يمكنني أن أوصي لكِ بشابَّةٍ قوية ومستعدة لإرضاء أرباب عملها، وهي لم تترك منزل شقيقتي إلا بسبب مسألة السفر هذه. هل ترغبين في أن أكتب إلى مدبرة منزل أختي وأرى ما يمكن فعله بهذا الخصوص؟»

أجابت السيدة كوينيون قائلةً: «سأكون ممتنَّة لكِ بشدة، ولكن أين يمكنني إرسال خطاب لكِ في حال اضطررت لمراسلتكِ؟»

«أوه! سأبقى في ترام أسبوعًا كاملًا. لقد تلقَّيت برقيةً تجعل رحلتي إلى الشمال بلا داعي، وبما أنني التقيت هنا في ترام بصديقة لإحدى صديقاتي المتواضعات، فأنا لست في عجلةٍ من أمري.»

«حقًّا! هل يمكنني أن أسأل من هي؟»

«السيدة جرين العجوز، إنها تعيش عند ناصية السوق، وصديقتها هي السيدة بلوتشلي من ستوكلي.»

«أوه، أشكرك، ولكنني لا أعرف أيًّا منهما.»

«قد أراكِ مرةً أخرى.»

«سأكون ممتنَّة وفي غاية السعادة.»

«صباحكِ سعيد.»

ردَّت التحية، وانتهت الزيارة.

وعند عودتي إلى منزل السيدة جرين العجوز، قلت لهذه المرأة النمَّامة بأكثر براءة ممكنة، كي أجعل فعلي وكلامي متَّسِقين قدر الإمكان؛ وهذا لأنك إن لم تُحِك كذبتك ببراعة في بلدةٍ ريفيةٍ صغيرة، فسينكشف أمرك في لمح البصر:

«حسنًا يا سيدة جرين، لقد اكتشفت أنك صديقة السيدة بلوتشلي من ستوكلي!»

قالت، وقد أخذتها المفاجأة: «أجل، إنني صديقتها، ليُباركِكِ الرب.»

«وأنا سعيدة بسماع ذلك؛ لأنه بما أنك صديقتها فأنتِ صديقتي يا سيدة جرين.»

وهنا أمسكتُ بيدها.

لا عجب في أنها بعد انتهاء مقابلتنا خرجت وهي ترتدي أفضل غطاء رأس لديها، مع أنه كان يوم الأربعاء فحسب. كنت متأكدة تمامًا أن ذلك كان بداعي الإجلال للسيدة بلوتشلي ولصديقتها، التي كانت قد ادَّعت أنها صديقتها، وما قالته عن أنها كانت ذاهبة لتناول الشاي معها.

لا بد أن أقول القليل عن مقابلتي مع السيدة جرين باستخدام تعبيراتها الخاصة.

«حسنًا يا سيدة جرين، هل سمعتِ أي شيء عن عربةٍ غير مُعتادة شُوهدت في ترام في اليوم السابق للعثور على السيد بيتلي الشاب ميتًا؟»

قالت السيدة جرين: «أجل يا سيدتي، ولكن، ليُباركِكِ الرب، ما سبب رغبتك في معرفة ذلك؟»

«كل ما في الأمر أنني أريد أن أعرف إن كانت عربة شقيق السيدة بلوتشلي أم لا.»

«يقولون إنها عربته. لقد استفسرتُ عن تلك العربة في جميع أنحاء القرية. ذهبت إلى جونز الخبَّاز، وويلموت، الذي تزوَّج من ماري سبرينترز، وهو ما كان مقبولًا، وهو والبقَّال لم يعرفا أي شيء عنها، كما ذهبت إلى الجزَّار بالشارع الأمامي، والجزَّار بالشارع الخلفي، وإلى السيدة ماكناب التي تعمل في عصر الملابس، ولكنها لا تعرف شيئًا أيضًا، ولا حتى توم هات بائع الحليب، ولكن يا سيدتي، عندما كنتُ أتحدَّث مع صديق أحد أصدقائي الذي لم أتحدَّث معه من قبل، كان تاجر القماش هو من أخبرني كل شيء عن العربة.»

«ماذا؟» هكذا قلت بشغفٍ شديد لا يليق بمحققة تعرف عملها جيدًا.

«كان وايت تاجر القماش يتجوَّل في نزهة، وكان ينظر حوله ثم استدار باتجاه مدخل منزل بيتلي، وعندئذٍ رأى عربةً تقترب، وخمَّن أنها تتَّجه إلى متجره، ولكن، ليُباركِكِ الرب، لم تكن تتَّجه إلى متجره على الإطلاق!»

«إلى أين كانت ذاهبة؟»

«حسنًا، لقد اتجهت العربة نحو منزل آل بيتلي مباشرةً، ولا بد أن كان هذا هو المكان الذي اتَّجهت إليه، وهذا هو كل شيء.»

ثم اتجهت السيدة جرين إلى عتبة الباب وهي تتحدث كالآلة دون توقُّف، وأظن أنها ارتدت غطاء رأسها الجديد على الفور؛ لأنها ارتدته قبل أن تخرج، وعندما أحضرت لي وجبتي من اللحم والبطاطس.

في هذه الأثناء، كنت أفكر في أمر الصندوق، إذا جاز لي التخيل، وأجمع الخيوط بعضها مع بعض.

كان واضحًا جدًّا لي أن صندوقًا قد نُقِل إلى القاعة؛ لأن شهادة الفتاة دينا والأدلة التي جمعتها السيدة جرين اجتمعت على دعم فرضية بذلك المعنى.

قالت الفتاة إن صندوقًا كبيرًا (لا بد أنه كان كبيرًا؛ نظرًا لأنه احتاج إلى رجلين لحمله) قد أُحضِرَ إلى قاعة المنزل في عربةٍ كبيرة في اليوم السابق للعثور على الجثة.

ومن المحتمل أن تاجر القماش قد رأى في ذلك اليوم عربةً كبيرةً تنعطف من الطريق الرئيس في اتجاه منزل بيتلي.

هل احتوت تلك العربة على الصندوق الذي أشارت إليه الفتاة دينا؟

إن كان الأمر كذلك، فهل كان له أي علاقة بموت الشاب بيتلي؟

وإن كان كذلك، فأين كان؟

وإن كان مخبَّأً، فمن الذي خبَّأه؟

كانت هذه هي الأسئلة التي اجتاحت عقلي، والتي سيرى القارئ أنها كانت مهمة بما فيه الكفاية ومُحرِجة بالقدر نفسه.

كان السؤال الأول الذي لا بد من إجابته هو:

هل كان للصندوق الكبير أي علاقة بهذا الأمر؟

أولًا: كتبت رسالتي إلى المقر الشُّرطي الرئيس، وبدأت السعي لزرع إحدى موظفاتنا كخادمة في منزل بيتلي، ثم سارعت لزيارة السيد وايت، تاجر الملابس.

كان ممن يُطلِق عليهم الناس «رجلًا مرحًا»، كان يشرب قدرًا كبيرًا من مشروب الجين، ويقبل العالم كما هو. كان رجلًا يُقابله العالم بقدرٍ كبير من الاحتفاء، ولكنه كان يجد العالم مكانًا يروي فيه العطشى للشراب المسكر ظمأهم؛ لذا كان جزء من البدلة التي يرتديها مخصصًا لوضع الشراب.

كان رجلًا يهرع إليه الناس وينحنون له بثقة.

حدَّثته قائلةً: «سيد وايت، أريد مظلَّة، وكذا أرغب في التحدث معك قليلًا.»

فقال: «بكل سرور يا سيدتي.» وكنت سأراهن، لأنه على الرغم من أنني امرأةٌ مُولَعة بالقليل من المراهنة بين الحين والآخر، كنت سأراهن أنه سيقول كلمة «سيدتي» قبل جملته الرابعة.

«ها هي المظلات التي لدينا يا سيدتي.»

«أشكرك. هل تتذكر رؤية عربة غريبة في ذلك اليوم، يوم الاثنين، الذي يسبق العثور على السيد بيتلي ... بيتلي ... ماذا كان اسمه؟ ميتًا خارج المنزل؟ إنني أذكر تلك الواقعة المروعة لأذكِّرك باليوم.»

«حسنًا، أجل أتذكَّر يا سيدتي. لقد سمعت عن هذا من ماري جرين.»

«أيَّ نوع من العربات كانت؟»

«حسنًا يا سيدتي، لقد كانت عربة صاحب عمل فاخرة مخصَّصة لنقل بضائع البيع بالجملة.»

«أوه، كالتي تُستخدم لنقل عينات الأقمشة من تاجر إلى آخر، وأحيانًا لنقل السلع المعروضة للبيع، أليس كذلك؟»

«أجل، هكذا كانت.»

[قال كلمة «سيدتي» قبل جملته الرابعة.]

«هل كانت عربةً كبيرة للغاية بحيث يمكن لرجل أن يقف فيها مُنتصبًا تقريبًا؟»

«رجل واحد! أوه يا عزيزتي!» كان من الرجال المعتادين على قول «يا عزيزتي» باستمرار، ولكنها كانت إساءة لهذه الكلمة. «بل نصف دزينة من الرجال، ومليئة بصناديق من العينات التي يمكنك أن تُخفي في كل واحد منها ... ما الأمر؟ هه؟ لماذا تسألين عن العربة؟ هه؟»

«أوه، أرجوك لا تسألني يا وايت.» هكذا قلت، وأنا أعلم أن الطريق لكسب ثقة مثل هذا الرجل هو بإظهار الأُلفة والحميمية. «لا تسألني عن هذا، ولكن أخبرني، كم كان عدد الرجال الذين كانوا يستقلُّون العربة؟»

«اثنين يا عزيزتي.»

«ماذا كان شكلهما؟»

«حسنًا، لم ألحظ ذلك.»

«هل تعرفهما، أو تعرف أيًّا منهما؟»

قال وايت: «ها! أرى ما ترمين إليه.» وأخشى أنني سمحت له أن يستنتج بأنه قد اكتشف سرًّا شخصيًّا. «لا، لا أعرف أيًّا منهما. إنهما غريبان عليَّ. بالطبع ظننت أنهما أتيا بعينات إلى متجري؛ لأنني تاجر القماش الوحيد بالقرية، ولكنهما لم يأتيا لي.»

«لقد ذهبا إلى منزل آل بيتلي كما أعتقد، أليس كذلك؟»

«أجل، لقد ظننت أنهما ذهبا في الاتجاه الخاطئ، وصِحت خلفهما، ولكن دون جدوى. أتمنى أن أستطيع وصفهما لكِ، يا عزيزتي، ولكن ليس بوسعي ذلك. ومع ذلك، أعتقد أنهما بديا سيدين محترمين. هل تعتقدين أن ذلك الوصف كافٍ؟»

«هل دخلا بعد ذلك إلى المدينة يا سيد وايت؟»

«أجل يا عزيزتي لقد فعلا، وراهنا في «الحصان الأبيض»، وبعد ذلك دُهشتُ للغاية أنهما لم يسألا عني، ثم … في الواقع يا عزيزتي، إن كنتِ ترغبين في معرفة كل شيء …»

«أوه، لا تُخفِ عني أي شيء، يا وايت.»

«حسنًا، إذن يا عزيزتي، توجَّهت نحوهما وهما يستعدَّان للمغادرة، وسألتهما إن كانا يبحثان عن شخصٍ يُدعى وايت، ثم …»

«أوه، أكمِلْ أرجوك.»

«حسنًا، قال لي أحدهما أن أذهب إلى مكان، لا يمكنني أن أكرِّره أمامكِ، يا عزيزتي؛ لذا بدا لي أنهما لم يكونا يبحثان عن شخصٍ يُدعى وايت.»

«وهل غادرا ترام من نفس الطريق الذي جاءا منه، يا سيد وايت؟»

«لا، لم يفعلا. لقد انطلقا بالعربة نحو الطرف الآخر من المدينة.»

«هل هذا ممكن؟ وأخبِرني يا سيد وايت، لو كانا يرغبان بالعودة إلى منزل آل بيتلي، هل كان بإمكانهما فعل ذلك بأي وسيلة أخرى غير العودة عبر القرية؟»

«لا، لا يمكنهم ذلك دون … دعيني أرى، يا عزيزتي … دون قطع ثلاثين ميلًا حول المروج، ولا بد لي من القول، ولا أقصد أي إساءة بذلك يا عزيزتي، إنهما لم يبدوَا من نوع الرجال المستعد لتكبُّد أي مشقة لا داعي لها، وإلا ما قالا لي أن أذهب إلى حيث طلبا مني في الواقع أن أذهب!»

«صحيح، ولكن ربما عادا وأنت لا تعرف أي شيء عن ذلك يا سيد وايت.»

«الأمر بسيط، يا عزيزتي. اذهبي إلى حارس البوابة واسأليه، فلم يمضِ على الأمر سوى ثلاثة أسابيع، وتوم يتذكر كل عربة تمرُّ على بوابته؛ إذ لا يمرُّ الكثير منها؛ لأن العمل مُصاب بركودٍ شديد. القليل من الشلنات سيجعل توم يتذكرها كلها جيدًا.»

«أوه، شكرًا لك، يا سيد وايت. أعتقد أنني سآخذ المظلَّة الخضراء، كم سعرها؟»

قال تاجر القماش وهو يتَّكئ على الطاولة خافضًا صوته: «انظري يا عزيزتي، إنني أعلم أن المظلَّة ما هي إلا حجة، وعلى الرغم من أن العمل راكد فأنا متأكد من أنني لا أرغب في بيعها لكِ، ما لم تكوني تريدينها بالفعل.» هكذا أضاف، وهو في صراع بين مصلحته كتاجر وأمانته كرجل.

قلت: «أشكرك، سآخذ الخضراء. هل تسمح لي بزيارتك مرةً أخرى؟»

«بكل سرور يا عزيزتي، كما تشائين. كلما زُرتِني أكثر كان أفضل. وانظري، إنكِ لستِ بحاجة إلى شراء المزيد من المظلات أو أي شيء آخر. كل ما تحتاجين إلى فعله هو زيارتي بطريقةٍ ودية، كما تعلمين. إنني أفهم كل شيء.»

شكرته وغادرت المتجر على الفور، وهو ما كنت أتُوق إليه. يؤسفني أن أقول إنني كنت بغيضة بما يكفي، ولم أزُره مرةً أخرى، ولكن من الناحية الأخرى قابلت وايت عدة مرات وفي أوقاتٍ غير مناسبة بالمرة.

وجدت أن ذاكرة توم حارس البوابة فيما يخص العربات يُضرَب بها المثل، وعندما ذهبت إليه تذكَّر العربة قبل أن أتمكَّن من شرح شكلها له.

أما عندما سألته إن كان متأكدًا من ذلك، هزَّ رأسه بالإيجاب، وقد أكَّد حسمه هذا شكوكي بعنف حتى إنني أصبحت واثقة من أنني على صواب.

ما لم يتلقَّ رشوة ليُبقي الأمر سرًّا.

ولكن هذا الشك كان سخيفًا؛ إذ هل يمكن رشوة بلدة بأكملها لتُبقي الأمر سرًّا؟

صرفت النظر عن هذا الشك فورًا. وفي الواقع من المزايا والنواقص الكبيرة لمهنتنا أننا لا بد أن نشكَّ بشدة في كل شيء. إن شعار «كل شخص بريء حتى تثبُت إدانته» هو شعارٌ يتمسك به معظم الناس الذين يحترمون أنفسهم، أما نحن المحققين فعلى العكس من ذلك؛ لأننا إن اعتنقنا هذه الفكرة فلن نجني ما يكفينا لشراء الملح والخبز، ولا حتى الخبز نفسه. يتعين علينا أن نؤمن أن كل شخص فاسد حتى نكتشف صدقه بعدما نكون قد فحصنا كل صنوف الأدلة اللازمة ودقَّقنا النظر فيها. وحتى عندما نفعل ذلك يؤسفني كثيرًا أن أقول إننا لا نكون متأكدين تمامًا من صدقه.

إنني أدرك أن هذه طريقةٌ سوداوية للغاية للنظر إلى المجتمع، ولكن الأناس الأكثر عقلانية في مهنتي يُواسون أنفسهم بمعرفة أن نهجنا ضروري (في ظل الظروف الحالية للمجتمع)؛ ومن ثَم تماشيًا مع القواعد السوداوية لهذا النظام، بغضِّ النظر عن مدى ما قد نشعر به نحو هذه القواعد من اشمئزاز، نحن نقوم بعملٍ جيد بحق لإخوتنا من البشر.

عند عودتي إلى المنزل بعد أن تركت حارس البوابة، الذي تأكَّدت منه أن العربة قد مرَّت ببوابته في الساعة الثامنة والنصف مساءً، قلَّبتُ كل معلوماتي الجديدة في عقلي.

لا بد أن الفتاة دينا قد رأت الصندوق في القاعة وهي ذاهبة للنوم. لنقُل إن هذا كان في التاسعة والنصف. وفي الخامسة والنصف صباحًا، أي وقت إطلاق الإنذار، كان الصندوق قد اختفى.

وهو ما استغرق ثماني ساعات.

غادرت الشاحنة ترام في الثامنة والنصف، وكي تعود إلى المنزل كان عليها أن تقطع ثلاثين ميلًا في الليل عبر أحد المروج (بالرجوع إلى روزنامتي، وجدت أنه لم يكن هناك قمر في تلك الليلة). لنقل إن شاحنةً ثقيلة تُسافر ليلًا لا يمكن أن تقطع أكثر من خمسة أميال في الساعة، وبترك ساعة من الراحة للحصان بعد قطع نصف مسافة الرحلة، نجد أن الأمر من شأنه أن يستغرق سبع ساعات لقطع تلك المسافة.

يقود هذا إلى أن أقرب وقت يمكن أن تصل فيه الشاحنة إلى منزل بيتلي هو في الساعة الثالثة والنصف، بافتراض عدم ظهور أي عوائق.

وهو ما يعني أنه لم يتبقَّ سوى ساعتين فقط قبل اكتشاف الجثة، وفي الواقع بينما كان الفجر يبزغ.

لقد كانت مثل هذه المغامرة غير معقولة حتى عند تخيلها.

أولًا: لماذا تُرِك الصندوق إذا كان سيُستعاد مرةً أخرى؟

ثانيًا: لماذا كان لا بد من استعادته في وقتٍ مبكر للغاية من الصباح مثل الساعة الثالثة والنصف؟

ومع ذلك فقد اختفى في الخامسة والنصف، وقد قالت السيدة كوينيون للفتاة (افترضتُ أن شهادة الفتاة صادقة) إن الصندوق قد أُخذ مرةً أخرى.

من استجلائي لهذه الحقائق، استنتجت؛ أولًا: أن الشاحنة التي أحضرت الصندوق لم تأخذه مرةً ثانية.

ثانيًا: أن السيدة كوينيون، لغرضٍ غير مفسَّر بعد، أرادت للفتاة أن تظن أن الصندوق قد أُخذ.

ثالثًا: أن الصندوق كان لا يزال في المنزل.

رابعًا: أنه بما أن السيدة كوينيون كانت قد ذكرت أن الصندوق اختفى، بينما كان لا يزال في المبنى، فقد كان لديها غرضٌ ما (مهم بالتأكيد) من التصريح بأنه قد أُخذ.

كان الوقت متأخرًا، ولكنني أردت أن أكمل عملي اليومي بقدر ما في وسعي.

كان يتعين عليَّ فعل أمرين.

أولًا: أن أُرسل «الوبر» الذي جمعته من الملابس إلى كيميائي مجهري. وثانيًا: إجراء بعض التحريات في النُّزل الذي كان عاملا العربة قد راهنا فيه، والتحقق من هُويتهما.

لذا، وضعت «الوبر» في صندوق من الصفيح، وأرسلته إلى الشخص الذي يتمتع بقدر كافٍ من الكفاءة لتسيير هذا النوع من التحقيقات لأجلي، وخرجت لأبعث برسالتي، ثم توجَّهت إلى الحانة، التي أعطتني السيدة جرين اسمها على الفور، وسألت عن صاحبة المنزل.

أظهر لي الاهتمام الذي أبدته في لحظةٍ أن ملاحظات السيدة جرين البسيطة وملاحظات السيد وايت الصريحة قد وصلت إلى هذا المكان.

وهنا اسمحوا لي أن أتوقَّف للحظة لأُظهر كيف يمكن للناس أن يخدعوا أنفسهم بشدة. لم أُدلِ بأي اعتراف صريح يربطني شخصيًّا بالشاحنة، ومع ذلك فقد نشأ بالفعل شعورٌ انفعالي للغاية لدى الناس لصالحي فيما يتعلق بتلك العربة.

وقد كنت في غاية السعادة بذلك؛ لأنه زوَّدني بدافع للبقاء في ترام، وهو ما كنت أريده بالضبط.

علاوةً على ذلك، فالحكاية التي أخبرت بها السيدة كوينيون عن بقائي في ترام لأنني وجدت صديقة لصديقي لن تؤذيني إن انتشرت (وهو ما لم يحدث، واستنتجت منه أن السيدة كوينيون لم تكن تثق بخادمة ترام التي كانت تعمل لديها في ذلك الوقت، وأن هذه الأخيرة لم تكن معتادة على استراق السمع)، حيث قد يفترض بي ظاهريًّا أن أخترع كذبةً تُغطي على مُعاناتي المفترضة. إليكم ملخَّصًا للحديث الذي أجريته مع صاحبة النزل.

«أوه! أنا أعلم، إنني سعيدة لرؤيتك. اجلسي أرجوكِ يا عزيزتي. اجلسي على هذا الكرسي، إنه الأسهل. وكيف حالك يا عزيزتي المسكينة؟»

اضطررت أن أجيب قائلةً: «لست في أحسن حال.»

«أوه! بالطبع.»

«جئت لأسأل، هل توقَّف شخصان يقودان عربة — عربة سوداء كبيرة يميزها لونٌ أزرق باهت (حصلت على هذا الوصف من حارس البوابة) — هنا في اليوم السابق لموت السيد — لقد نسيت الاسم — لموت الشاب الصغير؟»

«أجل يا عزيزتي المسكينة، سيدٌ طويل له شاربٌ أحمر اللون، والآخر أقصر وبدون شارب.»

«يا إلهي، هل لاحظت أي شيء غريب في الرجل الطويل القامة؟»

«حسنًا يا عزيزتي المسكينة، لقد لاحظت أنه بين الحين والآخر كانت شفته العليا ترتعش قليلًا، كما يفعل الكلاب وهم نائمون في بعض الأحيان.»

هنا تنهَّدتُ.

ثم تابعتُ قائلةً: «والآخر؟»

«أوه! كل ما بدا غريبًا فيه هو أنه كان ينطلق فجأةً مُدندنًا بأجزاء من ألحان؛ ألحانٍ تُشبه غناء الطيور وليس الغناء المسيحي الإنجليزي المعتاد، لم أستطع فهم كلماته، إن كان ثَمة كلمات.»

قلت لنفسي: «أجزاء من ألحان إيطالية!» وربطت هذا على الفور بدليل الرجل ذي القناع الأجنبي.

إذا كانا يسافران بغرض التجارة، فإن أحدهم كان بالتأكيد غير عادي؛ فالغناء الأوبرالي لا يكون عادةً من بين ميول التجار.

«هل كانا لطيفين؟»

ردَّت صاحبة المنزل بسرعة وبشكلٍ قاطع: «أوه! لقد كانا سيدين محترمين بكل ما تحمله الكلمة من معنًى، وقد قلت لزوجي إنهما ليسا مثل معظم المسافرين بغرض التجارة الذين يتوقَّفون هنا، فوافقني زوجي الرأي، وقال إن التجار يفضِّلون البيرة على الكرز، ويفضِّلون شرب الويسكي بعد العشاء على الاثنين!»

«هل شربا الخمر فقط؟»

«أجل، لا شيء سوى الكرز يا عزيزتي، وقد قالا لزوجي: «إن النبيذ جيد جدًّا. أيًّا كان ما تفعله، فأحضِره جافًّا.» فردَّ زوجي قائلًا: «سأفعل أيها السيدان».»

تلا ذلك المزيد من الكلام الذي لا أحتاج لإزعاج القارئ به، وهذا على الرغم من أنني استخلصت منه العديد من النقاط التي كانت ذات أهمية ثانوية.

لم يُسمح لي بمغادرة الفندق دون أن «أتناول» — ذاك هو الفعل الذي استخدمته صاحبة المنزل — ما يبعث على دفء وراحةٍ أقوى مما يجده المرء من مجرد تجاذب أطراف الحديث.

وكان الاستنتاج الأخير الذي استخلصته، قبل أن أخلد إلى النوم وأنا أشعر بالرضا في تلك الليلة، هو أن المسافرَين لم يكونا يسافران بغرض التجارة كما بدا، ولكنهما كانا رجلين يعيشان حياة السادة المحترمين.

والآن بعد أن أعددت قائمةً بالاستنتاجات التي تستند إلى أدلةٍ جيدة جدًّا، قبل أن أشرع في سرد سجل العمل في الأيام الآتية، لا بد أن ألخِّص هذه الاستنتاجات، إن جاز لي أن أستخدم هذه الكلمة.

فيما يأتي:

أولًا: أن المفتاح الذي عُثر عليه مع الجثة يفتح صندوقًا يحتوي على كنز.

ثانيًا: أن القناع الذي عُثر عليه مع الجثة كان مصنوعًا في بلدٍ أجنبي.

ثالثًا: أن المنديل الذي عُثر عليه مع الجثة كان يخص مؤخرًا سيدةً شابَّة تُدعى فريدريكا، وربما كان المتوفى مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا.

رابعًا: أن الظروف التي أحاطت بالمتوفى أظهرت أنه لم يقُم بأي رحلة صيد غير قانوني، ولا بأي محاولة اقتحام منزل، على الرغم من وجود القناع؛ لأنه لم توجد بحوزته أي أدوات اقتحام منازل.

خامسًا: أن الشابة بريئة من المشاركة في أي عمل شرير قد يكون المتوفى قد أقدم عليه (ومع ذلك، فقد استند هذا الاستنتاج فقط إلى اكتشاف الجديلة المطرزة حول زر معطف المتوفى. هذا الاستنتاج هو الأقل دعمًا بالأدلة من بين ما يقرب من دزينة من الاستنتاجات الأخرى).

سادسًا: أن صندوقًا كبيرًا كان قد نُقِل إلى القاعة في اليوم السابق لليوم الذي عُثِر فيه على المتوفى ميتًا خارج المنزل.

سابعًا: أن الصندوق لم يؤخذ مرةً أخرى في الشاحنة التي كان قد جُلِب بها إلى المنزل.

ثامنًا: أنه أيًّا كان ما يحتويه الصندوق فقد كان شيئًا ثقيلًا؛ لأنه احتاج لرجلين لنقله إلى داخل المنزل.

تاسعًا: أن السيدة كوينيون قد سعت، لبعض الأسباب غير المسوَّغة حتى الآن، لجعل الشاهدة دينا يارتون تعتقد أن الصندوق قد أُخذ، بينما كان الصندوق، في الواقع، لا يزال في المنزل.

عاشرًا: أنه بما أن السيدة كوينيون ذكرت أن الصندوق قد اختفى بينما كان لا يزال في المبنى، فقد كان لديها دافعٌ مهم لقول إنه قد نُقل من المنزل.

حادي عشر: أن راكبَي الشاحنة اللذين بدا أنهما مسافران بغرض التجارة لم يكونا تجارًا، بل كانا سيدين محترمين ومعتادين على حياة الرجال المحترمين.

إذن فما هو الاستنتاج الموجِز لكل هذه الاستنتاجات؟

حسنًا، إن أول وسيلة محتملة للتوصل إلى حل هذا اللغز هي العثور على الصندوق.

للبحث عن هذا الصندوق، كان من الضروري أن أحصل على حرية الدخول إلى منزل بيتلي، ونتيجةً لأكثر الصدف استثنائيةً، كانت السيدة كوينيون قد وضعت بنفسها هذه الفرصة في طريقي عندما طلبت مني أن أرشِّح لها خادمة من المدينة.

بالطبع، وبلا أدنى شك، كان طلبها هذا بالحصول على خادمةٍ غريبة عن المنطقة راجعًا إلى أن تلك الخادمة، كَوْنها غريبة عن المكان، لن تُبدي أي اهتمام يُذكَر بكارثة موت الشاب الذي شعر الجميع، كَوْنهم من نفس الحي، أنهم كانوا يعرفونه بطريقة أو بأخرى.

كان عليَّ الآن أن أنتظر يومين قبل أن أتمكَّن من التحرك في هذه المسألة، ومر هذان اليومان في انتظار وصول ضابطة الشرطة التي كان من المفترض أن تلعب دور الخادمة في المنزل، وفي قبولها في المنزل وزرعها هناك.

في صباح ذلك اليوم الثاني جاءني تقرير الكيميائي المجهري.

ذكر أن الوبر المُحال إليه للفحص كان يتكوَّن من مادتين مختلفتين؛ الأولى: أجزاء من الريش. والأخرى: ذرات زغب من مادة كتانية مصنوعة من مادةٍ سوداء وبيضاء، والتي بربطها بذرَّات الريش لا بد أن تكون زغب وسادة فراش.

لقد أقنعني هذا التقرير لبعض الوقت أن الملابس كانت مغطَّاة بهذه المادة نتيجةً لاستلقاء المتوفى للنوم بملابسه هذه في وقتٍ قريب جدًّا قبل العثور عليه ميتًا.

والآن حان الوقت للنظر في سؤال: «ماذا كان انطباعي فيما يتعلق بسلوك المتوفى قبل الموت مباشرةً؟»

كان انطباعي هو أنه كان على وشك ارتكاب بعض الأعمال غير القانونية، ولكنه لقي حتفه قبل أن يتمكن من تنفيذ نواياه.

نشأ هذا الانطباع من حقيقة أن القناع أظهر نية إتيان عمل سري، في حين أن الحالة السليمة للملابس تشير إلى أنه لم يسبق الموتَ الدموي أيُّ صراع؛ فالصراع، مهما كان قصيرًا،

يؤدي غالبًا إلى تلف الملابس بشكل أو بآخر، وهو ما سيُخبرك به أي جندي ذو خبرة (وربما سيخبرك بذلك مستغربًا سؤالك) أنه على الرغم من أنه قد يكون قد خرج من القتال دون خدش، إلا أن ملابسه كانت عبارة عن كتلةٍ ممزَّقة.

كان السؤال الذي يُعنى بشكلٍ رئيس بالجثة هو: من وضع الجثة في المكان الذي عُثر عليها فيه بين الساعة الثالثة (الوقت الذي توقَّف فيه المطر؛ إذ لا يمكن أن تكون الجثة قد وُضعت في المكان قبل ذلك الوقت؛ لأن الملابس، التي لم تلمس الأرض، كانت جافَّة) والخامسة والنصف صباحًا؟

هل أُحضِرَت الجثة من مسافةٍ بعيدة؟

هل أُحضِرَت من منطقةٍ قريبة؟

كانت الحجة المفندة لحمل الجثة مسافةً كبيرة، والتي تنطبق على جميع حالات نقل الجثث، أنه إذا كان من الخطر نقل الجثة مسافة ياردة واحدة، فإذن نقلها مائة ياردة سيكون أكثر خطورةً بمائة مرة.

وإذا ما سلَّمنا بنقل جثة بيتلي الشاب، في وضعٍ من شأنه أن يُثير الشكوك في الحال، فمن الواضح أن أولئك الذين أخذوا على عاتقهم هذا العبء أقدموا على مخاطرةٍ كبيرة.

ولكن هل كان ثَمة أي نفع واضح يُكافئ تلك المخاطرة؟

كلا، لم يكن يوجد أي نفع.

السبيل العقلاني الوحيد لتفسير التخلص من الجثة حيث عُثر عليها كان افتراض أن عدد أولئك الذين تورَّطوا في موته كان كافيًا لنقل جثته إلى مكانٍ يمكن التعرف عليه فيه والعناية به في الحال.

ولكن الاعتراض الذي يمكن إبداؤه على هذه الحجة هو أن المخاطرة كانت عظيمة لدرجة أن من شأن غريزة الإنسان الطبيعية المتمثلة في الحفاظ على نفسه أن تمنع الإقدام على مثل هذه المخاطرة. وسيتعمق هذا الانطباع بصورةٍ أعمق عندما نتذكَّر أنه كان من الممكن تأمين التعرف على الجثة بزج ورقة تحمل عنوانه في جيب ملابسه.

ثم عندما نتذكر أنه لا بد أن الفجر كان قد حل وقتَ نقل الجثة المفترض، تزيد ضآلة احتمال أن تكون الجثة قد نُقلت لمسافةٍ كبيرة.

ومن ثَم يصبح الاحتمال الأكبر أن يكون الشاب قد لقي حتفه بالقرب من المكان الذي وُجد فيه.

ثم يستتبع ذلك سؤال عن مدى قرب المكان الذي لقي فيه حتفه.

وعند النظر في هذه النقطة، يجب ألا ننسى أنه إذا كان من الخطير إحضار الجثة إلى المنزل، فسيكون من الخطير بنفس القدر نقلها من المنزل، بفرض أن جريمة القتل (إذا كانت كذلك) قد ارتُكبت داخل المنزل.

هل يمكن أن يكون هذا هو ما حدث؟

بلا أدنى شك، كان الشخصان الوحيدان اللذان كان معلومًا وجودهما في المنزل ليلة الوفاة هما السيدة كوينيون ودينا.

والآن ضيَّقنا المكان الذي ارتُكبت فيه جريمة القتل (كما سنسمِّيها) بحيث نقول إنها قد تمَّت داخل إطار المنزل. والآن، هل وقعت الجريمة في أي مكان آخر غير المنزل، ولكن بالقرب منه؟

كان المبنيان الوحيدان القريبان من المنزل، في نطاق ربع ميل، هما كوخ البستاني، وكوخ الحارس.

كان الحارس مريضًا في ذلك الوقت، وكان البستاني هو من اكتشف الجثة. كان اعتبار الحارس مُتورطًا في القضية غير وارد تمامًا. أما فيما يتعلق بالبستاني، وهو رجلٌ عجوز وخادمٌ قديم للأسرة (لأنه عمل في خدمة الأسرة منذ كان صبيًّا)، فيجب أن نتذكر أنه هو من اكتشف الجثة.

والآن، هل من المحتمل، إن كان مُتورطًا في الأمر، أن يفضح نفسه باكتشافه للجثة؟ إنه افتراضٌ يصعب للغاية قبوله.

عظيم، ثم عندما أعلن الطبيب في السادسة صباحًا أن الوفاة قد حدثت منذ ست إلى ثماني ساعات، وبما أن الجثة، بناءً على حالة الملابس التي كانت جافَّة، لم تتعرض ليلًا لهطول الأمطار، التي توقَّفت في الساعة الثالثة صباحًا، فقد كان من الواضح أنه إما أن جريمة القتل قد ارتُكبت داخل المنزل، أو أن الجثة أُبقيَت لعدة ساعات بعد الوفاة تحت سقف ما.

أين كان هذا السقف؟

باستثناء كوخ البستاني ومنزل الحارس، لم يكن يوجد مبنًى أقرب من ربع ميل؛ ومن ثَم إذا كانت الجثة قد نُقلت بعد الثالثة صباحًا إلى الموضع الذي عُثر عليها فيه، فمن الواضح أن المُتورطين في الأمر قد حملوها مسافة ثُمن ميل وقت الفجر أو بعده.

إن افتراض مثل هذا القدر من الشجاعة الأدبية لدى الأشرار كان افتراضًا بعيد الاحتمال، لا يمكن لمحقق، رجلًا كان أو امرأة، إلا أن ينظر إليه بحذر وتشكُّك.

ولكن ماذا عن افتراض أن الجثة نُقلت من القاعة، ووُضعت حيثما عُثر عليها؟

حتى الآن، كانت الأدلة الخارجية للقضية كلها تصبُّ في صالح هذه النظرية.

ولكن النظرية كانت مختلفةً تمامًا عن الخبرة الحياتية العادية.

أولًا: ما هو الدافع الظاهري الذي يمكن أن يكون لدى السيدة كوينيون لقتل الوريث الشاب؟ لا يبدو أنه يوجد أي دافع لذلك.

ما هو دافع الفتاة؟

لم تكن تتمتع بقوةٍ عقليةٍ كافية ليكون لديها دافعٌ قوي، بل إنني لا أظن أن هذه المخلوقة المسكينة قد تمكَّنت من تخيُّل فعل الشر يومًا ما.

يمكنني أن أضيف هنا أنني كنت أعتمد كثيرًا على ما قالته تلك الفتاة؛ لأنه كان متَّسقًا، ولأنها قالته وهي تحت وطأة ألم عقلي هائل، وأن أدلةً أخرى قد أثبتت العديد من التفاصيل التي ذكرتها.

استبعدتُ دينا يارتون من قائمة المشتبَه بهم.

ولكن بقبولي لأدلتها، ألزمتُ نفسي بالاعتقاد بأنه لم يكن يوجد أي شخص في منزل بيتلي ليلة وقوع الكارثة سوى دينا ومدبرة المنزل.

إذن كيف لي أن أدعم الافتراض بأن الشاب قد أمضى الليلة في المنزل ولقي حتفه فيه؟

هذا سهل للغاية.

نظرًا لأن امرأةً ضعيفة العقل مثل دينا لم تكن تعلم بوجود الوريث في منزل بيتلي، فإن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك، وإنما أن مدبرة المنزل كانت هي فقط من تعلم بوجوده.

ولكن هل كانت ثَمة حاجة لمثل هذه السرية؟

أجل.

اكتشفتُ هذه الحقيقة قبل وصول خادمة المدينة.

كانت أوامر السيدة كوينيون الصريحة تنصُّ على عدم السماح للوريث بالبقاء في المنزل أثناء وجود العائلة في المدينة.

ومن ثَم كان ذلك سببًا وجيهًا لإبقاء مدبرة المنزل أمر وجوده سرًّا عن خادمةٍ غبية لم يكن بوسعها أن تكتم سرًّا.

ولكنني قلت إنه يتعذر وجود دافع للقتل لدى مدبرة المنزل.

لنفترض إذن أن الوفاة كانت عرَضية (مع أنه من المؤكد أنه لا توجد أي ملابسات في الفاجعة تسوغ مثل هذا الافتراض)، وبفرض أن السيدة كوينيون هي الجانية، فما الهدف من إلقاء الجثة خارج المنزل؟

كان هذا التصرف بعيدًا كل البعد عن طبيعة المرأة، خاصةً عند وقوع حادث.

أعترف أنه عند هذه المرحلة من القضية (وحتى وقت وصول زميلتي) كنتُ قد أُحبطتُ تمامًا. كانت جميع الأدلة المادية تدعم وقوع جريمة قتل أو قتل عن غير عمد تحت سقف منزل آل بيتلي، بينما تعارض الكم الكبير من الأدلة المحتملة مع أي اعتقاد من هذا القبيل.

حتى هذا الوقت، لم أكن قد ربطت بأي حال من الأحوال بين الوفاة و«الصندوق الكبير»، على الرغم من أنني اعتبرت أن هذا الصندوق هو مفتاح كشف اللغز.

كان هذا الاعتبار نتيجةً لأحد قوانين المباحث العادية، ألا وهو:

في جميع القضايا محل المتابعة في مهنتنا، يكون الكذب فعلًا مُثيرًا للشبهة سواء كانت له علاقة بالمسألة قيد البحث أم لا، وسواء كان ظاهريًّا أو قاطعًا. يجب اتباع الكذبة حتى مصدرها، واستيضاح معناها وتحديد قيمتها من عدمها. دائمًا ما يكون احتمال أن تكون الكذبة جزءًا من مكيدة احتمالًا جيدًا.

لذا، بما أن السيدة كوينيون قد كذبت على الأرجح فيما يتعلق بأخذ الصندوق، فقد أصبح من الضروري اكتشاف كل شيء عن الأمر؛ ومن ثَم كانت توجيهاتي الأولى إلى مارثا — كما كان يُطلَق عليها دائمًا (إنها في أستراليا الآن وفي حالةٍ جيدة) في مكتبنا، وأشك فيما إذا كان اسم عائلتها معروفًا لأيٍّ منا — هي البحث عن صندوقٍ كبير.

«صندوق من أي نوع؟»

قلت: «لا أعرف.»

«حسنًا، سيكون ثَمة الكثير من الصناديق في منزلٍ كبير كهذا، هل هو صندوقٌ جديد؟»

«لا يمكنني أن أخمِّن، ولكن راقبي الصناديق، وأخبريني إن وجدتِ واحدًا يبدو جديدًا أكثر من بقية الصناديق.»

أومأت مارثا برأسها.

ولكن بحلول ميعاد أول مقابلة لنا بعد تقديمي لها في منزل بيتلي، وعندما أرسلتها السيدة كوينيون برسالة إلى أحد التجار، كنت قد علِمت من السيد وايت المهذَّب أن الصناديق التي يسافر بها تجار القماش دائمًا ما تكون مطلية باللون الأسود.

قدَّمت لمارثا هذه المعلومة، ولكنها في المقابل لم يكن لديها أي معلومات لي ذات أهمية. سمعتُ منها ما كنت قد استنتجته بالفعل، وهو أن السيدة كوينيون كانت امرأةً هادئة للغاية وتتمتع برباطة جأش، «لدرجة أن الأمر يتطلب صدمةً كبيرة أو اثنتين كي تفقد أعصابها»، على حد قول مارثا.

قالت مارثا: «تذكَّري ما سأقوله، إنها قادرة على مواجهة قاضٍ بنفس الهدوء الذي تُواجه به نفسها عندما تنظر إلى المرآة، ويمكنني أن أخبرك أنها تُواجه الأمور بهدوء؛ لأنني رأيتها تتصرف هكذا مرتين.»

كان رأي مارثا أن مدبرة المنزل كانت امرأةً صالحة، ولا بد لي من القول إنني لم أتمكَّن من افتراض أنها كانت مخطئة تمامًا؛ لأن الشكوك ضدها كانت ضعيفة للغاية.

زارتني في اليوم التالي لوصول مارثا، وشكرتني ببرود لا يتناسب مع الخدمة التي كنتُ قد قدَّمتها لها، وقالت إنها تعتقد أن الشابَّة ستفي بالغرض، وطلبت مني بكل احترام أن آتي إلى المنزل.

مرَّت ثلاثة أيام، وفي ذلك الوقت لم أسمع شيئًا ذا قيمة من مُساعِدتي التي اعتادت أن تضع تقاريرها المكتوبة مرتين يوميًّا في إحدى الأشجار الجوفاء التي كنا قد اخترناها.

في اليوم الرابع حصلت على دليلٍ جديد أسترشد به.

كانت السيدة لامب، زوجة صاحب الحانة — التي أبدت اهتمامًا بالغًا براحتي في الليلة التي كنت قد استفسرتُ فيها عن الرجلين اللذين كانا قد توقَّفا لإطعام جياد العربة في إسطبلاتهما ليلة موت بيتلي الشاب — عندما سمحت لي على مضض بتركها (لقد كانت امرأةً عاطفية بشدة، وقد زاد التوفر الشديد للمشروبات الكحولية لديها من ميولها العاطفية هذه كما أخشى)، طلبت مني بتعاطفٍ شديدٍ أن أعود لزيارتها؛ لأنني كنتُ قد قلت إن عليَّ البقاء في ترام، وأن آتي لتناول كوب من الشاي معها.

على الأرجح لم يكن سيتوجب عليَّ أبدًا تناول كوب الشاي اللذيذ هذا، لولا أنني عرفت من السيدة جرين أن بيتلي الشاب كان معتادًا على التدخين واحتساء الشراب في حانة لامب.

جعلتني تلك المعلومة أحزم أمري.

ذهبت لزيارة السيدة لامب بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، ويتعين عليَّ أن أقول إنني احتسيت كوبًا رائعًا من الشاي.

خلال تلك الضيافة الخفيفة وجَّهت دفة المحادثة نحو بيتلي الشاب؛ ومن ثَم سمعت عنه أمورًا كثيرة كانت في صالحه من وجهة نظر صاحبة حانة، ولكن ما قالته لم يُنبئ بالكثير عنه من ناحية وضعه ومكانته الاجتماعية.

«وهذا هو، يا عزيزتي، الكتاب نفسه الذي كان يجلس ليقرأه هنا في هذا المكان لمدة ساعة كاملة، و… أنا قادمة!»

هنا قاطعها صوتُ نقر عملتين من فئة نصف بنس على الطاولة المعدنية.

لم أفكر كثيرًا بشأن الكتاب؛ لأنه كان نسخةً من مطبوعةٍ عادية جدًّا كانت رائجة لسنواتٍ عديدة بين مُحبي الأدب الرخيص، وبدلًا من أن أفتح الكتاب تركته يسقط وينفتح، وليس لديَّ أدنى شك في أنني لم أُلقِ نظرة على الصفحة ولو لمرةٍ واحدة أثناء صوت اندفاع محرك آلة صب البيرة وعودة السيدة لامب.

قالت بتأثر: «يا إلهي!» فقد كانت من أكثر الأشخاص الذين قابلتهم عاطفيةً على الإطلاق. «هذا غريب جدًّا يا عزيزتي!»

سألتها: «ما الغريب في الأمر يا سيدة لامب؟»

«لقد فتحتِ الكتاب على قصته المفضَّلة!»

«قصة مَن المفضلة يا سيدة لامب؟»

«حسنًا، قصة الشاب المسكين العزيز جراهام بيتلي.»

لستُ بحاجة لقول إنني صِرتُ مهتمةً على الفور.

«أوه! هل كان يقرأ هذه القصة؟»

«كثيرًا. والغريب جدًّا في الأمر، يا عزيزتي، أنكِ كنتِ على وشك قراءتها أيضًا، مع أنه صحيحٌ أن هذا الكتاب دائمًا ما يُفتح عند نفس المكان، وأفترض أن ذلك بسبب أنه كان يقرؤه فيه في كثير من الأحيان حتى أصبح هذا الموضع مُهترئًا ... أنا قادمة!»

هنا ذهبت السيدة لامب مندفعةً بعيدًا مرةً أخرى، ولا حاجة لذكر أنني في تلك الأثناء ألقيتُ نظرةً على الصفحات أمامي.

وإن قلتُ إنني كنت قد أمسكت بزمام القضية قبل أن تنتهي السيدة لامب من الدق على محرك البيرة ومن حديثها الطويل مع الزبون، فأظن أنني سأصيب معظم قُرائي بالذهول.

ومع ذلك، لا يوجد شيءٌ غير عادي في الأمر.

إذا فحصتم معظم القضايا العظيمة المكتشفة والمسجَّلة، فستجدون أن حادثًا صغيرًا كان عمومًا هو مفتاح النجاح في حلها.

وكذلك الأمر في حالة الاكتشافات العظيمة. لقد اكتُشفت واحدةٌ من أعظم التحسينات في عملية طحن الدقيق، والتي حقَّق من خلالها صاحب براءة الاختراع عدة الآلاف من الجنيهات، من خلال رؤية مطحنة تنفخ بعض الدقيق من أحد الزوايا، وكما يعرف العالم كله أن السبب الذي دفع نيوتن العظيم لاكتشاف قوانين الكون العظيمة كان سقوط تفاحة.

لذلك، كثيرًا ما يحدث في هذه الأيام التي ينتشر فيها عددٌ لا يُحصى من الصحف أن تتسَّبب نظرة بمحض الصدفة لأحد الرجال في التعرف عليه من الأوصاف المنشورة لقاتل.

الصدفة!

في تاريخ الجريمة والكشف عنها تلعب الصدفة الدور الرئيس في الحبكة.

حسنًا، توجد صحيفة بالقرب مني وأنا أكتب، وفيها تقرير عن محاكمة بتهمة الشروع في القتل، حيث لم ينقذ المرأةَ التي أُطلِقَ عليها النار سوى تدخُّل قطعة من شفرة محراث كانت تُخبئها تحت شالها، وهي القطعة التي كانت قد سرقتها قبل دقائق قليلة فقط من اصطدام الرصاصة بالحديد!

حسنًا، مقارنةً بحالة الصدفة تلك، ماذا كانت الصدفة التي قابلتني عندما اكتشفت اللغز الذي كان يحيرني من خلال قراءة قصة قيل لي إن الشاب الميت كان يقرؤها كثيرًا؟

تروي الحكاية، التي تدور في شمال إنجلترا، أن بائعًا متجولًا كان قد ترك حزمة في أحد المنازل، وأن أحد الصِّبية رأى قمتها تتحرك صعودًا وهبوطًا؛ فافترضوا أن فيها رجلًا ينوي سرقة المنزل؛ فأطلق الصبي النار على الحزمة وقتل رجلًا.

أقول إنني قد تمكَّنتُ من كشف اللغز قبل أن تعود السيدة لامب إلى «عزيزتها المسكينة».

لقد انجذب الشاب إلى القصة، وتذكَّرها وصاغها لتحقيق هدف بعينه، فما هو؟

في لحظة، تذكَّرت هوس المالك بالفضة، وتذكَّرت كم كان بخيلًا مع الصبي؛ فواتَتني فكرة أن الشاب قد وضع على الأرجح خطةً لسرقة جزء من فضة والده.

صحيحٌ أنه كان من المفهوم أن الفضة كانت تُنقَل إلى المدينة مع العائلة، ولكن هل كان الأمر كذلك فعلًا؟

والآن انظروا إلى مدى حسن توافُق احتمالات القضية مع تلك النظرية.

كان الشاب مُغامرًا وجريئًا، كما أثبتت شجاراته المتعلقة بالصيد غير القانوني.

لقد ظل يُعاني الفقر.

كان يعرف أن والده يمتلك الفضة.

لم يُسمح له بالوجود في منزل بيتلي عندما كان الأب غائبًا.

كان قد قرأ قصةً تتطابق مع نظريتي.

ترك غرباء صندوقًا كبيرًا في المنزل.

عُثر على جثة الشاب في ملابسات جعلت السبيل الأكثر احتمالًا لوجود الجثة حيث عُثر عليها هو افتراض أنها قد نُقلت من المنزل نفسه.

يفسِّر ذلك المخطَّطَ وجودُ القناع.

وأخيرًا، المفتاح، وهو مفتاح يفتح، بلا أدنى شك، حاويةً مهمة؛ وهو افتراضٌ واضح جدًّا، بالنظر إلى شكل المفتاح.

في الواقع، يمكن من خلال هذا المفتاح تتبُّع فكرة وجود كنز في المنزل.

هل يمكن أن يكون هذا الكنز موجود حقًّا؟

قبل أن تتمنى السيدة لامب ليلةً سعيدة لزبونةٍ أتت لشراء نصف لتر من البيرة الصغيرة الحجم وجالونًا من الفضائح الأشد اختمارًا، كنت قد توصَّلت إلى استنتاجٍ مفاده أن الفضة قد تكون في المنزل.

فالرجال البخلاء معروفون بالشك والجشع. ماذا لو كانت توجد بعض الفضة التي تخص العائلة والتي لم تكن مطلوبة في منزل المدينة وتُركت في المنزل الريفي، والتي لم يُودِعها المالك في بنك المقاطعة؛ اعتمادًا منه على كَوْنها آمنةً استنادًا إلى الشائعة المعتادة بأنه يأخذها كلها معه إلى المدينة، وبسبب التشكك الطبيعي الذي ربما دفعه للاعتقاد بأن غرفته منيعة ضد السرقة أكثر من أي خزانة بنك؟

إذا قبِلنا بهذا الافتراض، فسيصبح دافع الشاب واضحًا.

إذا قبِلنا بوجود بيتلي الشاب في المنزل في ظل هذه الظروف، إذن سيتعين علينا تفسير وفاته.

هنا، بالطبع، كنت ما زلت على خطأ.

إن كانت السيدة كوينيون والفتاة هما فقط من كانتا موجودتين بالمنزل، وكانت الفتاة بريئة؛ إذن فمدبرة المنزل وحدها هي المذنبة.

مذنبة بماذا؟ بالقتل أم القتل الخطأ؟

هل نُفِّذت القصة، التي اعتاد الشاب بيتلي أن يقرأها، حتى النهاية؟

هل قُتل دون معرفة هويته؟

ليس لديَّ أدنى شك في أنه كان لا بد أن اكتشف الوضع الحقيقي للقضية بدون مساعدة السيدة لامب؛ لأنه حتى في ذلك المساء نفسه، وبعدما تركتُ السيدة لامب ووعدتها أن أضع في اعتباري مناشدتها لي العودة لزيارتها مرةً أخرى، لا بد أن معلومةً صغيرة أحضرتها لي رفيقتي هي التي وضعتني على المسار الصحيح.

يبدو أن السيدة كوينيون تلقَّت رسالة في ذلك الصباح أزعجتها كثيرًا. لقد غادرت بعد الإفطار مباشرةً، وتوجَّهت إلى القرية، وعادت بعد حواليَ ساعة. كانت شريكتي قد سرقت شيئًا من جيب مدبرة المنزل أثناء نومها بعد ظهر ذلك اليوم (للأسف! يتعين علينا نحن

رجال الشرطة أن نتحول أحيانًا إلى لصوص؛ لصالح المجتمع بالطبع)، وبينما كان من المفترض أن الخادمة الجديدة تضع جوارب السيدة كوينيون بترتيب ارتدائها، كانت قد حفظت عن ظهر قلب تلك الرسالة. كانت رسالةً من شخصٍ يُدعى جوزيف سبنسر وكان نصُّها كالآتي:

> عزيزتي مارجريت — بحق السماء ابحثي في كل مكان عن المفتاح ١٣. يوجد الكثير من المفاتيح بحيث إنني لم ألحظ فقدانه، وإذا اكتشف الحاكم ذلك فأنا هالك لا محالة. لا بد أن يكون في مكانٍ ما. لا يمكنني أن أعرف كيف خرج من الطوق. هذا كل شيء في الوقت الحاضر. حان وقت البريد.
>
> مع حبي الشديد، المخلص،
> جوزيف سبنسر

المفتاح ١٣!

لقد كان نفس الرقم الموجود على المفتاح الذي عُثر عليه مع الشاب الميت.

أُرسلَ خطابٌ في تلك الليلة إلى المدينة موجَّهًا إلى الشرطة لمعرفة هوية جوزيف سبنسر، وفيه العنوان المكتوب على الرسالة، والذي كان مطبوعًا.

ثم جاء دور السيدة جرين.

لا، لم تكن تعرف من كان يقطن في العنوان الذي ذكَرتُه. لنشكر السماء المبارَكة أنها لم تكن تعرف شيئًا عن لندن، كما قالت. ماذا! أين ذهبت السيدة كوينيون ذلك الصباح؟ إلى جو هيجينز. لماذا؟ حسنًا، لتُلقي نظرة على ملابس بيتلي الشاب ومتعلقاته. وما الذي كانت تريده منها؟ حسنًا، في الواقع، أرادت أن تأخذ ملابسه ومتعلقاته كلها معها إلى المنزل، ولكن جو هيجينز رفض.

بالطبع تكهَّنت الآن أن جوزيف سبنسر هو كبير الخدم.

وأظهرت معلوماتي الآتية من المدينة أنني كنت على حق.

والآن، بعدما صِرت متأكدة من إجراءاتي التمهيدية، علِمت أن عملي يقبع داخل جدران منزل بيتلي.

ولكن كيف يمكنني الوصول إليه؟

واحسرتاه! إن حيل المحققين لا حصر لها! يؤسفني أن أقول إن العديد من الإعلانات اللطيفة تُخفي وراءها يد الشرطة. على كل حال، كنت أعرف أن هذا هو حال الإعلان الذي نشرتُه.

ظهر الإعلان في العمود الثاني من جريدة «التايمز»، وإليكم نسخةً طِبق الأصل منه. بالمناسبة، كنت أتلقَّى جريدة «التايمز» يوميًّا، كما هو حال معظم المحققين، خلال الوقت الذي قضيته في ترام:

«مطلوب على وجه السرعة التواصلُ مع مارجريت كوينيون أو ورثتها. المعروف هو أنها كانت قد غادرت جنوب إنجلترا (عرفت من لهجتها أنها كانت من أهل الجنوب) في حوالَي عام ١٨٣٠ لتعمل مدبرة منزل لدى أخت لها بالتبنِّي متزوجة، تعيش في إحدى مقاطعات وسط إنجلترا (مصدر هذه المعلومات، وخاصةً التاريخ المذكور، هو السيدة جرين). العنوان …» وهنا وضعت عنوانَ مكتبِ محاميٍّ الإجراءات الذين أتعامل معهم، والذين كانوا قد تلقَّوا مني تعليمات بأن يُبقوا الأمر معلقًا كي تذهب السيدة كوينيون يوميًّا إلى المكتب لعدة أيام إلى أن تأتيهم رسالة مني.

يؤسفني كثيرًا أنه في حال ثبوت التهمة على السيدة كوينيون، وهو ما كنت أخشى أنه كان سيحدث، كنت أنوي أن يُلقى القبض عليها في مكتب السادة المحامين الذين كان يُفترَض أن تتوجَّه إليهم كي تعرف أمرًا في صالحها. وعلاوةً على ذلك، أنا متأكدة تمامًا من أنه قد قُبض على العديد من الأشخاص التعيسي الحظ الذين أغراهم وعد الحصول على شيءٍ يخدم مصالحهم أو منفعتهم الخاصة بالذهاب إلى أحد المكاتب.

فمثل هذا الزيف هو سمة هذا العالم المؤسف.

أقل القراء فطنةً سيدرك كيف استغللتُ هذا الإعلان عندما نُشِر.

لفتُّ انتباه السيدة جرين للخبر، ولا شك لديَّ في أنها نقلته لكل من قابلته، أو بالأحرى لحقت به، على مدى اليوم. وبالفعل قبل المساء (عندما شرَّفتني السيدة كوينيون بزيارتي بنفسها)، قيل بتأكيدٍ تام وقاطع إن السيدة كوينيون ورثت مبلغ اثنين وعشرين ألف جنيه استرليني كاملًا، ومنزل في شارع ديوت بميدان بلومزبري في لندن.

كان من الغريب، والطبيعي في الوقت نفسه، أن تسعى السيدة كوينيون لمقابلتي. لقد كنت الغريبة الوحيدة التي ربما كانت تعرفها في المنطقة، وكانت قد استغلَّت بالفعل، من وجهة نظرها، كَوْني غريبة عن الحي؛ لذلك (وبوضع الطبيعة البشرية بعين الاعتبار) لم أتعجب من أنها حاولت أن تستغلني مرةً ثانية. لم يعُد مُتبقيًا لديَّ مساحةٌ كبيرة، ولكن

بما أن المحادثة الآتية هي آخر محادثة أجريتها مع السيدة كوينيون، فربما يمكن التماس العذر لي لاقتباسها هنا. وأنا بالطبع أختصرها اختصارًا كبيرًا جدًّا. بعد التحية المعتادة، وبعد التأكيد أن مارثا كانت مناسبة للغاية، قالت:

«أودُّ أن أطلب منكِ صنيعًا.»

«بالطبع، ما هو؟»

«لقد تلقَّيتُ بعض الأخبار التي ستدفعني بالضرورة للابتعاد عن المنزل.»

قلت مبتسمةً: «أظن أنني أعرف هذه الأخبار.» ثم قلت لها إنني رأيت الإعلان بنفسي في الصباح.

أخشى أنني اتَّبعت هذه الطريقة دون تردُّد لأكسب ثقتها.

وقد نجحت في ذلك.

تابعت قائلةً: «في الواقع، وبما أنك عرفت الأخبار بنفسك، يمكنني أن أطلب منك دونَ تردُّدٍ الصنيع الذي أنا على وشك أن ...»

«وما هو؟»

«أرغب في الذهاب إلى المدينة، إلى لندن، لبضع ساعات لأتبيَّن هذه المسألة التي ذُكرت في الإعلان، ولكنني مترددةٌ في ترك مارثا وحدها في المنزل. لقد فوجئتِ، وربما تشعرين بالإهانة أنني أطلب مثل هذا الصنيع من غريبةٍ مثلك، ولكن الحقيقة هي أنني لا أرغب في أن يعرف أي شخص من الحي أنني غادرت المنزل. لن أغيب سوى أربع وعشرين ساعة فحسب. قد تصل الأخبار إلى مسامع السيد بيتلي، وأرغب في ألا يعرف أي شيء عنها. إنك ترين الموقف الذي وُضعتُ فيه. إذا أمكنك تشريفي يا سيدتي العزيزة فسأكون في غاية الامتنان. وبما أنك تُقيمين هنا، يبدو ... لي ...»

وهنا تراجعَت صامتةً.

يا لها من ماكرة! انظروا إلى أي مدًى نجحت في إخفاء دافعها الحقيقي، ألا وهو رغبتها في إبقاء من عرفوا بالفاجعة خارج المنزل لأنها كانت تخشى من فضولهم.

فوجئت! بالطبع فوجئت! في أفضل الأحوال كنت أتوقَّع أنه سيتوجَّب عليَّ الإفصاح عن هويتي للشخص الذي ستتركه في المكان إذا نجحت حيلة الإعلان، وهنا فمن خلال ما ظنَّت أنها فكرتها فقد كانت في الواقع تضع نفسها تحت رحمتي، بينما ظللت أنا متخفيةً في كل أفعالي المتعلقة بها؛ لأنني لست بحاجة للقول إنني لو كنتُ اضطررت إلى الكشف عن هويتي، ولو كنت فشلت، كانت كل المحاولات الأخرى المتأنِّية لنصب الشِّراك في هذه القضية ستنتهي، وكانت «الفريسة» ستتنبَّه، وكان ذلك سيكون هو نهاية المسألة برمَّتها.

بإيجاز للتفاصيل التي لا داعي لها، في نفس المساء في التاسعة مساءً، كنتُ حاضرةً في صالون مدبرة المنزل، وكانت هي قد انطلقت نحو أول محطة بعد ترام، والتي كانت ستَّتجه إليها سيرًا عبر الحقول لتجنُّب كل الشكوك.

لم تكن قد ابتعدت مائة ياردة عن المنزل، عندما تحرَّرتُ من قيودي، وانهمكت أنا ومارثا (بصفتنا محققتين) في العمل الجاد، في محاولة للعثور على الصندوق.

سرعان ما وجدنا مفاتيحها في إحدى سلال أدوات الحياكة ومغطَّاة بخفة بمنديل.

كان لا بد أن يعطيني هذا النمط من الإخفاء أمارةً.

ولكن هذا لم يحدث.

بحثنا عن هذا الصندوق لثلاث ساعات، من التاسعة مساءً وحتى منتصف الليل، ولكن محاولاتنا باءت بالفشل.

بحثنا في كل غرفة — وعرفنا من غياب الأتربة أن هذه الغُرف فُتِحت مؤخرًا — وكل ممر، وقبو، ورواق، وقاعة، لم نترك شيئًا.

ولكن لم نجد أي صندوق.

يؤسفني أننا بحثنا حتى في الأماكن التي لا يمكن أن يوضع فيها، مثل تحت الأسرَّة.

ولكننا وجدناه أخيرًا، حينئذٍ كانت ساعة البرج قد أعلنت الثانية عشرة إلا الربع تقريبًا.

كان في غرفة نومها؛ والأدهى من ذلك أنها جعلته طاولة التزيين الخاصة بها.

وليس لديَّ أدنى شك في أنني كنت سأفشل في ملاحظته لولا أن طريقة إخفائها له كانت معيبة.

من الواضح أنها أدركت قيمة ما يمكنني أن أسمِّيه بالـ «الإخفاء الجريء»، وهو ما يعني أنه أسلوب إخفاء لا يتخيل معه الشخص العادي الذي يبحث عن شيء، وجوده أبدًا في المكان الذي هو فيه.

على سبيل المثال، أكثر الأماكن أمانًا لإخفاء النقود الورقية في غرفة الجلوس هو الجزء السفلي من سلة بطاقات مفكَّكة. لن يتخيل أحدٌ البحث عنها في مثل هذا المكان.

يجسِّد كاتب القصص الغامضة العظيم، إدجار آلان بو، في إحدى قصصه هذا النمط من الإخفاء، حيث يجعل صاحب خطاب يضعه في حامل بطاقات فوق رف الموقد، عندما علِم أن منزله سيخضع للتفتيش الدقيق، وأن كل شبر منه سيُفتَّش بحثًا عن هذا الخطاب.

من الواضح أن السيدة كوينيون كانت على دراية بهذا الأسلوب من الإخفاء.

في الواقع، أعتقد أنني ما كانت سأجد الصندوق لولا أنها بالغت في إخفائها المفضوح؛ فقد استخدمت قصاصةً ورديةً زاهية، ووضعت فوقها قطعة قماش بيضاء مكشكشة كي تُكمل مظهر منضدة الزينة، بعد أن وضعت الصندوق على أحد الجانبين.

ومن ثَم جذبت الطاولة انتباهي في كل مرة كنت أمرُّ فيها وأراها. وبينما كانت مارثا تمرُّ بيني وبين الصندوق أزاحت الغطاء بتنورتها، فظهرت زاويةٌ سوداء.

وفي اللحظة التالية اكتُشف الصندوق.

ليس لديَّ أدنى شك، كَوْنها امرأةً راجحة العقل، في أنها لم تستطع تحمُّل وجود الصندوق بعيدًا عن أنظارها وهي تنتظر فرصة التخلص منه.

لقد أصبح واضحًا الآن أن تفسيري للقضية، الذي مفاده أن بيتلي الشاب كان يقلِّد أحداث القصة، كان صحيحًا.

كان الصندوق كبيرًا بما يكفي ليسع رجلًا مُستلقيًا وساقاه مرفوعتان بعض الشيء، كما كانت توجد مساحة للتقلب داخل الصندوق. وأخيرًا، كان يوجد حوالَي عشرين ثقبًا، بحجم عملة الكراون، في جميع أنحاء الصندوق، وكانت كلها مُخفاة بالقماش الأسود الخشن الذي كان الصندوق مُغطًّى به.

علاوةً على ذلك، كان الصندوق قابلًا للإغلاق من الداخل بواسطة مزلاج؛ ومن ثَم كان يمكن فتحه من الداخل بنفس الوسيلة.

إضافةً إلى ذلك، إن كان ينقصنا دليلٌ آخر، كانت توجد وسادة في أسفل الصندوق (من الواضح أنها مخصَّصة كي يستقرَّ الرأس عليها)، ومن أحد الثقوب خرج الريش واستقرَّ أسفل الصندوق، الذي كان مبطَّنًا بالكتان المخطَّط بالأبيض والأسود المستخدَم في صنع الوسائد، وقد قُطِع هذا القماش عند الثقوب بحيث لا يسدُّها.

لم أكن الآن في حيرة من أمري لفهم سبب وجود الوبر على معطف الشاب التعس.

وأخيرًا، كان يوجد أكثر الأدلة إدانةً على الإطلاق.

فقد كان ثَمة قَطعٌ مُتعرج في القماش الأسود فوق أحد الثقوب.

قلت لمارثا: «استلقِ في الصندوق يا مارثا، وضعي رأسك عند هذا الطرف.»

«حسنًا، أيًّا كان ...»

«لا، لا يا فتاة، افعلي كما أقول لكِ.»

وقد فعلت، وباستخدام عصا المظلة الموضوعة على منضدة الزينة، وجدت أنه بتمريرها عبر الثقب، وصلت نهايتها إلى الشرطية مارثا في نفس المنطقة التي جُرِح فيها بيتلي الشاب الجرح القاتل الذي أودى بحياته.

بالطبع كانت القضية واضحة الآن.

بعد أن ذهبت الشابة دينا إلى الفراش، لا بد أن الشكوك كانت تُساور مدبرة المنزل حول الصندوق، وأنها فحصته.

لقد عرف الشاب بلا أدنى شكٍّ الوقت الذي كانت تخلد فيه مدبرة المنزل إلى الفراش، وربما كان ينتظر أن تدقَّ ساعة البرج القديمة مُعلنةً الحادية عشرة مساءً قبل أن يُخاطر بالخروج، ليرتكب ماذا؟

بدا لي واضحًا، مع أخذ خطاب كبير الخدم بعين الاعتبار، أنه كان سيسرق صندوق الفضة رقم ثلاثة عشر، والذي استنتجتُ أنه كانت قد تُرِك بالمنزل، وهي حقيقة ربما كان من الطبيعي أن يكون الشاب على علم بها.

كانت الخطة بلا شك هي تأمين سرقته للفضة دون أن يعرف أي شخص، وأن يتسلَّل خارج المنزل بطريقةٍ ما يعرفها جيدًا منذ فترة طويلة، ثم يُقابل شركاءه، ويتشارك معهم الغنيمة، تاركًا الصندوق وراءه ليقصَّ حكاية السرقة وليُبرئ ساحة مدبرة المنزل.

أذهلني كم كان مخطَّطًا جيد التنفيذ، وكم كان بعيدًا كل البعد عن مؤامرات السرقة المعتادة.

ما الذي تسبَّب في فشل هذا المخطط؟

يمكنني بسهولةٍ أن أفهم أن امرأةً راجحة العقل مثل السيدة كوينيون كانت ستعتمد على نفسها بدلًا من اللجوء لأي مساعدة أخرى.

يمكنني أن أفهم أنها اكتشفت شيئًا؛ ربما كان تمتمةً خفيضة بالسباب من جانب الشاب، أو ربما سمعت صوت أنفاسه.

بعد ذلك، يمكنني أن أفترض أن تصرُّفها التالي، ما إن أدركت وجود خطر قريب منها، أنها استعدَّت لمواجهته.

بإمكاني تتبُّعها وهي تسير صامتةً وبرباطة جأش في المنزل، وتسأل نفسها عما يجب أن تفعله.

بإمكاني أن ألاحظ توصُّلها إلى استنتاجٍ مفاده أنه لا بد من وجود ثقوب في الصندوق يمكن للمُجرم أن يتنفَّس من خلالها، وأنها أدركت بسهولةٍ أنها لم تكن بحاجة إلى إقناع نفسها بأنها يحقُّ لها قتل شخص قد يكون موجودًا هناك ليقتلها.

ثم يمكنني تتبُّعها في مخيِّلتي وهي تبحث عن السلاح، وتتحسس كل مكان في الصندوق بحثًا عن ثقب.

تجد الثقب.

وتحدِّد الموضع الذي ستدفع السلاح من خلاله.

وبحركةٍ واحدة، ها هي جريمة القتل الخطأ قد ارتُكبت.

من المؤكَّد أن الشاب التعيس كان لديه الوقت لفتح الصندوق، ولا شك في أنه في تلك اللحظة تراجعت المرأة القوية، التي كانت لا تزال ممسكةً بمقبض السهم، أو السلك الحديدي — أو أيًّا ما تريدون أن تُطلِقوا عليه — ومن ثَم سحبت المقبض من الحديد المؤلم الجارح.

هل تعرَّف عليها الشاب؟ هل حاول فعل ذلك؟

من الهدوء الذي كان يكسو وجهه، كما وُصف في التحقيق، تخيَّلت أنه قد فعل، بعدما فتح الغطاء بالطبع، وأنه سقط للوراء، ومات في غضون لحظات قليلة.

ثم لا بد أن ما تبع ذلك هو اكتشافها المروع، وتلاه عزمها المروع بنفس القدر على إخفاء خطأ سيدها، والذي ربما كان ابن أختها.

وعلى إثر ذلك سحبت جثة الشاب إلى الخارج في الصباح البارد، بينما كانت غيوم الفجر تملأ السماء، والطيور تستيقظ مُحدِثةً ضجيجًا.

لا شك في أنه لو كان محققٌ ذكي قد كُلِّف بالمسألة في الحال، ما كانت السيدة كوينيون ستفلت من اكتشاف أمرها.

فحتى ذلك الحين، كانت قد تجنَّبت اكتشافها.

ويمكنني بسهولةٍ أن أفهم أن امرأةً حادَّة العقل مثلها لن تشعر بأي تأنيب ضمير، وبالقليل من الحزن لما فعلته. لن تشعر بتأنيب الضمير لأن الفعل كان حادثًا، وبالقليل من الحزن؛ لأنه لا بد أنها شعرت بأنها قد أنقذت الشاب من حياةٍ بائسة؛ فالابن الذي، وهو في العشرين من عمره، يسرق أباه، مهما كان سيئًا، يندر أن يكون رجلًا أمينًا عندما يصل لعامه الأربعين، هذا إذا عاش حتى هذا العمر.

ولكن على الرغم من أنني قد توصَّلت إلى هذا الاكتشاف، لم أستطع فعل أي شيء حتى حينئذٍ ضد مدبرة المنزل، التي كان من واجبي بالطبع أن أُلقي القبض عليها، إذا تمكَّنت من إقناع نفسي بأنها ارتكبت جريمة قتل خطأ. لن أخضع لأي شعور بالرغبة في حجب المسألة عن الأسرة؛ وهو الدافع غير المباشر الذي كان يحرِّك السيدة كوينيون؛ لأنه، كَوْنها حادَّة العقل، بدا لي أنها ما كانت ستتردَّد في الاعتراف بارتكاب الفعل الذي ارتكبته، لو كان السارق — كما يمكن أن أصف الشاب — مجرمًا عاديًّا وغير معروف لها.

لا، لم يكن للصندوق أي صلة تربطه بموت الشاب؛ وهذا لأنه لم تظهر عليه أي علامات دامغة على ارتباطه بتلك الفاجعة.

حتى حينئذٍ، كيف كان يمكن الربط بينه وبين جريمة القتل (بخلاف أدلتي الظرفية التي لم يكن يعرفها أي أحد سواي)؟

كان الدليل الوحيد هو الدليل الصغير الذي قدَّمته الفتاة، التي ربما تُقسِم أو لا على أن الصندوق قد أُحضِرَ إلى المنزل في اليوم السابق، وأمام كلام مدبرة المنزل التي قالت إنه أُخذ مرةً أخرى، وهو ظرفٌ مشبوه بالتأكيد، ولكن بدون أدلة داعمة، كان دليلًا ذا قيمة ضئيلة أو معدومة في الواقع.

أما القطع الخشن في ثقب التهوية، فلم يكن ذا قيمة تُذكَر في غياب وجود أي بقع دماء.

لا بد أن يكون لديَّ دليل إثبات، ومن الأفضل أن يكون هذا الدليل هو اكتشاف مقبض السلاح الذي تسبَّب في الوفاة، أو سلاح مُشابه.

كان هذا هو عملي حينئذٍ بعدما عثرت على الصندوق.

«هل يوجد في المنزل أي مخزن أسلحة يا مارثا؟»

«لا، ولكن يوجد الكثير من الأسلحة في المكتبة.»

لم نكن قد بحثنا في المكتبة عن الصندوق؛ لأنني كنت قد أخذت بتأكيد مارثا عدم وجود صناديق هناك.

عندما وصلنا إلى المكتبة، قلت على الفور: «يا له من مكانٍ رطب!»

وعندما قلت ذلك، لاحظت وجود نوافذ على جانبَي الغرفة، وأن نهاية الغرفة كانت دائريةً.

قالت مارثا: «قد تكون كذلك؛ لأنه يوجد ماء في كل مكان حولها؛ نافورة أو بركة، بداخلها سمكة ذهبية.» ثم تابعت مارثا، التي كانت حدة ذكائها تفوق تعليمها: «إن المكتبة تبرز خارج المنزل.»

بين كل زوج من أرفف الكتب، كان مثبَّتًا حامل أسلحة أنيق وخلَّاب ويأسر العين.

كانت توجد أسلحةٌ حديثة، ودروعٌ قديمة، وأسلحةٌ أجنبية من أنواعٍ عدة، لكنني لم أرَ سهامًا، وعلى الرغم من أن الشمعدان، الذي كان لا يزال يحمل بعض الشموع الصفراء القديمة، كان يُنير المكان أثناء انهماكي في البحث المحموم.

لم أعثر على أي سهم.

لكن ملاكي الحارس، إذا كان يوجد مثل هذه المخلوقات الطيبة، لازمني في تلك الليلة، وبمحض صدفة غريبة، ولكنها لا تُداني في روعتها صدفة ذلك الحادث الذي أنقذت فيه قطعةٌ من الحديد المسروق المرأة من أن تُصيبها رصاصةٌ قاتلة، كشفتُ النقاب عن مصدر السلاح الذي استخدمته كوينيون.

كنا نبحث بين حوامل الأسلحة لبضع دقائق، عندما صِحت فجأةً قائلةً:

«صه! ما الذي تفعلينه؟»

إذ كانت زميلتي أوقعت طبلةً كبيرة من فوق معلاقها، والتي كنت قد لاحظت أنها كانت ذات شكل مميز في نهاية مجموعة من الأعلام والصناج والحراب.

قالت: «أنا آسفة جدًّا.» بينما كنت أهرع لالتقاط الطبلة، التي كان صدى صوتها لا يزال يتردَّد في المكان، بالحذر الذي يُلازم المحققين حتى وإن كان عديم النفع، وعندئذٍ …

رأيت طرف سلاح، نسخة طِبق الأصل من السلاح الذي استُخدم لقتل بيتلي الشاب، مخترقًا الطبلة ومعلقًا فيها من أسلاكه الشائكة.

لو كان شبح قد ظهر أمامي، لو كان ثَمة شيء من هذا القبيل، لما أُصبتَ بمثل هذا الذهول.

مزَّقتُ الطبلة على الفور، فظهر سهمٌ حديدي بمقبضٍ خشبي يبلغ طوله حوالَي ثماني عشرة بوصة، وكان هذا المقبض مغطًّى بقِطعٍ مبهرجة من الخيوط الفضية اللامعة والورق الملوَّن.

[يمكنني أن أقول هنا ما اكتشفته في النهاية — وعلى الرغم من الخطر الذي كنا نُواجهه، فقد احتفظت بغنيمتي وخرجت بها من المعركة سالمةً — وهو أن هذا الحديد الشائك كان واحدًا من الأدوات التي يستخدمها مصارعو الثيران في مصارعة الثيران الإسبانية لإثارة أعصاب الثور. تتسبَّب الأشواك في التصاق السهام باللحم والجلد. أما الآن فيمكن بسهولة فهم سبب تزيين المقبض. لا شك في أن السهم الذي استخدمته كوينيون والسهم الذي عثرت أنا عليه كانا زوجًا من التُّحف الغريبة من ضمن أسلحة أخرى. استخدمت مدبرة المنزل السلاح الآخر لأنه كان يُناسب غرضها على نحوٍ أفضل، أما الآخر (الذي وجدته) فقد كان بلا شكٍّ يستخدمه أحد مصارعي الثيران الهواة في وقتٍ ما مضى، وربما استخدمه الشاب البائس المتوفى نفسه، واستخدم الطبلة كثورٍ وهمي، فبقي السهم بداخلها حتى ظهر مرةً أخرى دليلًا ضد مدبرة المنزل المذنبة والبريئة في الوقت نفسه.]

ما إن أمسكت بغنيمتي حتى قالت مارثا: «ما رائحة الاحتراق هذه!»

صرخت قائلةً: «يا إلهي! لقد أضرمنا النار في المنزل!»

كان المنزل يحترق، ولكننا لم نكن من فعل ذلك.

ركضنا نحو الباب.

ولكننا كنا حبيستين!

لم أعرف أبدًا ما الذي جعل السيدة كوينيون تعود مرةً أخرى؛ لأنني لم أرَها أو أسمع عنها أي شيء مرةً أخرى مطلقًا. أظن أن حركة القطار نشطت تفكيرها (كما يحدث معي)، فساورتها الشكوك؛ مما دفعها للنزول في المحطة التي تبعد عن ترام ببضعة أميال، واستقلَّت عربةً عائدة إلى منزل آل بيتلي.

ومع ذلك، فكل هذا محض تخمين.

ولكن إن لم تكن هي، فمن الذي حبسنا؟ لا يمكن أن نكون نحن من فعلنا ذلك.

كنا حبيستين، ولقد نسبت هذا الفعل لها، على الرغم من أنني لم أعرف أبدًا كيف دخلت المنزل.

كان المنزل يحترق، وكنا محاطتين بالمياه.

هذه الحكاية هي قصة «السلاح المجهول»؛ لذلك لا يمكنني منطقيًّا أن أخوض هنا في تقديم شرح كامل لكيفية هروبنا. يكفي حفظًا لكرامتنا كمحققتين أن أقول إننا لم نفقد رباطة جأشنا ولا قدرتنا على التفكير، وأننا، بمساعدة طاولات المكتبة والكراسي والكتب الكبيرة وما إلى ذلك، ثبتنا أحد طرفَي سُلَّم المكتبة على أحد جانبَي البركة الضيقة، بينما وصل الطرف الآخر إلى المياه الضحلة.

بعدما كشفت الستار عن تفاصيل قصة «السلاح المجهول» هنا تنتهي قصتي، ولكن قد يتخيَّل القارئ أن عملي منقوص إذا لم أُضِف بضع كلمات أخرى.

ليس لديَّ أدنى شك في أن كوينيون عادت، وأن عقلها الحاد توصَّل في غضون لحظات قليلة إلى استنتاجٍ مفاده أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ سمعة سيدها هي بحرق الصندوق عن طريق إضرامِ النار في المنزل.

علِمت أن عائلة آل بيتلي كانت عائلةً قديمة، تتبع مفاهيم إسبانية تقريبًا عن شرف العائلة.

لقد أتمَّت عملها على أكمل وجه.

أعترف أنها انتصرت عليَّ. وليس هذا فحسب، كان يمكن علاوةً على ذلك أن تحرقني وتحوِّلني إلى رماد، وأُقسِم إنني أعتقد أنها ما كانت ستحزن لو أنها حقَّقت تلك الغاية.

من ناحيتي، لم أُواصل العمل في هذه المسألة أكثر من ذلك.

في التحقيق، ظهرتُ بصفتي السيدة التي كانت تعتني بالمنزل بينما ذهبت السيدة كوينيون للاهتمام بإرثها. ولا يُساورني شك في أن اختفاءها كان مرتبطًا ارتباطًا تامًّا بإعلاني الذي نشرته في جريدة «التايمز».

لست بحاجة إلى قول إنني لو كنت قد وجدت السيدة كوينيون، كنت سأبذل قصارى جهدي لجعلها ترتعد خوفًا.

لم يعُد لديَّ سوى حقيقةٍ واحدة أخرى أريد أن أسردها، وهي حقيقةٌ مهمة، ألا وهي:

أمر المالك بيتلي بفحص الأنقاض بعناية، واستُخرجت من الأنقاض ألفا أوقية من الذهب والفضة، كانت قد ذابت بالطبع حتى صارت عديمة الشكل.

من هذه الحقيقة، يتضح أن المفتاح رقم ثلاثة عشر، الذي عُثر عليه مع الصبي المسكين، التعيس، السيئ التربية، المُهمَل، كان مفتاح الكنز الذي انتُشل بعد ذلك من تحت الأنقاض، وربما تُساوي قيمة الذهب والفضة أربعة آلاف جنيه استرليني.

لقد سرق الشاب المفتاح من كبير الخدم من دون شك، وانخرط في مؤامرة مع شركائه، وأسفرت كل التفاصيل مجتمعةً عن موته وإحراق منزل بيتلي على بكرة أبيه، وهو أحد أقدم وأجمل الأماكن — ولا بد من الاعتراف بأنه أكثرها رطوبة وكآبة أيضًا — في مقاطعات وسط إنجلترا.

وفي الواقع يمكنني أن أضيف أنني اكتشفت هوية «الرجل النبيل الطويل ذي الشارب الأحمر والوجه المرتعش»، كما اكتشفت هوية الرجل القصير القامة الذي بلا شارب على الإطلاق، وأخيرًا رأيت الشابة التي تُدعى فريدريكا (والتي كانت جميلة جدًّا)، ولا أشك في أن الشاب التعس قد فعل ما فعله من أجلها.

أما أنا، فلم أواصل العمل في القضية أكثر من ذلك.

لم تكن لديَّ رغبة في ذلك، وحتى لو كانت لديَّ رغبة في المواصلة، أشك في أنني كنت سأتوصَّل إلى أي أدلة إضافية إلا ما كان سيكفي لجعلي مثارًا للسخرية.

لقد تركت القضية على ما هي عليه.

اللغز

[كثيرًا ما يحدث أن تفشل الشرطة فشلًا فاضحًا، ولكن خلال تجربتي كلها لم تقع تحت يدي قط قضيةٌ مُحكَمة مثل القضية الآتية. لكَوْن الحادثة غريبة، فقد صغتها بالمثل في صورةٍ غريبة، وربما حتى مبالَغ فيها. سيتبيَّن بسرعةٍ أنها كانت قضيةً يمكن فيها بسهولة إرباك الشرطة تمامًا، كما حدث. كان الرقيب الذي كُلِّف بحل اللغز، ولا يزال، رجلًا ذكيًّا وفطنًا. لقد اعترف، في أكثر لحظاته ودًّا، أنه لم تُحيره أي قضية أخرى بقدر ما حيَّرته هذه، التي سأشرع الآن في سردها بالشكل المقبول لحكاية.]

«نيلي»، هكذا قال بانج العجوز (الذي كان كهلًا أصهب شديد المكابرة، وشديد الغرور، حتى إن إيمانه بنفسه كان إيمانًا راسخًا لا يتغير، تمامًا كجوقة «أوبرا كوفنت جاردن»)، «لديَّ هدية لكِ يا نيلي.»

قالت نيلي: «حقًّا؟ ما هي؟» كانت واحدة من أولئك الفتيات الذكيات الصافيات الذهن، اللواتي تشعر، بطريقة أو بأخرى، أنهن لن ينزلن أبدًا لتناول الإفطار وهن يضعن بكرات الشعر وعابسات. ستشعر أنها لو كانت زوجتك، فلن تنقض عليك أبدًا بمجرد دخولك المنزل شاكيةً أنها قد رأت في مرآتها شبح ماري جين يحدِّق فيها بوقاحة وراء ظهرها، أو أنها قد لاحظت بوضوحٍ الخبَّاز وهو يقبل الطاهية أسفل دَرَج فناء الدار. كانت، في الواقع، واحدة من أولئك النساء اللاتي يقبلن المساعدة التي تقدَّم إليهن، ويبتسمن في وجه أزواجهن، بل أحيانًا يمسكن بأيديهم بمرح ويقدنهم خلفهن.

قال بانج العجوز: «لديَّ هدية لكِ يا نيلي.»

قالت نيلي: «حقًّا؟ ما هي؟»

«زوج.»

ألقت الآنسة نيلي بنفسها على والدها، الذي، عند قدومها إلى هذا العالم المبارَك، علا قدره في نظر أصدقائه وفي نظر نفسه أكثر، وقالت: «أوه! هل تحدَّث جاك معك يا أبي؟»

«جاك؟ اسمه حزقيا.»

سألت نيلي: «حزقيا ماذا؟»

رد بانج بطريقةٍ جافَّة قائلًا: «لا، حزقيا ترانك.»

لو كانت شابةً عادية لفقدت الوعي، لكنها صُعِقت فحسب.

«إنه أصلع تمامًا يا أبي!»

«لكنه يمتلك سبعة آلاف جنيه استرليني سندات حكومية بفائدة ثلاثة في المائة، و...»

«ولكن ما علاقة هذا بي؟»

أردف بانج العجوز بصوتٍ مرتفع: «وسبعة عشر سهمًا ممتازًا في فندق «ذا جريت نورثرن»".»

«ولكنني ليس لديَّ أدنى تفضيل له!»

«هذا لا علاقة له بالمسألة. إنه يمتلك سبعة آلاف جنيه استرليني سندات حكومية بفائدة ثلاثة في المائة، وسبعة عشر ...»

«هذا هراء يا أبي، لا أريد سماع أي شيء عن هذا، أقصد عنه.»

سأل بانج العجوز: «هل تعرفين من أكون؟»

«أجل، أعرفك، أنت والدي يا أبي.»

«هل لكِ أن تصمتي يا نيلي؟»

«لا يا أبي، لن أفعل.»

«أنا والدكِ.»

«وأنا في الثامنة عشرة من عمري. إنني فتاةٌ صبورة، ولكنني لا أطيق السيد حزقيا ترانك.»

كرَّر بانج العجوز قائلًا: «سبعة آلاف جنيه استرليني سندات حكومية بفائدة ثلاثة في المائة، وسبعة عشر ...»

أكملت نيلي قائلةً: «سهمًا ممتازًا في فندق «ذا جريت نورثرن». أظن أنني أعرف ذلك فعلًا. سأخبر جاك ...»

قال بانج العجوز وهو على وشك الانفجار: «جاك من؟»

«جاك ويلسون. سأخبر جاك بكل شيء، وعندئذٍ سأُشفق على السيد ترانك وعلى سنداته الممتازة أيضًا.»

«ألن تقبلي هديتي؟»

«نعم.»

«إذن سأحبسكِ.»

«إذن سأكون أنا التي سأقدِّم لك هدية، يا أبي.»

«ماذا تقصدين؟»

«أرفض أن أقول يا أبي.»

قال بانج العجوز وهو يدفعها على الدرج: «إذن تعالَي معي.» حتى وصلا إلى غرفتها الأمامية الصغيرة بالطابق الثاني، وحبسها هناك.

«لا تنسَ عشائي يا أبي.»

«هل ستكون هديتي معكِ؟»

«لا.»

«إذن ستبقين كما أنتِ.»

«حسنًا، إذن ستتناول أنت عشائي.»

ربما يصعب تصديق أن السيدة بانج قد حضرت هذه المقابلة، لكنها فعلت. كانت تقف في إحدى الزوايا وهي تضرب يديها إحداهما بالأخرى كما يضرب السلطعون بكلاباته مطقطقًا، أو ربما بالأحرى، كأسماك المفلطح المبتلة والمفعمة بالنشاط. لم تقل شيئًا، باستثناء العبارة المقتضبة: «إن بانج هو بانج، وليُخلصنا الرب.» لا يعني ذلك أن السيدة بانج أرادت أن يموت زوجها الطيب قبل أوانه، ولكن لدينا كلنا طرق تعبيرنا الصغيرة، وقد كانت هذه هي طريقة السيدة بانج العزيزة والمسكينة.

لم ينسَ السيد بانج عشاء نيلي. لم يستطع التنازل كأب، ولكن رأفته تمثَّلت في القدر الكبير من حلوى البودنج التي أرسلها لها.

قالت نيلي للخادمة: «جيني، هل ترغبين في زيادة راتبك؟»

رفعت الشابة حاجبَيها في دهشة.

«لأنه إن كنتِ تريدين ذلك، فستحصلين عليه، في منزلي.»

لم يكن من الممكن لحاجبَي الشابة أن يرتفعا أكثر من ذلك، وإلا كانا سيفعلان.

«خذي هذا الخطاب إلى العنوان المدوَّن عليه في الحال، وانتظري الرد.»

ارتفع حاجبا الشابة أكثر بالفعل وقالت: «يا إلهي يا آنسة، لقد تجاوزت الساعة التاسعة مساءً، سأفقد سمعتي ووظيفتي إذا خطوت خطوةً واحدة خارج الباب.»

«تظاهري بأن لديكِ ألمًا في ضرسك، وقولي إنك ذاهبةٌ لخلعه.»

«يا إلهي، يا آنسة، لا.»

ولكن لكل شابة ثمنٌ تتقاضاه، لفعل الخير. لم تتأثر بتقديم نيلي لخاتمها الفيروزي الصغير، ولا بعرضها عليها أن تأخذ ذلك الدبوس ذا الرسم المنقوش، ولكنها لم تستطع مقاومة الحِزام الأرجواني. على الفور، تظاهرت جيني بإصابتها بذلك الألم الزائف والهزلي الذي لن يكتشفه سوى أطباء الأسنان.

نزلت جيني إلى السيدة بانج، التي عندما رأت وجه الشابة يبدو مُتورمًا، ورأت المنديل الذي كانت تضعه بخداع على فكها، صاحت قائلةً على الفور: «ليُخلصنا الرب! اذهبي واخلعي ضرسك.»

ذهبت الشابة وعادت في العاشرة والنصف. استلمت الآنسة نيلي الرسالة في العاشرة والنصف وخمس دقائق. وفي الحادية عشرة إلا الثلث بدأت في حزم أمتعتها. في الثانية عشرة إلا خمسًا وعشرين دقيقة، كانت قد ربطت كل صناديقها وخبَّأتها أسفل الفراش، وكانت مستعدَّة للهرب، ولكن كيف ستتمكن من ذلك؟ كانت حبيسة في غرفتها، وكان بانج العجوز قد سحب صندوقًا ثقيلًا ووضعه أمام باب غرفتها. الهرب من النافذة، كان هذا هو الحل، وقد تركت لجاك أن يتدبَّر هو الأمر. كانت متأكدةً تمامًا من أنه سيعرف ما عليه فعله. كان قد قال في رسالته:

> عزيزتي نيلي، ترقَّبي قدومي الساعة الثانية صباحًا. سنتزوج غدًا في العاشرة. احزمي أمتعتك. لن تكون ثَمة صعوبة فيما يتعلق بوالدَيك الآن. حاولي أن تنسَي أمرهما.
>
> المخلص إلى الأبد،
>
> جاك ويلسون

ربما قد لاحظ القارئ الذكي مدى ولع أصحاب المنازل الصغيرة بإغلاق الأبواب، بينما يتركون النوافذ بلا رقيب، كما لو كان اللصوص سينظرون إليها على أنها جدران. جيد. إنهم يتأكَّدون من وضع قفل أعلى الباب القوي، وقفل آخر أسفل الباب القوي، ويحكمون غلق مزلاج القفل بسلسلة، ثم يديرون المفتاح مرتين. بينما توجد هناك، بعيدًا بعض الشيء، نافذةٌ صغيرة دون مصراع، وليس بها سوى مزلاج صغير ضعيف، ولكن الباب مغلق؛ لذا دعونا ننام مُرتاحي البال. صحيحٌ أن منزل بانج العجوز لم يكن صغيرًا للغاية، ولكنه

أغلق جميع الأبواب، وأوصدها بالأقفال والقضبان والسلاسل، مثلما يفعل أي مستأجر بريطاني محترم مثله. كان بانج ينام في الغرفة الأمامية الكبيرة بالطابق الثاني بجوار غرفة نيلي الصغيرة الأمامية في الطابق نفسه، ولا داعي لقول إن السيدة بانج كانت تنام معه. ومع ذلك، من المهم جدًّا أن نتذكر ذلك. كان آخر شيء فعله بانج قبل أن يأوي إلى الفراش هو أنه طرق على الحائط الذي يفصله عن نيلي وقال: «هل ستقبلين هديتي؟»

«لا.» هكذا قالت نيلي.

«إذن ستبقين كما أنتِ.»

«إذن لا بد أن تحصل على هديتي يا أبي.»

كان أول شيء فعله بانج في الصباح هو أنه ضرب على الحائط مرةً ثانية، وسأل مرةً ثانية. حسنًا، إن التكرار مُمل. ولكنه لم يتلقَّ إجابة. ضرب بانج العجوز على الحائط مرةً أخرى، وصاح مرةً أخرى كثورٍ هائج مكررًا نفس السؤال، بلا إجابة.

«بانج هو بانج، ليُخلصنا الرب.» هكذا قالت السيدة بانج الطيبة وهي تضرب بيديها كأسماك المفلطح، ولكن هذه المرة في محيطٍ أكبر وبنشاطٍ أشد.

قال بانج: «من الأفضل أن تنهضي من الفراش يا سيدتي، وترتدي ملابسك، وتُوقظي تلك الفتاة.»

ثم هرع إلى الحائط مرةً أخرى، وعاوَد الكرَّة.

نهضت السيدة بانج وارتدت ملابسها وغطاء رأس لحماية رأسها المسكين من التهاب العصب الثالث الذي كانت تلك المرأة المسكينة عُرضةً له. أخذت المفتاح وغادرت الغرفة. مرَّت دقيقةٌ مشحونة بالقلق. جيد، لقد سمع صوت المفتاح وهو يُدار في الباب، ثم فُتِح الباب. وفي اللحظة التالية سمع صوت السيدة بانج وهي تصرخ قائلةً: «ليُخلصنا الرب، يا إلهي!» قالت آخر كلمة بصوتٍ بدا مُختنقًا. هرع بانج إلى غرفة ابنته، ولم يجد سوى مجموعة من التنانير مُلقاةً على الأرض، ولكنه لم يجد ابنته في أي مكان. في الواقع، لكي أكون شديدة الوضوح، لقد اختفت الفتاة. أين ذهبت؟ وكيف؟

كان بانج العجوز قد أغلق الباب، ووضع المفتاح تحت وسادته. ها! هل تختبئ أسفل الفراش؟ رفع بانج العجوز وزوجته ملاءة السرير في نفس الوقت من جانبين متقابلين، وحدَّق أحدهما في الآخر في ظل تلك الظروف الجديدة وكأن أحدهما لم يرَ الآخر منذ ربع قرن كامل. حسنًا، لا بد أن تكون في مكانٍ ما، أليس كذلك؟ حسنًا، هل هي بين الفراش والمرتبة؟ على الفور رفع الزوجان المرتبة وهو ما جعل شعرهما يشعث وهما يفعلان ذلك. لا، لم يجدا بين السرير والمرتبة شيئًا سوى رائحة ريش ضعيفة. بدأت البرودة تسري

تدريجيًّا في جسد السيدة بانج بدايةً من أصابع قدميها. أما بانج العجوز فكان يستشيط غضبًا. اللعنة! لا بد أن تكون في مكانٍ ما! هه! يا للرعب! هل قفزت من النافذة إلى الفناء؟ اندفعا بجنون إلى النافذة. هرع كلاهما لرفعها. هاه! لقد كانت مغلقة.

والآن من الضروري أن نبيِّن كيف كانت مغلقة. يوجد بالنافذة مشبكٌ صغير يغلق إطار النافذة؛ فعندما يُسحَب إطار النافذة إلى الأسفل يعمل المشبك الصغير. إنه جزءٌ بالغ الحساسية من هذا اللغز. كان هذا هو المشبك الذي يغلق نافذة نيلي. لقد كانت مغلقة، ومع ذلك فتح بانج العجوز وزوجته النافذة الشبكية، ونظرا برعب إلى فناء المنزل، ولكنها لم تكن هناك. هاه! الدولاب! ولكنها لم تكن فيه. حسنًا، الغريق يتعلق بقشة، لذا لم يكن من الغريب أن يتفحص الأب القَلِق المدخنة كملاذٍ أخير. لو كانت السيدة بانج في حالةٍ مزاجية تسمح بالفكاهة، لاستمتعت برؤيتها لزوجها وهو يختفي تدريجيًّا في فتحة المدخنة، حتى لم يعُد يظهر منه سوى ساقيه! فجأةً اهتزَّت ساقاه، وهبط بانج أسرع مما صعد. كان وجهه مغطًّى بالسخام، ولكنه لم يُخفِ ذعره. لقد اصطدم ببعض القضبان الحديدية التي كانت قد وُضعت هناك على الأرجح عندما كانت طريقة السطو الرائجة هي رشوة الفِتيان الذين ينظفون المداخن كي يتسللوا منها ويفتحوا أبواب المنازل للصوص.

فجأةً، واتت بانج العجوز فكرة؛ هل لدى جيني نسخة من المفتاح؟ اندفع بسرعة إلى الطابق العلوي واستدعى جيني بغضبٍ صاخب.

سألته الفتاة قائلةً: «أوه، هل ثَمة حريق يا سيدي؟»

«هل لكِ يد في هذه المسألة؟»

«أوه، أرجوك ساعدني يا سيدي إذا كان ثَمة خطر!»

«أين الآنسة نيلي؟»

«أوه، أليس من الأفضل أن تسألها يا سيدي؟»

نزل بانج إلى الطابق السفلي، ولم يجد أي علامة تدل على مغادرة المنزل بطريقةٍ شرعية. كان قد أخذ، كالمعتاد، مفتاح باب المنزل ومفتاح بوابة الفناء معه إلى الفراش. وهنا تساءل، هل خرجت نيلي من نافذة المطبخ الأمامية وتسلَّقت سور الفناء؟ ولكن كيف تمكَّنت من الخروج من غرفتها في المقام الأول؟ هل فتحت جيني الباب؟ وكيف فعلت ذلك؟

طوال هذا الوقت، كانت السيدة بنج تضرب بيديها بحزن، وتجلس على الأرض مرتديةً ثوبها المصنوع من قماش الفانيلا، وتصرخ قائلةً: «أوه يا ابنتي المسكينة!»

هل سمعت السيدة بانج أي شيء أثناء الليل؟

قد تكون سمعت شيئًا أو لم تسمع، وهو ما يعني أنها ربما تكون قد استيقظت لأنها اعتقدت أنها ستُصاب بألم العصب الثالث الذي يُصيب وجهها. لقد ظنَّت أنها سمعت صوت قرقعة، ثم عادت إلى النوم، ثم استيقظت مجددًا لأنها شعرت بأنها متأكدة من أنها ستُصاب بألم العصب الثالث التشنجي. في هذه الأثناء اعتقدت أنها سمعت أحدهم يُطلِق صرخةً غريبة. كيف كانت هذه الصرخة؟ لقد بدت كأن أحدهم يقول «لوليتي!» ثم سمعت صوت قرقعة مرةً أخرى، وكان هذا كل شيء، ثم عادت إلى النوم مرةً أخرى.

بحلول ذلك الوقت، كانت كلٌّ من جيني والشابة الأخرى، ماري، ترتعدان خوفًا، ولم تستطع أيٌّ منهما إشعال موقد المطبخ.

كانت تُعاني ماري من دوار الخيل، فأُرسلَت جيني مباشرةً في طلب محقق شُرَطي.

إنه الرقيب جيمليت، الذي مع كَوْنه رجلًا شديد الذكاء والبراعة إلا أنه فشل.

قال الرقيب: «كما ترى، لم يكن سُلمًا مصنوعًا من الحبال، لماذا؟ لأنه لو كان كذلك لرُبط في حافَّة النافذة، ولا يوجد أثر لحبلٍ مربوط، وبالإضافة إلى ذلك كانت ستهبط على الصبار المُشوك. لقد كان سُلمًا، ولكنني ما زلت أشك في ذلك.»

قال بانج العجوز: «جَرِّب كل سُلَّم في الحي.» وحتى الساعة الواحدة ظهرًا — حيث لم تتوقف السيدة بانج عن الضرب بيديها ولو لحظةً واحدة، ولم تتوقف الشابَّتان عن الارتجاف (لقد أصيبت ماري المسكينة بسبع نوبات دوار) — كانوا قد وجدوا العديد من السلالم. أحضر بانج سُلمًا بعينه إلى المنزل، وبعد عشر دقائق من الصراع مع سور الفناء كانت النتيجة الوحيدة التي تحقَّقت هي الدفع به كاملًا عبر نافذة غرفة المعيشة، ولم تكن التجربة سعيدة، خاصة أن الرجل كان يسبُّ طوال الوقت، وأراد أن يعرف إن كان الرقيب جيمليت يظن أنه «مُتواطئ مع اللصوص» أم لا. لم يصل السُّلم إلى الطابق الثاني وكان يبعد عنه بمسافةٍ ست أقدام، وكان من المستحيل تصديق أن نيلي كان بإمكانها قفز مثل هذه المسافة على هذا النحو. كان اللغز عجيبًا.

قال الرقيب جيمليت: «كما ترى، لم يكن سُلمًا، لماذا؟ لأن البنَّائين لن يُعيروا أحدًا السلالم ليلًا، وما السبب؟ لأنها تبدو عملية سطو. مرةً أخرى، استغرق الأمر ربع ساعة لإحضار هذا السُّلم إلى هنا، وعشر دقائق لتثبيته بواسطة نصف دزينة من الرجال، ثم مر عبر النافذة. والآن، هل تعتقد أنه يمكن لمجموعة من الناس أن يحملوا سُلمًا في الشارع ليلًا لمدة ربع ساعة إلى مكانٍ ما، وربع ساعة أخرى في المنزل دون تحطيم الزجاج، وربع ساعة ثالثة للعودة به مرةً أخرى دون أن يراهم أحد من رجال الشرطة؟ لا، لم يكن سُلمًا.»

«ماذا كان إذن؟»

لم يقل الرقيب جيمليت قط إنه لا يعرف؛ لذا سأله: «هل أنت متأكد تمامًا من أنها كانت هناك؟»

كان هذا يفوق احتمال السيد بانج، الذي عبَّر عن سخطه بالصخب الذي أحدثه وهو يُخرج عملة الخمسة الجنيهات الذهبية ويقدِّمها للضابط. وهو ما رد عليه جيمليت قائلًا: «لا، لا، أنا لا آخذ أبدًا مالًا لا أستحقه. على الرغم من أنه نادرًا ما يكون معي خمسة جنيهات ذهبية، ربما على عكس بعض الرجال. سأكون سعيدًا لو لم أضطرَّ لدفع خمسة جنيهات ذهبية على دفعات لأخبرك كيف هربت فتاتك.»

لم تكن السيدة بانج قد انتهت بعدُ من التصفيق بيديها، وكانت جيني لا تزال مُرتعبة، وكانت ماري تتعافى من نوبة الدوار الثامنة على أريكة المطبخ.

كانت الساعة الخامسة. يا للأسف!

كانت الصدمة كبيرةً لدرجة أن ماري كانت على وشك أن تُصاب بنوبتها التاسعة. هرعت جيني إلى الطابق العلوي، وبعد أن التقطت أنفاسها قالت إنها رسالةٌ مكتوبة بخط يد الآنسة نيلي.

> كما ترى يا أبي، أنا في أمانٍ تام. متى سأعود للمنزل مع هديتي؟ ضع إعلانًا تطلب مني فيه ذلك في العمود الثاني من جريدة «التايمز». وداعًا، حبي للجميع.
>
> نيلي

في أمانٍ تام! عندئذٍ ثار غضب بانج العجوز مرةً أخرى. أما السيدة بانج، التي كانت متأكدة تمامًا من أن تشنُّج العصب الثالث قد أصابها بحلول هذا الوقت بسبب تحديقها في نافذة غرفة الجلوس المكسورة — بسبب تجربة السُّلم — فضربت بيديها بألمٍ شديد حتى بدت ضعيفة للغاية.

قال بانج إنه لن يسمح لها بأن تطأ عتبة منزله مرةً أخرى، أبدًا، وإنه لن يعترف بها ابنةً مرةً أخرى، لكنها لا بد أن تكون قد هربت بطريقةٍ ما! لن يسمح لها بالعودة إلى منزله مرةً أخرى.

ولكن بانج العجوز كان رقيق القلب وفضوليًّا للغاية. كان سيغيِّر رأيه عاجلًا أم آجلًا، ولكن ألمَ لغز هرب ابنته كان يستثير أعصابه بسهولة.

في اليوم بعد التالي، نُشر ما يلي في العمود الثاني من جريدة «التايمز»:

عزيزتي نيلي، عُودي إلى المنزل. لقد غفرت لكِ كل شيء. أحضري هديتكِ.

بعد ظهر ذلك اليوم وصلت عربة أجرة إلى باب المنزل، وبداخلها نيلي وهديتها؛ جاك ويلسون.

إنني أُكنُّ احترامًا لبانج العجوز؛ لذا لن أسترسل في كيفية محاولته لعب دور بروتس وانهياره، ثم تأديته لدور الأب الفطن الصافي الذهن.

قال جاك: «أتعلم يا سيدي، سأحصل على أكثر من سبعة آلاف جنيه استرليني سندات حكومية بفائدة ثلاثة في المائة قبل أن أكون في عمر ترانك.»

قال بانج العجوز: «وماذا عن السبعة عشر سهمًا ممتازًا؟»

«في فندق «ذا جريت نورثرن»؟ حسنًا، لديَّ سبعة منها بالفعل لأن الخال ترانك قد أعطاني إياها هذا الصباح — أوه، أجل، إن ترانك هو خالي — مكافأةً لي على الطريقة البارعة التي فُزتُ بها بنيلي.»

«وكيف فعلت هذا بحق الجحيم؟»

أجاب جاك ويلسون، الذي كان شابًّا فطنًا وأنيقًا، قائلًا: «لقد ذهبت إلى الجوار ورشوت الإطفائي. لا تُخبر أي أحد، وإلا جعلت رجال الإطفاء يُواجهون مشكلةً كبيرة.»

قال بانج العجوز بتسامح وانهزامية: «لا، لن أفعل على الإطلاق.»

ولكنه فعل، وإلا فكيف كنت سأعرف ذلك؟

ألم يكن ذلك غريبًا؟


هنداوي